

إعلموا أني فاطمة

(الجزء الخامس)

عبد الحميد المهاجر

الطبعة الثانية

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

علي صراط الحق

حقوق الطبع والنشر محفوظة

دروس وعبر من حياة
فاطمة الزهراء عليها السلام

عطاء فاطمة عليها السلام بلا حدود

وأول درس يضيء لنا الطريق هو عطاء فاطمة عليها السلام غير المحدود من أجل الله عز وجل فقد كان للعطاء عند فاطمة عليها السلام رؤية جديدة لم تألفها البشرية من قبل، ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك بشيء من الإيجاز والاختصار فخير الكلام ما قل ودل ..

أولاً- هذه فتاة فقيرة تقف على باب فاطمة عليها السلام تطلب شيئاً تستر به على نفسها، فما كان من الزهراء عليها السلام إلا أن خلعت ثوب عرسها وزفافها الجديد وأعطته تلك الفتاة، وحين سألها أبوها النبي محمد ﷺ عن ثوبها الجديد صبيحة عرسها وذلك حين وقع بصره عليها وهي ترتدي ثوبها القديم قالت: -ما مضمونه- أنها تصدقت به على فتاة فقيرة ليس عليها ثياب جديدة واكتفت بهذا الثوب القديم لأنها تذكرت قول الله عز وجل: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(١) وهي تحب الثوب الجديد فأعطت ما تحب لترك أثراً طيباً في نفسها .. وفي هذا بلاغ لقوم عابدين يبحثون عن الحقيقة، فالعطاء في الإسلام له أثران، أثر في الدنيا وآخر في الآخرة أو قل: للعطاء أثر تربوي وأثر بدني يسد حاجات البدن، ولكن الأثر التربوي هو الذي يترك حالة خاصة على النفس والقلب والروح والعقل:

(١) آل عمران/ ٩٢ .



﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (١).

هذا منطق القرآن الكريم أما ما ذكرته الزهراء عليها السلام وهي كتاب الله الناطق فقد أظهرت فيه هذه المعجزة أن العطاء يربي النفس ويزكيها فقالت: وجعل الله الزكاة تزكية للنفس ونماءً في الرزق، وسيأتي الكلام في حينه حول هذا الموضوع انشاء الله تعالى.

وثانياً - نجد في بيت فاطمة عليها السلام فتاة شابة وهي جارية من قلب أفريقيا من الحبشة واسمها فضة وقد بلغت هذه الفتاة مدارج ومعارج كبيرة من العلم والفضيلة حتى ورد في حياتها أنها ما كانت تتكلم إلا بلغة القرآن لسنوات طويلة، وكانت قد أخذت بعض العلوم التي لها علاقة بالبلايا والمنايا، يدل على ذلك أمر أمير المؤمنين عليه السلام لها بأن تتولى دفن المحسن السقط الذي وقع بين الحائط والباب من أمه فاطمة عليها السلام المظلومة التي وقعت من الضرب مغمى عليها .. هذا بالإضافة إلى أن فضة كانت قد تلقت معلومات واسعة حول علوم الكيمياء والهندسة والرياضيات كما هو معروف للذين يتابعون حياتها، والشيء الذي يلفت النظر في حياة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام وكل حياتها ملفته للنظر مثيرة للدهشة تحرك العقول والقلوب والألباب، هو أن أعمال البيت جعلتها الزهراء عليها السلام مناوبة بينها وبين فضة هذه الجارية الطيبة، بل أكثر من ذلك، أكدت الزهراء عليها السلام أنها تلقت وصية من أبيها النبي أن تجعل عمل البيت يوماً لها ويوماً لفضة،

(١) التوبة/ ١٠٣ .



وهذا لعمري مستوى يفوق كل التوقعات التي يمكن للإنسان أن يتفكر بها في مثل هذا الشأن .

على أن وجود فضة في قضية الإطعام للمسكين واليتيم والأسير، إنما هو للتدليل على أن في إمكان الناس جميعاً أن يقوموا بهذا العمل ويطعموا الطعام ويصلوا في الليل والناس نيام، مع ملاحظة أن درجة الثواب تبقى لها خصوصيتها بالنسبة لفاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، فالعمل هو العمل ولكن الثواب ودرجة المعرفة تبقى خاضعة لدرجة الإيمان ومنزلة الشخص عند الله عزوجل، أشبه شيء بالأولياء الصالحين الذين سألوا الله أن يجعلهم في مصاف الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .. فهؤلاء كانوا مع الأولياء في مصافهم ولكن درجة النعيم تختلف من شخص إلى آخر ..

أقول هذا لأبين لكم أيها الأحبة أن وجود فضة في دار الزهراء عليها السلام يظهر أن في الإمكان القيام بهذا العمل عمل الإطعام وإن كان الناس لم ولن يستطيعوا أن يبلغوا حتى ولا نسبة قطرة من البحار مما بلغه أهل البيت عليهم السلام من العلم والإيمان والمعرفة .. غير أن هذا لا يمنع - بالضرورة - أن نحاول الوصول إليهم وبلوغ الغاية عندهم روي لهم الفداء.

ثالثاً - مسألة الإطعام بحد ذاتها التي جرت في بيت الزهراء عليها السلام كان لها وقع كبير في المجال التربوي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد من أبناء الأمة المرحومة أمة الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وآله حيث نجد أن الله عزوجل عندما أراد أن ينقل لنا هذه القصة التربوية



العظيمة نقلها في سورة أطلق عليها اسم الدهر واسم الإنسان، ثم وجدنا السورة انطلقت من عالم ما قبل الذر واستمرت ظاعنة في رحلة الخلق والإنشاء والإبداع حتى إذا وصلت إلى النطفة، راحت تشد القلوب والبصائر والأرواح إلى هؤلاء الطيبين الطاهرين كيف كانت أعمالهم لوجه الله تعالى خالصة ليس فيها ذرة من الرياء ولا غبرة من الشك على الإطلاق .. فانطلقت الرحلة من النطفة إلى أن يصبح عمل الإنسان خالصاً لوجه الله الكريم:

﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (١).

وهذا هو المعنى العميق للإطعام عند أهل البيت، ليس هذا فقط وإنما لكل عمل يقوم به آل محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين إنما يكون لوجه الله ليس لأحد فيه من شراكة تجزى، فتجد العقيلة زينب سلام الله عليها وقفت يوم كربلاء على مصرع أخيها الحسين عليه السلام لتضع يديها تحت الجسد المرمل بالدماء وتنظر إلى الأفق البعيد رافعة صوتها بالبكاء والدموع والخشوع فتقول:

اللهم تقبل منا هذا القربان فداءً لوجهك الكريم، يا الله ما أعظم هذه المرأة وما أعظم القربان الذي تقدمه بين يدي الله عزوجل وهو الذبيح العظيم الذي ذكره الله في قصة الذبيح إسماعيل في سورة الصافات وكيف أن الله عزوجل رفع التكليف من إبراهيم وإسماعيل ليجعله على الإمام الحسين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .



وما يقال في هذا يقال في إعطائها العقد للفقير الذي وقف على باب دارها يطلب العون والمساعدة فما كان من فاطمة عليها السلام إلا أن رمت العقد اللؤلؤ الذي كان عليها منذ الصباح حيث أهدته إليها فاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب فلم يسترح العقد على صدر فاطمة عليها السلام أكثر من ساعة واحدة ..

وقد تركت هذه القصة في نفوس المسلمين من الأثر التربوي الذي لا يعلم مداه إلا الله عزوجل خصوصاً في نفس النبي ﷺ حيث راح ينادي فداها أبوها، فداها أبوها، ثلاث مرات ..

وذاث الشيء يتكرر في مواقف أخرى في بيت فاطمة عليها السلام حيث تطحن الحنطة والشعير لضعفة جيرانها من النساء اللواتي لا يملكن ربحاً في بيوتهم، وقد قرأت فيما قرأت -ولا أستبعد ذلك - أنها روي فداها كانت تقوم أحياناً بإعطاء بعض جيرانها قرب الماء .

على أن أعمال البر والإحسان التي كانت تسارع الزهراء عليها السلام فيها لا تخضع للعد، ولا للحصر ولكن يكفي لمن يريد المزيد من الإطلاع أن يلقي نظرة على سيرتها الذاتية، وعلى حياتها في بيتها مع بنيتها وبعلمها ليعرف كم هي حياة فاطمة عليها السلام مشرقة تضيء طرق السموات والأرض، ولا غرابة في ذلك بعد أن عرف العالم كله أنها هي المشكاة التي جعلها الله مثلاً لنوره تضيء السموات والأرض، والدنيا والآخرة وهذا هو الحق .

إذن: فهذه الصور الفاطمية التي اقتبسناها من حياة فاطمة عليها السلام إنما هي نور يهدي إلى الحق والرشاد، والخير والرحمة، ويبين للناس



المعنى العميق لمفهوم الزهد في الحياة وأن الزاهد غير الراغب والصادق غير الكاذب، وفاطمة عليها السلام هي أم الصادقين والله يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١).

وهم سفن النجاة التي لا ينجو من تركها ولا يفرق من ركبها فتعالوا نركب هذه السفن التي تجري في البحر بأمر الله بسم الله مجراها ومرساها وعلى الله توكلنا وإليه أنبنا، وإليه المصير.

وإذا أردتم وأحببتم أيها الأخوة والأخوات إلقاء مزيد من الضوء حول هذا الموضوع فتعالوا نتابع قيمة الإنسان في هذه الحياة تحت عنوان:

ذم الدنيا ماذا يعني؟

(١) التوبة/ ١١٩ .





مناهج التربية عند

فاطمة العليها السلام

مناهج التربية عند فاطمة السليمانية

قالت الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها :
(ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة
لعباده عن نعمته، وحياسة لهم إلى جنته) .

إذا كان لكل شيء غاية وهدف في الحياة، فما هي الغاية من خلق
الإنسان، وما هو هدفه في الحياة ؟

حين نلقي نظرة على الكائنات نجد قانون العلة يحكم كل شيء،
فهناك العلة المادية، أي السبب أو العامل المادي الذي انبثق منه ذلك
الشيء، فالباب مثلاً مصنوع من الخشب، وله صورة خاصة به على
شكل الباب الذي نراه أمامنا، وله صانع صنعه، ثم غاية الباب أن
يحفظ الدار أو المكان من الاستباحة .

على أن هذا الأمر يجري على كل شيء كما يجري على الإنسان
أيضاً، ولكن قبل الوصول إلى الإنسان دعونا نلقي نظرة على الشجرة
مثلاً، فنجد أنها مصنوعة من التراب ثم لها شكل يتناسب مع هدفها
في الحياة، ولها صانع صنعه، ولها هدف وغاية، أن تعطي ثمارها
للإنسان وتمنحه كل ما فيها من ثمر وورق وأغصان وخشب، هذا في
الكائنات ...

فماذا في الإنسان ؟

لا شك أن الإنسان خلق من الطين والتراب، فهذه مادته الأولى، ولكنه في الوقت الذي وجد فيه من التراب، دخلت فيه نفحة من روح الله فأعطته العقل والروح والقلب والوعي، بخلاف قبضة الطين التي كونت للإنسان هذا البدن الذي هو أشبه بالعربة التي يقضي عليها أعماله وأشغاله، لأن القرآن يؤكد أن الإنسان هو غير هذا البدن .

قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿١﴾ ﴾

إذاً: ففي أي صورة ما شاء الله عز وجل ركبته، وهذا يدل على أن البدن عبارة عن مركبة تحمل في داخلها الإنسان الروح والعقل والقلب والضمير والوجدان، ومن هنا كان كل ما يحتاجه البدن الذي هو من الأرض يجده في الأرض من مأكّل وملبس وشراب ومسكن وكل الحاجات التي تخص البدن، فإنها إنما ترجع إلى الأرض وتتعلق من الأرض .

بخلاف حاجات الروح التي هي من السماء، إذ العلم من السماء والإيمان، وهناك الخير والبركة والرحمة، هذه كلها من السماء هي الأخرى، وهذا أعظم دليل على أن الإنسان لا يستطيع العيش على طبيعته الطينية حين ينقطع عن السماء، أو عن عالم الملكوت .

(١) الانفطار / ٦-٨ .

ولو نظرنا إلى الطفل الوليد، فإننا سنجد أنه يحتاج إلى نوعين من الطعام ، كغذاء للبدن وغذاء للروح، وقد جعل عز وجل غذاء بدنه في ثدي أمه من اللبن، وغذاء روحه في حجرها، حيث ينظر بعينه إلى وجهها فإذا رآها حزينة أو مضطربة أو خائفة، فإنه يصرخ ويبكي لأنه لا يريد الحليب وحده من الأم، وإنما يريد مع الحليب حبها وحنانها، ودفتها وسكونها، ومن هنا كانت اللفتة العلمية الرائعة في ولادة عيسى بن مريم عليهما السلام حيث يقول الحق :

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَؤُلَاءِ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا (١)﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ دليل على حاجة الطفل الرضيع إلى الأمن والغذاء ، في لحظة واحدة، لأنه قال تعالى: ﴿فَكُلِي﴾ من الرطب، ﴿وَاشْرَبِي﴾ من الماء، فهذا يتحول بسرعة إلى طاقة في جسم الأم فيجعلها قادرة على إرضاع طفلها وتغذيته بالحليب.

وفي قوله: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾، إشارة إلى حالة الأمن والطمأنينة التي تحتاجها الأم لتمنح ولدها الأمن والطمأنينة، وإلا فالمرأة الخائفة لا تستطيع أن توفر الأمن للطفل، لأن فاقده الشيء لا يعطيه .

إذاً : ففي هذا دليل على أن غذاء الإنسان يتكون من مصدرين أساسيين :

(١) مريم/ ٢٤ - ٢٦ .

من الأرض والسماء، ولعل ضرب الأمثلة في هذا المجال مفيد جداً، كما ورد في ضرب الشجرة مثالا للكلمة، إذ أن الشجرة تغذي الأبدان، والكلمة تغذي العقول، وفيها جانبان: جانب في الأرض، وجانب في السماء، فهي أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ... أو يتذكرون كما في آيات أخرى .

وأعود بكم إلى أصل الموضوع، وهو أن لكل شيء عللاً تساهم في وجوده، فالعلة المادية في الإنسان إنه مخلوق من الطين والتراب، والعلة الصورية أنه مخلوق في أحسن تقويم، والعلة الفاعلية إن لهذا الإنسان خالقاً صوّره فأبدع في تصويره، وخلقه فأحسن في خلقه، وجعل الكائنات كلها منقادة له بل سخرها لخدمته، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ على الإنسان نعمه ظاهرة وباطنة، حتى قال تعالى: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (١) .

غير أن أبرز هذه النعم هي نعمة الوجود، لأنني لم أكن شيئاً قبل وجودي ثم أفاض الله عليّ الخلق والوجود، ثم تأتي نعمة العقل وهي بدورها نعمة ذات فاعلية مركزية في الإنسان، وذلك أن الإنسان بغير العقل يغدو واحداً من البهائم والأنعام بل أضل منهم، فما العقل إلا حجة لله مع الرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، فلولا العقل لكان أدنى ضيغم، أدنى شرف إلى الإنسان .

وقد ورد في الحديث أن الله عز وجل حيث خلق العقل، قال له :

(١) إبراهيم/ ٣٦.



(أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال : وعزتي وجلالي ، ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب ، بك أثيب وبك أعاقب) .

إذاً: فمن كل ذلك يتبين أن كمال الإنسان بالعقل ، وكمال العقل بالدين، لأنه قال: ولا أكملتك إلا فيمن أحب والذين يحبهم الله هم أهل الدين والإيمان والتقوى، أما غيرهم فليس لهم عند الله وزن ولا قيمة، ومن هنا كان كمال الإنسان بالعقل، وهذه نعمة ثانية تجعل الإنسان قادراً على الانتفاع من فرصة العمر، وعلى التفاعل مع الحق وأهل الحق ، لذلك نجد كمال العقل بالدين، وكمال الدين بولاية علي أمير المؤمنين عليه السلام، إذ يقول الحق سبحانه :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

ومن هنا يظهر أن ولاية أمير المؤمنين سارية وجارية في أبنائه من أئمة الحق صلوات الله عليهم أجمعين وعلى رأسهم الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، هذا من جانب ومن جانب آخر، فإننا نجد العلة الغائية أي الغاية من خلق الإنسان، نجدها واضحة في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) ...

(١) المائدة/ ٣.

(٢) الذاريات/ ٥٦.



وهذا هو الحق، غير أن المسألة تظل عائمة ليس فيها وضوح حيث
يرد السؤال: ماذا تعني العبادة هنا ؟

ويجيء الجواب مفعماً بالنور والعلم والإيمان من أبي الأحرار الإمام
المظلوم أبي عبدالله الحسين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، حيث
يفسر هذه الآية بقوله :

إن الله عز وجل لم يخلق الخلق إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، وإذا
عبدوه ، استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه، وهذا هو الحق .

في هذا المجال وفي كل مجالات الفكر الإسلامي عند أهل البيت
عليهم السلام، إذ إن العبادة إنما هي لتحرير الإنسان من الأغلال
والقيود .

قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(١) .

ومن هنا لم تكن العبادة بكثرة الصلاة والصيام، وإنما هي بكثرة
التفكير في أمر الله عز وجل، ومن هنا أيضا لم يكن العلم بكثرة التعلم،
وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء ، وفي قلب من يحبه، أي
أصحاب القلوب الصادقة والنيات الطيبة الطاهرة الذين هم في صفاء
وشفافية و رقة، ورحمة تفجر قلوبهم فتظهر ملامحها على وجوههم
وعيونهم وأفواههم .

(١) الأعراف/ ١٥٧ .



إذاً: فالعلة المادية في خلق الإنسان أنه مخلوق من طين، والعلة
الصورية، أنه خلق في أحسن تقويم، والعلة الفاعلية أن الله عز وجل
هو الذي خلقه وأوجده ، في حين أن العلة الغائية هي في قوله تعالى:
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .

ولذلك يقول الحق : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ (١) .

وهنا يجدر بنا أن نتوقف لحظات في تأمل وتفكر وتدبر لهذه
السورة العظيمة، وكل شيء في القرآن عظيم، أنه يقسم بالعصر أي
الوقت والزمن والعمر، وهذا حسب التفسير الظاهر، لا بحسب التأويل
ومعرفة الباطن، فالقرآن له ظهر وبطن ولبطنه بطون وبطون، كلما
فتحت القرآن ظهرت لك آفاق جديدة ورؤى فكرية في العلم والمعرفة .

على أن التأمل في هذه السورة يكشف لنا أن المراد بالعصر إنما هو
صاحب العصر والزمان الإمام المهدي المنتظر صلوات الله وسلامه
عليه .

(١) سورة العصر.



في دار فاطمة عليها السلام

الإيمان إقرار وسلوك

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (١).

* قيمة الإنسان :

إن قيمة الإنسان الحقيقية تتبلور وتأخذ حجمها الفعلي منذ اللحظة التي يؤمن فيها أن هناك خالقاً لهذا الكون ومدبراً لشؤونه، هو الله سبحانه وتعالى. وعلى هذا يقوم الإنسان أي يكتسب قيمته من إيمانه بالله سبحانه وتعالى. وهذه القيمة ليست بأي حال من الأحوال قيمة مادية، لأننا لو أردنا أن نقوم الإنسان بالمادة لما وجدنا له ثمناً. وإذا كان الشرع يجعل للإنسان المقتول دية فهي فقط لتنظيم الحياة وقوانينها فقط.

فأله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (٢).

(١) الحج / ١-٢.

(٢) المائدة / ٣٢.

وعلى هذا فثمن الإنسان لا حدود له لا سيما إذا كان مؤمناً تنتظره جنة عرضها السموات والأرض. فهو نور وعطاء تسبح له الأرض وتستغفر له الملائكة، والله سبحانه وتعالى يباهي بعبده المؤمن ملائكة السماء.

وقبل أن يأمر الله سبحانه الروح أن تدب في جسد آدم عليه السلام قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (١).

لقد طلب من الملائكة أن يسجدوا لآدم في اللحظة التي دخلت فيه نفخة من روح الله سبحانه. إنها نفخة الإيمان والفطرة.

إن هذا الإنسان الذي تسجد له الملائكة بما فيهم جبرائيل - عليه السلام - إنما اكتسب هذه القيمة التي خولت له السجود من قبل الملائكة، اكتسبها من نفخة النور. لذلك جبرائيل، على علو مكانته في عالم الملائكة يسجد للإنسان عندما تسمو به الفطرة ويرتفع به الإيمان.

وعلى هذا نفهم أن هذا الإنسان إذا تجرد من إيمانه وفطرته أصبح بلا قيمة وبلا ثمن. إن الإنسان عندما يصل إلى هذا المستوى من الإيمان معنى ذلك أن الفطرة حصلت على ما تحتاجه من أجواء وواقع، فصارت إلى الله سبحانه وتعالى برفقة من نور الإنسان الإيماني، هذا النور الذي يرافق الإنسان إلى يوم القيامة.

ولكن الإيمان وحده لا يكفي فهو يحتاج إلى ترجمة وإلى حركة، وهو

(١) ص / ٧١-٧٢.

لا يترجم إلا بالعمل الصالح. حتى العمل الصالح كلمة مطاطة تحتاج إلى قاعدة ثابتة هي الأخلاق. إذاً الإيمان يترجم بالأخلاق.

* الإيمان والأخلاق:

إذاً حتى يكون للإيمان أثره الدافع، وحتى يجعل الإنسان ذا قيمة ثمينة، يجب أن يقترن بالأخلاق، لأن الأخلاق هي الترجمة الفعلية له. كما أن الأخلاق نفسها لا قيمة لها إذا لم ترتبط بالإيمان بالله سبحانه وتعالى. فإذا وجدت معزولة عن الإيمان فهي أخلاق تقوم على المصلحة والمنفعة الآنية، فإذا كنت أنا خلوقاً في تعاملتي معك دون أن أكون مؤمناً، معنى ذلك أن دافعي الأخلاقي هو المصلحة.

لذلك عندما سألني أحد الشباب قائلاً: ما رأيك في إنسان أقدم له كل ألوان المساعدة والخدمة، وعندما وصل إلى هدفه ونجح في حياته تتكر لي كأنتي لم أقدم له أية خدمة ولم أسد له معروفاً؟ قلت له: إن الرأي في هذا واضح. إذا كنت قد أسديت له المعروف لكي تحصل على جزاء منه فأنت لا تعرف قيمة نفسك، في حين إذا كنت ترجو الثواب والجزاء من رب العالمين فثوابك عند الله مضمون. وهذا هو الفحوى المراد من الآية الكريمة التي وردت على لسان أهل البيت - عليهم السلام - ﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ (١).

فهل كان الإمام علي والزهراء والحسنان - سلام الله عليهم -

(١) الإنسان / ٩.



ينتظرون الجزاء من المسكين واليتيم والأسير؟، أبدأ، لأنهم أطعموهم لوجه الله وتقرباً إليه، وهو سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وهذا هو بالذات المعنى المراد من ارتباط الإيمان بالأخلاق. وعلى ذلك إذا قمت بعمل طيب فأسديت للناس خدمات وأنت تنتظر الجزاء منهم، معنى ذلك أنك جعلت المعروف رهوناً بردة فعلهم، فلو تتكروا لك لألغيت من قاموسك فكرة المعروف أصلاً. وهذا المنطق مرفوض في ميزان رب العالمين، لأن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي. ولعل الإمام زين العابدين، أراد هذا المعنى عندما قال في دعائه: (الحمد لله الذي وكلني إليه فأكرمني، ولم يكلني إلى الناس فيهينوني). فالناس شيمتهم نكران الجميل وإهانة الخلق إلا المؤمن.

لأن المؤمن يتحرك بنور الله وينظر به، فلا يجرح شعور الآخرين ولا تجد عنده غيبة ولا نميمة ولا نفاقاً، إنه يحفظك في حضورك وفي غيابك، ويصون دمك وعرضك ومالك ويحفظ سرك لأنه يعتبر ذلك أمانة في عنقه لا يفرط فيها.

إذاً هناك تلازم وثيق بين الإيمان والأخلاق، وتواصل متين بينه وبين العمل الصالح. لذلك لا قيمة للصلاة وللصوم وسائر العبادات إذا لم يكن فيها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ولا قيمة للإيمان إذا فقدت احترام الناس وابتعد عنك الآخرون بسبب مسلك مشين يصدر عنك ؟

كما أن الأخلاق إذا كانت بغير إيمان يدعمها ويوجهها، فهي أخلاق مادية بحتة، تستمر باستمرار المصلحة وتنتهي بانتهائها لأنها تقوم على أساس واهٍ وضعيف، كما هي الأخلاق في الغرب تماماً، إذ تجد الفرد هناك لا يخدمك إلا مقابل أن تخدمه، فهو غير مستعد أن يضحى من



أجلك بغير مقابل. لذلك لا قيمة لأي عمل يقومون به عند الله سبحانه. لذلك يقول الإمام الحسين عليه السلام: (الناس عبيد الدنيا الذين لعق على أسننتهم يحوطونه ما درت معائشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون). إن مثل هذا الفكر لا نجده أيها الأحبة إلا عند أهل البيت - سلام الله عليهم - لأنه فكر مأخوذ من رسول رب العالمين.

* ما هي علامة الأخلاق:

والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف نعرف الخلق من غيره؟ هل نعرفه من ابتسامته مثلاً؟ بالطبع لا، فالإبتسامة لا تدل على الأخلاق، وأن كان البشر في الوجه مطلوباً، فالمؤمن بشره في وجهه، يدفن غضبه في صدره ويجعل أحزانه في قلبه، وعندما يلتقي بالإخوان يبادرهم بوجه بشوش طلق دون أن يوزع آلامه على الآخرين. هكذا كان رسول الله ﷺ يدخل المسجد وبشره في وجهه يوزعه على أصحابه ويدخل الفرح والسرور والطمأنينة إلى نفوسهم.

إذاً أعود إلى طرح السؤال: كيف نعرف الخلق من غيره؟ إن من علامات الإنسان الخلق، أن يملك زمام نفسه، أي لا يسمح للشهوات أن تطغى، والطفيان تعبير قرآني جميل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ (٦) أن رآه استغنى ^(١).

فالخلق إذا كان صاحب مال فهو لا يسمح لأمواله أن تجعله طاغية

(١) العلق / ٦-٧.

يتجاوز حدوده، فلا يبطر ولا ينسى ذكر الله ولا ينسى آخرته ولا ينسى أن هناك قيامة وأن هناك قبراً سوف ينام فيه ليلة الوحشة.

إن الإنسان المتمول عندما تطفئ عليه أمواله تجعله ينسى كل ذلك، ويسلم قيادة إلى الدنيا فتجره إلى أوديتها السحيقة. إن مثل هذا الإنسان لا أخلاق لديه لأنه طغى، حتى ولو رأيت يوزع ابتساماته على الناس. فالأخلاق لا تسمح للشهوة أن تطفئ بل تضربها. ولكي تتضح الفكرة أكثر أضرب لكم مثلاً قرآنياً لأن القرآن الكريم يزخر بكل أنواع العلوم . ونجد في سورة دروساً رائعة في علم النفس تثير لنا ظلمة أيامنا.

إن الناس أيها الأحبة يعيشون في ظلام حالك بعيدين عن نور القرآن الكريم، فلو سنحت لهم الفرصة ووضعوا أيديهم على هذا النور لما ابتعدوا عن القرآن لحظة واحدة ولا تخذوه نبراساً لهم يبدد الظلام الدامس الذي يغلف حياتهم.

* صورة قرآنية رائعة:

جاء في سورة الكهف المثال القرآني التالي: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي

خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا (١) هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ
 بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنْ أَنَا
 أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا
 حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ
 طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأُصْبِحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
 عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ
 عُقْبًا (٢).

يلاحظ في هذا المثال الرائع ما يلي:

أولاً: أمامنا صورتان متقابلتان: صورة لكافر فقد الإيمان والأخلاق
 وامتلك مادة فطفت عليه وسببت له الطغيان والكفر فراح ينظر إلى
 الحياة من خلال المادة، ورأى القوة كلها تتمثل في المظاهر المادية
 البحتة دون أن يلتفت لقوة أخرى أشد ثباتاً هي قوة العقيدة والإيمان.
 فقد أحس بالقوة من خلال ما يمتلكه من أرض وثمر وأولاد. وبالمقابل
 صورة المؤمن الذي يستشعر القوة من خلال إيمانه بالله الذي خلقه،
 وبأنه قادر على كل شيء يرزق من يشاء ويختبر خلقه فيما يرزقهم
 ليرى أيهم أحسن عملاً.

ثانياً: إن الصحبة التي وردت في قوله تعالى «قال له صاحبه»،

(١) اختصار/ لكن أنا.

(٢) الكهف/ ٣٢-٤٤.

غالباً ما تكون في القرآن الكريم بين مؤمن وكافر. فيوسف عليه السلام يقول لمن معه في السجن: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١).

وأبو جهل يقول لأبي لهب عن النبي ﷺ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢). إذا الصحبة هنا ليست بمفهومها اللغوي الذي يفهم منه معنى الألفة والمحبة.

ثالثاً: لقد فهم الكافر الأمور بشكل فيه الكثير من المغالطة، بل فيه كل المغالطة. فهو يعتقد أنه محبوب من الله بدليل أن لديه الأموال والرزق الوفير والذرية من الأولاد بالرغم من أنه لا يصلي ولا يعبد الله ولا يلتفت إلى الفقراء، في حين أن الثاني لم تتفعه صلاته وعبادته، فهو لا يمتلك المال أو الولد. وقد أدى به هذا المنطق الخاطئ إلى الكفر بالله سبحانه وتعالى وإلى الكفر بيوم القيامة فليس هناك جنة ولا نار، وبالتالي يعتقد أنه قد امتلك كل الأسباب المادية التي تؤمن له حياة رغيدة ثابتة دائمة.

رابعاً: يقابل هذا المنطق الخاطئ، ما صرح به المؤمن عندما كان يحاوره قائلاً له: كيف يمكن لك أن تكفر بالله سبحانه الذي خلقك من تراب وأنت قبلها لم تك شيئاً مذكوراً ثم حولك إلى نطفة وبعد ذلك سواك رجلاً على الهيئة التي أنت فيها. وإذا كنت أنا أقل منك مالاً

(١) يوسف / ٣٩.

(٢) التكويد / ٢٢.



وولداً، فعسى أن يرزقني الله ما هو خير من بساتينك، علماً أن بساتينك هذه قد يرسل الله عليها عواصف تقتلعها من أصولها، وبعد ذلك يغور ماؤها في الأرض فتصبح عاجزاً عن طلبه وانتشاله فتجف أرضك ولا ينبت فيها أي زرع بعد ذلك. إذاً أراد المؤمن أن يوضح لصاحبه أن المادة ليست ثابتة ودائمة، بل هي معرضة للزوال بإذنه تعالى، وأن هناك ما هو أقوى منها، ذلك هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

خامساً: وكانت الفاجعة بالنسبة للكافر عندما هبت العواصف، وأحاطت بثمره فأصبح قاعاً صفصفاً، فأدرك بعد فوات الأوان أنه كان على خطأ وتمنى لو أنه لم يشرك بربه أحداً، لا سيما عندما وجد نفسه وحيداً، ليس هناك من ينصره من أولاد أو عشيرة لأن كل ذلك لا يغنيه من الله شيئاً.

ونخلص إلى القول: إن على الإنسان أن يملك زمام نفسه أمام الشهوة وألا يقع تحت وطأتها المادية حتى لا تتسيه حقيقة نفسه، فإذا أنعم الله عليه بمال أو ثروة عليه ألا يبطر وألا يطفئ ويتجبر، بل يبقى متواضعاً دون أن تفقده المادة إيمانه بالله سبحانه وتعالى لئلا يسقط في بؤرة الكفر التي يستحق عليها ناراً وقودها الناس والحجارة.

*** يمهل ولا يهمل:**

ومن خلال هذا المثال القرآني نفهم أن الله سبحانه قد أقام الحياة على توازن رائع، وأن الحياة وجدت للاختبار والامتحان لكي يبتلي



الناس أيهم أحسن عملاً، سواء في حالة الغنى أم في حالة الفقر. إذ ليست القاعدة أن يعطي الله الإنسان إذا كان مؤمناً ويحرمه في حالة الكفر. ولو كان الأمر كذلك لما قامت الحياة ولما استقامت.

ومن هنا يجب أن ندرك أن جزاء المعصية قد يتباطأ ويتأخر، ولئن أمهل الظالم فلن ينجو من العذاب والجزاء لأن الله سبحانه وتعالى له بالمرصاد. فقد كان بإمكان الله عز وجل أن يبعث الأنبياء بالقوة والمال لكي يرغموا الناس على الإيمان رهبة أو رغبة. ولكن أين الحكمة في ذلك؟ يجب أن يؤمن من آمن عن بينة وإقناع حتى يثاب على اختياره، ومن كفر وتنكر للحق يجب أن يحق عليه العذاب لأنه اختار الطريق الخاطئ برغم البينات والبراهين والحجج.

إن الله سبحانه إذا كان لم يزود الأنبياء بالقوة المادية، فقد زودهم بالمنطق والحجة، فهذا موسى النبي يدخل على فرعون بثياب من صوف يحمل عصاه وينتعل الليف في حين أن فرعون غارق بالذهب والديباج والحرير واللؤلؤ. لذلك سخر فرعون من موسى، إذ كيف يمكن أن يكون موسى الفقير مرسلاً من الله وهو يرتدي الصوف الممزق ويحمل العصا كما يفعل الرعيان الذين يرعون الماشية.

وهنا تبرز قوة موسى القائمة على الإيمان على أساس أن القوة ليست بالسلاح والمال والمادة بل هي قائمة على الاتصال برب العالمين. وهذه العصا التي سخر منها فرعون سوف تتحول إلى عملاق يبتلعه ويدمر ملكه وقصره وجبروته. إن الله سبحانه وتعالى يريد للناس أن يدخلوا حظيرة الإيمان عن طواعية واختيار، لا تحت وطأة الإرهاب بالسلاح أو الترغيب بالمال.



ومن هنا نفهم كيف كان يمر الشهر أو أكثر على رسول الله ﷺ وليس عنده في بيته طعام يؤكل، ونفهم أيضا كيف أن مصعب بن عمير ترك أهله وترك الأموال والثراء ورغد الحياة المادية، والتحق برسول الله ﷺ وهو يرتدي قطيفة ممزقة، يجوع يوما ويشبع يوما عن رضى وقناعة وقبول.

لقد أصبح الأمر مفهوما عندما نقول: أن الجزاء على المعصية قد يتباطأ أحيانا، لأن الله سبحانه إذا أراد أن ينتقم فورا من عصاة لما بقي أحد على سطح الأرض. لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (١).

إن الله الذي خلقنا حكيم ورحيم، وكل شيء عنده بميزان وحساب دقيق. وإلا لدبت الفوضى واختل نظام الكون برمته. ولكن حكمة الله سبحانه وتعالى أبعد مراما وأعظم من أن ندركها بعقولنا الصغيرة التي تعجز عن أبسط الأمور. وعلى هذا فلنعبد الله سبحانه الذي يستحق العبادة، وهو لن يضيع أجر من أحسن عملا.

* سكارى وما هم بسكارى

والآن تعالوا أيها الأحبة لكي نعيش لحظات في أجواء الآيات التي بدأنا بها حديثنا حيث يصور لنا الله سبحانه وتعالى ذلك الموقف

(١) فاطر/ ٤٥.



الرهيب يوم القيامة، الذي يجعل الولدان شيبا. فلهول ما يحدث ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾^(١).

ويلاحظ في هذه الآية قوله تعالى «مرضعة»، فقد جاء بهذه اللفظة مقرونة بتاء التأنيث. وفي اللغة لا نحتاج إلى تاء التأنيث إذا كانت هناك قرينة تدل على المعنى، فتحن نطلق على المرأة لفظة «مرضع» بدونها لأن الرجل لا يمكن أن يكون مرضعا. ولذلك إذا جئنا بتاء التأنيث فللدلالة على معنى آخر، إذ في حالة كون الطفل على صدر أمه يلتقم ثديها نأتي بالتاء فنقول «مرضعة».

كل ذلك لتصوير هول ما يحدث، فلو كان الطفل بعيدا عن الأم لأمكن أن تنساه فتتركه، ولكنه إذا كان على صدرها فكيف تنساه؟ لذلك عندما تقوم الساعة ولشدة هولها تلقي الأم طفلها من على صدرها هاربة دون أن تلتفت إليه لأنها ذهلت عنه.

ويروى أنه عندما قرأ رسول الله ﷺ على المهاجرين والأنصار هذه الآيات ضج المجلس بالبكاء وهم يسمعون قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

إلى آخر الآيتين في مطلع سورة الحج.

وكيف لهم لا يكون وهذه الصورة تتوالى عليهم في أكثر من مكان في القرآن الكريم، لا سيما ما جاء منها في سورة الزلزلة حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا

(١) الحج/ ٢.



(٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا
(٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴿٢﴾.

لذلك يجب أن نتعظ أيها الأحبة قبل فوات الأوان، فنلتفت إلى
عمرنا كيف نمضيه وساعاتنا كيف نعيشها قبل أن يداهمنا هادم
الذات فيبعثر أحلامنا وأمانينا. فكل الكائنات إلى الموت والفناء، وهذه
الحياة لن تبقى لأحد ولن تدوم لمخلوق، وبعد الموت سوف نقوم جميعاً
لكي نقف بين يدي رب العالمين لكي يحاسبنا على كل صغيرة وكبيرة.

ونمضي معاً في أجواء الآية: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلَ حَمْلَهَا﴾ ﴿٢﴾.

والحمل هنا بفتح الحاء لا بكسرهما، فالحمل بفتح الحاء ما تحمله
المرأة في بطنها من جنين، أما الحمل بكسر الحاء فأى شيء يحمله
الإنسان. فإذا قامت القيامة تطرح كل حامل الجنين الذي في بطنها
﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾ ﴿٣﴾.

إنهم سكارى، ليس من شرب الخمر، بل أسكرهم الفزع والرعب مما
يحدث لأن ﴿عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

ولنا الآن أن نتصور هول ذلك اليوم الذي يجعل الأم تذهل عن
رضيعها، ويجعل الحامل تطرح ما في بطنها، ويفقد الناس عقولهم

(١) الزلزلة / ١-٨.

(٢) الحج / ٢.

(٣) الحج / ٢.

فكأنهم سكارى وما هم بسكارى. لا شك أن الموقف صعب وشديد، ونحن أضعف بكثير من أن نتحمل صعوبته وشدته. يقول تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (١).

أي يتخاصمون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢).

* دعوة إلى إعادة النظر:

فإذا كان الموقف على هذا النحو من الهول والشدّة، فما أجدرنا أن نعيد النظر في أنفسنا ونراجع حساباتنا قبل أن نقف هذا الموقف الصعب، لا سيما أننا في مدرسة الحسين ومدرسة أهل البيت - سلام الله عليهم أجمعين - . يجب أن نتفاعل مع فكرهم العظيم لكي ننجو من عذاب يوم عظيم. ويجب أن نلتزم بهذا الفكر مستتيرين بهديه لكي نقوي إيماننا ونبتعد عن المحرمات وننهض بالواجبات فضلا عن المستحبات لكي نستحق وعد الله سبحانه بجنة عرضها السموات والأرض أعدت لعباده المتقين السائرين على درب الإيمان والأخلاق والعمل الصالح.

إن قيمة الإنسان المؤمن أيها الأحبة لا تقدر بثمن. لذلك فهو يسقط إذا ابتعد عن الإيمان، وتسقط كرامته، فهو إذا سرق قطعت يده وإذا زنى رجم وإذا قتل يقتل لأنه ينشر الجريمة في المجتمع ويفسد الحرث والنسل. وفي الآخرة عذابه أعظم بعد أن تطرح عليه الأسئلة: أيها

(١) يس/ ٤٩.

(٢) يس/ ٥٠.



الإنسان لماذا ما عرفت نفسك وما عرفت ربك؟ لماذا لم تؤد رسالتك في الحياة؟ لا سيما أن الله سبحانه كرمك.

هل يعقل أيها الأحبة أن ينتهي كل شيء بموتنا؟ هل هذه هي حكمة الباري عز وجل؟ أهكذا تكون نهاية الإنسان إلى التراب فقط بعد أن كانت الأمنيات والأحلام تملأ عقله و صدره؟ يقول الشاعر:

وتموج ديدان الثرى في أكبد كانت تموج بها المنى وتمور

وفي هذا المجال، مجال العبرة والاتعاظ، يروى أن الإمام الهادي - سلام الله عليه - جيء به إلى المتوكل العباس وقد كان يشرب الخمر، فاستشد الإمام شعرا، فأنشده يقول:

باتوا على قُلل الأَجبالِ تحرسهم	عُلبُ الرجالِ فما أغنتهم القُللُ
واستَنزَلُوا بعدَ عزٍّ من معاقلهم	فأودعوا حُفراً يا بُئسَ ما نَزَلُوا
ناداهم صارخٌ من بعدما قُبروا	أين الأسيرةُ والتَّيجانُ والحُللُ
أين الوجوه التي كانت مُنعمَةً	من دونها تُضربُ الأستارُ والكللُ
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم	تلك الوجوه عليها الدودُ يَقتَلُ
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمّروا دوراً لتحصنهم	ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
أضحت مساكنهم قفراً مُعطلةً	وساكنوها على الجداث قد رحلوا

يقال: فبكى المتوكل بكاء كثيرا ثم أمر برفع الشراب وأعاد الإمام الهادي إلى منزله مكرما.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «كما تتامون تموتون وكما تستيقظون تبعثون». وكان يطلب من معاذ بن جبل أن يقرأ القرآن فإذا سمعه يقرأ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (١).

اغرورقت عيناه بالدموع.

* رسول الرحمة:

وكان جبرائيل عليه السلام يهبط على النبي ﷺ فيخبره عن جهنم وطبقاتها، وعندما يصل إلى الطبقة السابعة وهي أشد الطبقات يسأله: لمن هذه يا جبرائيل؟ فينكس جبرائيل رأسه. فيكرر النبي السؤال قائلاً: لعلها للعصاة من أمتي؟ فيقول جبرائيل: بلى يا رسول الله. عند ذلك خرج رسول الله ﷺ حافي القدمين مكشوف الرأس، ومر على بيت فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - فاصطحب معه الزهراء والإمام عليا والحسن والحسين، وذهب بهم إلى البقيع يدعو لأمته حتى يرفع الله عنهم العذاب.

فدعا هو ودعا كل من الإمام علي والزهراء والحسن، وكان كل منهم يرفع عمامته عن رأسه ويدعو، وعندما كشف الحسين عن رأسه ورفع العمامة لكي يدعو الله سبحانه، نادى جبرائيل: يا رسول الله قل للحسين أن يرد العمامة على رأسه فلقد ضجت ملائكة السماء بالبكاء.

(١) النبأ / ١٨.

وإنني لأعجب، إذا كانت ملائكة السماء قد ضجت بالبكاء عندما رفع الحسين عمامته عن رأسه، فكيف كان حال الملائكة عندما رفع رأس الحسين على الرماح في يوم عاشوراء.

هؤلاء هم أهل البيت - سلام الله عليهم - أيها الأحبة يدعون الله أن يرفع العذاب عن أمة محمد، فلماذا لا نسير على دربهم ونستتير بنورهم فنتخذ من سيرتهم حافزا لتغيير سلوكنا بالإبتعاد عن المحرمات والالتزام بما أمرنا رب العباد، لا سيما أنهم قد ضحوا بكل شيء من أجل هذا الدين، وبالتالي من أجلنا نحن عندما رسموا لنا معالم الطريق الذي يأخذ بنا إلى النجاة والخلاص.

* موكب النور يقيد بالحبال:

هؤلاء هم أهل البيت - سلام الله عليهم - .

إنهم نبراس هدى وكتلة نور وهداية. فماذا حل بهم في عاشوراء وماذا فعل بهم الظالمون، وكيف كافأوهم نظير دعائهم في البقيع مع رسول الله لكي يرفع الله العذاب عن أمته؟

لقد قتلوا الحسين ابن بنت رسول الله، ورفعوا رأسه على الرماح وأخذوا نساءه وبناته وفي مقدمتهم الحوراء زينب والإمام زين العابدين أخذوهم سبايا مريطون بالحبال كما يفعل بالأسارى، من عراق إلى الشام وعلى مرأى من الناس جميعا دون أن يراعوا فيهم حرمة رسول الله ﷺ الذي أرسله الله سبحانه رحمة للعالمين والذي كشف عن رأسه في البقيع يدعو الله سبحانه تعالى أن يرفع العذاب عن أمته. وهذه



بعض أمتة تقيد أحفاده وبناته بالحبال دون أي رادع من دين، يقودون الموكب النوراني تحت حر الشمس وبرد الليل جائعين عطاشى، يطوفون بهم من بلد إلى بلد كما يفعل باللصوص المجرمين.

فأي دين هذا الذي يدينون به، وأية قلوب سكنت أحشائهم وأية مكافأة كافأوا بها رسول الرحمة؟

وهو الذي قضى - صلى الله عليه وآله وسلم -، وهو يوصيهم المودة في القربى، فله كيف خانوا الوصية، وكيف غدروا بكل الخسة والفسق ولا فجور. لذلك وقفت سكينة بنت الحسين في مجلس يزيد تسأله: كيف أقف أمامك يا يزيد في هذا المجلس من دون حجاب ومن دون غطاء؟ وقالت له فاطمة الكبرى: ويلك يا يزيد وما ظنك برسول الله لو رآنا على هذه الحالة؟.

أنا لا أدري كيف سيكون موقف هؤلاء الظالمين عندما يقضون بين يدي الله سبحانه وعلى مرأى رسول الله ﷺ. ماذا سيقولون للنبي الأعظم وهم الذين قيدوا عترته بالحديد والحبال وقتلوا شباب أهل البيت وعلى رأسهم أبو عبدالله الحسين وفيهم أبو الفضل العباس قمر بني هاشم، وعلي الأكبر والقاسم وسائر الشهداء الأبرار.

لقد جرتهم الدنيا بزمامها وأعمت بصيرتهم وبصرهم. فلينتظروا نارا وقودها الناس والحجارة أعدت لهم ولأمثالهم من الظلمة على مر التاريخ فبئس القوم وبئس ما فعلوا...

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



من المؤمنين رجال . . .

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (١).

أي أنهم لم يبدلوا عهدهم مع الله تبديلاً كما بدل الكفار، والمنافقون، واحلوا قومهم دار البوار.

إن هؤلاء، وهم الصادقون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لم يبدلوا النعمة كفرًا.. بل ساروا في طريق الحق حاملين مشاعل النور والحرية إلى كل الأجيال في كل زمان ومكان.

وقد نزلت هذه الآية في المدح والثناء على سيد الشهداء -شهداء أحد- الحمزة بن عبد المطلب، وفي الإمام علي -عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام- حيث أبلوا بلاءً حسناً في كل مواقع الجهاد، وخنادق الحق.

* لكي يبقى المجتمع قوياً حراً:

المجتمع الذي ينقطع عن الشهداء فإنما ينقطع عن تاريخه الثوري وعن أصالته - لأن الارتباط بهذا التاريخ وبالشهداء الذين صنعوه بدمائهم الزاكية، هو الذي يجعل الناس أحراراً يرفضون الذل والهوان. ومن هنا كانت فاطمة الزهراء تذهب إلى قبر حمزة بن عبد المطلب وتصنع من تراب القبر حبات لمسبحتها.

(١) الأحزاب/ ٢٣.



* الغذاء الروحي في الدنيا والآخرة:

إن حاجات الإنسان، في الدنيا، ليست هي حاجات مادية فقط، كما أنها ليست مقتصرة، على إشباع الغرائز، وإنما هناك حاجات أخرى لروحه، وعقله، وضميره، ونفسه، تظل تلح عليه، لا تهدأ إلا بذكر الله عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

هذا في الدنيا طبعاً... وإذا كان الأمر كذلك، في الدنيا، فإن الآخرة أكبر درجات، وأعظم تفضيلاً، ومعنى ذلك أن حاجات الإنسان في الجنة، ليست مقصورة على الطعام، والشراب، والفرش المرفوعة، والنمارق المصفوفة فقط.. وإنما لا بد أن يكون هناك، شيء أعظم من هذه الأمور كلها، وهو غذاء الروح، والقلب.

وبمقدار الفرق بين غذاء الدنيا، وغذاء الآخرة، يكون الفرق بين الغذاء الروحي في الدنيا، والغذاء الروحي في الآخرة.. ولذلك يقول القرآن الكريم -بعد أن يعدد ألوان النعيم في الجنة- ورضوان من الله أكبر...

* في مفاهيم العدالة:

كلما ازداد المرء عشقاً للفضائل والمكارم، ازداد رفعةً وعظمة.

إن مفاهيم العدالة والحق، والمساواة، والإيثار، تبدو أحياناً وكأنها شيء واحد ولكنها تختلف اختلافاً كاملاً -فالعدل أن تأخذ الحق وتردّه إلى أهله- والحق أن تعطي كل ذي حق حقه - بينما المساواة أن تساوي نفسك بالآخرين، أن تجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك.. أن تعطي ثوباً من ثوبيك لمن لا ثوب له.. وتعطي داراً إذا كانت لديك داران، لمن لا يملك داراً - في حين أن الإيثار هو أن تعطي طعامك الذي لا تملك غيره إلى جائع فتشبعه وتنام طاوياً.



الدنيا المطلقة

روي: أن عيسى عليه السلام كُوشفت له الدنيا، أي أنه رآها على حقيقتها، فإذا هي، في صورة عجوز هتماء، عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟

قالت: لا أستطيع عدّهم، ولا إحصاءهم.

قال: فكلهم مات عنك، أم كلهم، طلقت؟

قالت: بل كلهم قتلت.

فقال عيسى: بؤساً لأزواجك الباقيين، كيف لا يعتبرون، بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحداً، واحداً، ولا يكونون منك على حذر؟

وتفسير هذا الخبر، أنه مثل يقرب المعنى إلى الأذهان، وإلا فكيف تتزوج الدنيا، وتطلق؟.. إنه لا شك مثلاً، يشبه في مضمونه كلام الإمام علي أمير المؤمنين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- حين خاطب الدنيا بقوله: يا دنيا إليك عني... أبي تعلقت أم إليّ تشوقت؟.. لا حان حينك، قد طلقتك ثلاثاً، لا رجعة لي فيك، فعيشك قصير... وأمرك خطير...

ثم قال: آه.. آه، من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق.

أجل.. إن الملاك في حياتك، هو الإيمان، والعمل الصالح. ومن هذا المنطلق، فكل شيء يصنعه الإنسان، وكل حركة يتحركها، إذا كانت ضمن هذا الإطار، أي ضمن إطار الإيمان، والعمل الصالح، فإنها



ليست من الدنيا في شيء، وإنما هي عمل للآخرة، المقصود منه وجه الله، ورضوانه.

أما إذا خرج العمل، من دائرة الإيمان، وصار في حدود الدنيا، فإنه بداية الانهيار، وعلامة الخسارة الكبرى، التي تخلف حسرة في قلب صاحبها. ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾.

إن الإنسان، عند الموت، يكون منزوع الطاقة والسلاح.. ولا يبقى معه سوى ثلاثة أشياء، إذا كمن معه.

* سلامة القلب - العمل الصالح - الصدقة الجارية:

الشيء الأول.. سلامة القلب، أي أن يكون قلبه صافياً، ليس فيه طمع، ولا حقد، ولا كفر، ولا حسد ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (١)﴾.

وهذه - أعني صفاء القلب - وطهارته، وبراءته - لا تحصل إلا بالكف عن الشهوات... شهوات الدنيا، لأن الأنس بذكر الله، لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه.. وذلك الأنس، لا يأتي إلا من الحب، والحب لا ينشأ، إلا في أرض المعرفة.. والمعرفة، إنما تحصل لكثرة الذكر، والمداومة عليه.

الثاني: العمل الصالح، لأن العمل الصالح، يرفع الإنسان، بمقدار ما يكون مفيداً، ونافعاً، وخالداً في الحياة.

(١) الشعراء / ٨٨-٨٩.



الثالث: الصدقة الجارية... فإذا انعدمت، فالولد الصالح، وإذا انعدم، فالعلم الذي ينتفع الناس به.

على أن هذه الأشياء الثلاثة، إنما تتمثل، في الفكر، والقول، والعمل -ونحن نعرف أن الدين، يصلح هذه الأشياء الثلاثة، بمنهاجه.. فهو يرفع الفساد عن العمل، ويصلح القول، بالأخلاق والتربية.. والفكر، بالعبادة والتزكية، وطلب المزيد من العلم والوعي، والثقافة.

وعندما نقرأ تاريخ الأنبياء، ونستوعب سيرتهم، نجد أنهم عاشوا حياة متواضعة، وذلك حين ساووا، أنفسهم بضعفة الناس، على حد تعبير الإمام علي عليه السلام.

فهذا سليمان بن داود، على رغم امتلاكه لأزمة الأمور، ومقاليد الحياة، وعلى رغم كونه يمسك بنواصي البر، والبحر والجو.. والإنس والجن، والطير... إلا أنه كان يعيش حياة الفقراء، ففي الوقت الذي كان فيه، يطعم الناس، أطايب الطعام، ولذائذ الشراب المباح، كان هو يأكل خبز الشعير، حتى جعل الملك الذي طلبه من الله، بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ (١).

أقول: حتى جعل هذا الملك، طريق معاناة، وامتهان وشدة.. لأن الصبر عن اللذائذ التي تملكها أشد، من الصبر على الشيء اللذيذ الذي لا تملكه.

ولذلك زوى تعالى الدنيا عن نبينا محمد ﷺ فكان يطوي حجر



المجاعة، أياماً، على بطنه من الجوع... وهذا كان إكراماً للنبي، وليس إهانة له... وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذه الحقيقة، حتى يفتح أبصارنا عليها، إذ يقول:

(ولقد كان في رسول الله ما يدل على مساوئ الدنيا، وعيوبها: إذ جاع فيها مع خاصته، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته.. فلينظر ناظر بعقله: أكرم الله محمداً بذلك أم أهانة؟ فإن قال: أهانه، فقد كذب -والله العظيم- بالإفك العظيم، وإن قال: أكرمه، فليعلم أن الله قد أهان غيره، حيث بسط الدنيا له، وزواها عن أقرب الناس..)^(١).

(١) نهج البلاغة ص ٢٢٨ رقم الخطبة ١٦٠.



تأملات من وحي
خطبة الزهراء عليها السلام

خطبة الزهراء

في نساء المهاجرين والأنصار

قال سويد بن غفلة: لما مرضت فاطمة - عليها السلام - المريضة التي توفيت فيها اجتمع إليها نساء المهاجرين والأنصار يُعِدُّنَهَا فقلن لها: كيف أصبحتِ من علتكِ يا ابنة رسول الله ﷺ فحمدت الله، وصلت على أبيها، ثم قالت:

أصبحت - والله - عائفةً لدنياكن^(١).

قاليةً لرجالكن^(٢).

لفظتُهم بعد أن عجمتهم^(٣).

وشننتُهم بعد أن سبَرْتهم^(٤).

فقبحاً لفلول الحد^(٥).

واللعب بعد الجد^(٦).

(١) عائفة : كارهة.

(٢) قالية: مبغضة.

(٣) لفظتُهم: رميت بهم. عجمتهم: مضغتهم.

(٤) شننتُهم: أبغضتهم. سبَرْتهم: عرفت عمقهم، أي تأملتُهم.

(٥) فلول الحد: ثلثة حدّ السيف.

(٦) الجد - بكسر الجيم - : ضد الهزل واللعب.



وقرع الصفاة، وصدع القناة.^(١)
وخطل الآراء، وزلل الأهواء.^(٢)
وبئس ما قدّمت لهم أنفسهم.
﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.^(٣)
لا جرم لقد قلّدتهم ربقتها.^(٤)
وحملتهم أوقتها.^(٥)
وشننت عليهم عارها.^(٦)
فجدعاً وعقرأً وسُحقاً للقوم الظالمين.^(٧)
ويحهم! أني زحزحوها عن رواسي الرسالة.^(٨)
وقواعد النبوة والدلالة.^(٩)

-
- (١) قرع الصفاة: ضربت الصخرة الملساء، وصدع القناة: استرخاء الرمح. وقيل: الصدع: الشق.
- (٢) خطل الآراء فسادها. وزلل الأهواء: انحراف الميول والرغبات.
- (٣) المائدة/ ٨٠.
- (٤) قلّدتهم: جعلت في أعناقهم، ربقتها: حبّلها.
- (٥) حملتهم أوقتها: حملتهم الثقل والمسؤولية.
- (٦) شننت: أرسلت. والعار: السبة والعيب.
- (٧) الجدع - بفتح الجيم - : قطع الأنف. والعقر - بفتح العين - : الجرح. والسحق: البعد، وكلها في مقام الدعاء عليهم.
- (٨) زحزحوها: نحّوها. والرواسي: الثوابت.
- (٩) قواعد البيت: أسسه.



- ومَهبطِ الروح الأمين. (١)
- والطَّبين بأُمور الدنيا والدين. (٢)
- ألا: ذلك هو الخسران المبين، وما الذي نَقَمُوا من أبي الحسن؟ (٣)
- نَقَمُوا منه - والله - نكير سيفه. (٤)
- وقلَّة مبالاته بحتفه. (٥)
- وشدَّة وطأته ونكال وقعته. (٦)
- وتتمَّره في ذات الله عزَّوجل. (٧)
- والله لو تكافَّوا عن زمام نَبَذَه رسول الله إليه لاعتلقه. (٨)
- ولسارٌ بهم سيراً سَجُجاً. (٩)
- لا يكلم خشاشه. (١٠)

-
- (١) مهبط الروح الأمين: محل نزول جبرئيل.
- (٢) الطَّبين: الحاذق الفطن العارف.
- (٣) نَقَمُوا منه : عابوا وكرهوا.
- (٤) نكير سيفه: لا يعرف سيف أحداً ولا يفرِّق بين الشجاع وغيره.
- (٥) الحتف: الهلاك.
- (٦) وطأته: أخذته. ونكال وقعته: إصابة صدمته.
- (٧) التتمَّره: الغضب، والمقصود من ذات الله أي لوجه الله.
- (٨) تكافَّوا: صرف بعضهم بعضاً. والزمَام: مقود البعير. أو الخيط الذي يُشدُّ في ثقب أنف البعير.
- (٩) السير السجج: السهل اللين.
- (١٠) لا يكلم: لا يجرح. والخشاش - بكسر الخاء - الخيط الذي يدخل في عظم أنف البعير.



ولا يتتبع راكمه. (١)

ولأوردتهم منهلاً نميراً، صافياً رويّاً، فضفاضاً تطفح ضفتاه، ولا يترنق جانباه. (٢)

ولأصدرهم بطاناً. (٣)

ونصح لهم سرّاً وإعلانياً ولم يكن يحلى من الغني بطائل. (٤)

ولا يحظى من الدنيا بنائل. (٥)

غير ريّ الناهل. (٦)

وشبعة الكافل. (٧)

ولبان لهم الزاهد من الراغب.

والصادق من الكاذب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨).

(١) يتتبع راكمه: يقلق ويتحرك حركة عنيفة.

(٢) المنهل: محل ورود الماء. والنمير: الماء العذب السائغ النامي للجسد، والروي: الكثير. والفضفاض: الواسع: تطفح: تمتلئ حتى تفيض. ضفتاه: جانباه. يترنق: يتكدر.

(٣) بطاناً: عظام البطون من كثرة الشرب.

(٤) يحلى: يصيب ويستفيد. والطائل: كثير الفائدة.

(٥) يحظى: يظفر. والنائل: العطاء.

(٦) الناهل: العطشان.

(٧) الكافل - هنا - : المحتاج إلى الطعام.

(٨) الأعراف/ ٩٦.

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(١).

ألا: هلم واستمع

وما عشت أراك الدهر عجباً!

وإن تعجب فجبٌ قولهم!!

ليت شعري إلى أيِّ سِنَادٍ استتدوا؟^(٢)

وعلى أيِّ عماد اعتمدوا؟

وبأيّة عروة تمسكوا؟

وعلى أية ذريّة أقدموا واحتكوا؟^(٣)

لبئس الولي ولبئس العشير.

وبئس للظالمين بدلاً.

استبدلوا - والله - الذُّنَابَا بالقوادِمِ.^(٤)

والعَجْزُ بالكاهل.^(٥)

فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنْعاً.^(٦)

(١) الزمر/ ٥١.

(٢) ليت شعري: ليتني علمت. والسناد - بكسر السين-: ما استتدت إليه من حائط أو غيره.

(٣) احتكوا: استولوا.

(٤) الذناب: ذنب الطائر. القوادِم: ريشات في مقدم الجناح.

(٥) العجز - بفتح العين وضم الجيم- : المؤخر من كل شيء. والكاهل: ما بين الكتفين.

(٦) رغماً: كناية عن الذل. والمعاطس: جمع معطس (مكان العطسة) وهو الأنف.

ألا : إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ويحهم!!
﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. (١)

أما : لعمرى! لقد لقحت. (٢)
فَنَظْرَةَ رِيثَمَا تُنْتَج. (٣)
ثم اجتلبوا ملاً القعب دماً عبيطاً. (٤)
وذعافاً مبيداً. (٥)
هنالك يخسر المبطلون.
ويعرف التالون غباً ما أسسه الأولون. (٦)
ثم طيبوا عن دنياكم أنفسا. (٧)
واطمانوا للفتنة جاشا. (٨)
وأبشروا بسيف صارم.
وسطوة معتد غاشم. (٩)

(١) يونس / ٣٥.

(٢) لقحت: حملت.

(٣) فنظرة: فمهلة. ريثما: مقدار ما. وتنتج: تلد.

(٤) القعب: إناء ضخم. والدم العبيط: الطري.

(٥) الذعاف: السم السريع الفناء. والمبيد: المهلك.

(٦) التالون: التابعون. والغب: العاقبة.

(٧) طابت نفسه عن كذا: رضيت به من غير كراهة.

(٨) الجاش: القلب.

(٩) المعتدي: الجائر. والغاشم: الظالم.



وهرج شامل. (١)

واستبداد من الظالمين. (٢)

يَدْعُ فيئكم زهيداً. (٣)

وجمعكم حصيداً. (٤)

فيا حسرةً لكم. (٥)

وأنى بكم؟. (٦)

وقد عميت عليكم. (٧)

أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟؟

قال سويد بن غفلة: فأعادت النساء قولها على رجالهن فجاء إليها قوم من وجوه المهاجرين والأنصار معتذرين، وقالوا: يا سيدة النساء لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن نبرم العهد. (٨)

ونُحْكِمَ العقد لما عدلنا إلى غيره!!

فقالت: إليكم عني! فلا عذر تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم. (٩)

(١) الهرج: الفوضى، والقتل، واختلاط الأمور.

(٢) الاستبداد: التفرد بالشيء من غير منازع.

(٣) الفيء: الخراج والغنيمة. وزهيداً: قليلاً.

(٤) جمعكم: زرعكم.

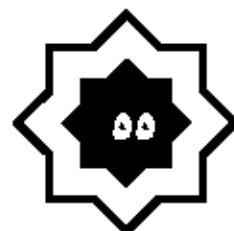
(٥) الحسرة: التلهف على الشيء الفاتت.

(٦) كيف يصنع بكم.

(٧) عميت: التبست.

(٨) نبرم العهد: نبايع لأبي بكر.

(٩) التعذير: هو التقصير ثم الاعتذار. والتقصير: التواني عن الشيء.



الزهراء تمثل أشواق السماء

عندما يؤكد النبي ﷺ على أن غضب فاطمة إنما هو انعكاس لغضب الله، فإن معنى ذلك أن سيرة فاطمة، تمثل أشواق السماء، وتجسد كل مناهج الحق، والعدالة، والحرية، لأن الحبيب المصطفى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (١).

وهنا يكمن السر العظيم في حياة الزهراء، وهو أن فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - إنما هي مرآة الحق التي نرى فيها أنفسنا على حقيقتها، فيعرف الواحد منا، هل هو مؤمن أم هو كافر.. فإذا رضيت فاطمة عنك فإن الله راض عنك.. أما إذا غضبت فاطمة، فإن غضبها يثير غضب الله على الذين ظلموها. ولذلك، تحدثنا الأخبار، أن فاطمة تجيء في ساحة المحشر، لتلتقط شيعتها، كما يلتقط الطير، الحب الجيد، من الحب الرديء. واقرأوا هذا الحديث معي إذا شئتم:

* ويل لمن ظلم فاطمة:

عن ابن عباس أن النبي قال خلق الله الناس من أشجار شتى و خلقت أنا وعلي بن أبي طالب من شجرة واحدة فما قولكم في شجرة أنا أصلها وفاطمة فرعها وعلي لقاحها والحسن والحسين ثمارها،

(١) النجم / ٣-٤ .



وشيعتنا أوراقها فمن تعلق بغصن من أغصانها ساقه الى الجنة ومن ترك هوى في النار وفي هذا يقول أبو يعقوب البصري:

يا حبذا دوحة في الخلد نابتة ما مثلها أبداً في الخلد من شجر
المصطفى أصلها والفرع فاطمة ثم اللقاح على سيد البشر
والهاشميان سبطاه لها ثمر والشيعه الورق الملتف بالثمر
هذا مقال رسول الله جاء به أهل الرواية في العالي من الخبر
إني بحبهم أرجو النجاة غداً والفوز في زمرة من أفضل الزمر
وعن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ قال: من أحب ابنتي فاطمة
فهو معي في الجنة ومن أبغضها فهو في النار.

حب فاطمة ينفع في مائة موطن أيسر تلك المواطن الموت والقبر
والميزان والمحشر والمحاسبة فمن رضيته عنه رضيته عنه ومن غضبت
عليه غضب الله عليه؛ ويل لمن ظلمها وذريتها. إن الله خلق نور فاطمة
قبل خلق السموات والأرضين فقليل له أليس هي إنسية؟ قال: إنها
حوراء إنسية أودعها الله في صلب آدم وأخرجها من صليبي فإذا
اشتقت الى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتي فاطمة^(١).

(١) وفاة الزهراء للمقرم.

(٤٦) سورة الانشقاق: الآية ٦.



حقوق الإنسان والعدل الاجتماعي في ظل حكومة

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

أمير المؤمنين عليه السلام هو أعظم شخصية في تاريخ الإسلام من الأولين والآخرين بعد رسول الله ﷺ وفي ذكرى وفاة أمير المؤمنين، في الحادي والعشرين من شهر رمضان، وقف الإمام الحسن الزكي عليه السلام وقال: «أيها الناس، في هذه الليلة نزل القرآن، وفي هذه الليلة رفع عيسى بن مريم إلى السماء، وفي هذه الليلة قتل يوشع، وفي هذه الليلة قتل أبي علي أمير المؤمنين، الذي لم يسبقه الأولون ولم يدركه الآخرون».

وقبل الدخول في محراب أمير المؤمنين عليه السلام وبحث جانب من جوانب عظمته يتعلق بالعدل الاجتماعي وحقوق الإنسان في ظل دولته وحكمه، نقدّم للبحث بمقدمة قصيرة تتعلق بالأبعاد الأساسية لوجود الإنسان في هذا الكون.

* الأبعاد الخمسة في وجود الإنسان:

الإنسان مخلوق مميّز على سائر مخلوقات الله. ووجوده وكيانه وشخصيته مركبة وتحمل أبعاداً وخصائص مختلفة بفضلها كان الإنسان أشرف المخلوقات، وبفضلها أيضاً حمل المسؤولية والأمانة في هذه الحياة.



١ - البعد الأول: الوجود:

والمراد بذلك وجوده في هذه الحياة وخصائص هذا الوجود.

وأول شيء يذكرنا به القرآن الكريم هو أن الله سبحانه هو الذي خلقنا وأوجدنا. وهذه نعمة عظيمة علينا أن نقابلها بالشكر والامتنان. وهذا الشكر يكون بالتوجه الى الخالق والسعي للقاء وجهه الكريم والاهتداء بنوره العميم. وهذا الشكر هو مسيرة حياة كاملة كادحة باتجاه الله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (١).

والقرآن الكريم يدعو الإنسان دائماً الى التأمل في وجوده: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٢).

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (٣).

وهذا الوجود جعله الله مميزاً ومفضلاً حتى على وجود الملائكة. كما أنه سبحانه وتعالى سخر للإنسان كل ما في الكون وجعله سلطاناً على جميع مخلوقاته.

٢ - البعد الثاني: العقل:

وقيمة الإنسان هذه وشرف وجوده يعودان الى وجود العقل فيه. هذه الهبة الإلهية التي بفضلها امتاز الإنسان على سائر الخلق، وبفضلها يستطيع أن يسخر ما في الكون لخدمته والانتفاع به. وهذا العقل أيضاً

(١) الانشقاق / ٦.

(٢) الطارق / ٥.

(٣) الزمر / ٦.



هو السبب في التكليف وعلى وجوده أيضاً تتوقف المسؤولية ومسألة الثواب والعقاب.

٣ - البعد الثالث: العلم:

وقد جهز الله الإنسان بوسائل وأدوات لتحصيل العلم والمعرفة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

والله سبحانه عندما زودنا بهذه الوسائل والأدوات جعل حقوقاً علينا. فحقها أن نستخدمها في الطريق الصحيح. فالسمع جعله لتستمع الى كل ما فيه ذكر الله وليس للاستماع الى ما يصرف العقل والقلب عن ذكره. والعين لم توجد لتنظر الى المحارم وإنما لتكون منفذاً يدخل النور الى عقلك وقلبك. وإذا أخل الإنسان بوظيفة من هذه الوظائف كان العقاب بانتظاره.

٤ - البعد الرابع: التقوى والإيمان:

والعقل والعلم لا يكفيان. ولو كان العلم وحده يكفي لكان إبليس أرشف خلق الله، ولكان شبت بن ربي وبلعم بعورا في مقام عظيم عند الله. ولكن أمثال هؤلاء الذين انحرفوا عن الإيمان لم ينفعهم علمهم شيئاً فكانوا كمثّل الحمار يحمل أسفاراً.

والإيمان هو الذي يجعل العلم نافعاً ويجعل العالم في مقام رفيع، لأنه هو الذي يدفعه الى تسخير علمه في سبيل الخير ومرضاة الله. وإلا فما نفع العالم الذي يسخر علمه وعقله لتدمير البشرية وخراب العالم؟! وما نفع العلم الذي لا يحمي حقاً أو يدفع باطلاً. ومن هنا

(١) النحل / ٧٨.



نفهم كلمة أمير المؤمنين حين يقول «وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم وسغب محروم».

فالعلم لدى العالم هو مسؤولية وأمانة: فإن لم يتحمل العالم مسؤولياته ولم يؤدّ الأمانة تساوى بالجاهل.

٥ - البعد الخامس: العمل الصالح:

والعقل والعلم والإيمان لا يكتمل شرفهم ودورهم إلا بالعمل. فمن لا يعمل بعلمه وإيمانه وعقله يكن مثل ذلك الذي يمتلك ثروة من الذهب والفضة ويكنزها، فلا هو ينتفع بها ولا ينفع الآخرين. كذلك فإن العمل هو المحك الذي يكون فيه مصداق العلم والإيمان.

إذن بهذه الأبعاد الخمسة: الوجود، والعقل، والعلم، والإيمان والعمل تكتمل أبعاد الإنسان ويكتمل المعنى لوجوده ودوره ومسؤوليته في هذه الحياة.

* الحق والواجبات:

وعلى الأبعاد الخمسة للإنسان يترتب أمران: الحقوق والواجبات. فعليه واجبات لأنه يلتفت الى وجوده ويعرف فضل الله عليه. والواجبات كثيرة ومعروفة مثل الصلاة والصيام والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها. وهي أمور لا يمكن للإنسان العاقل المكلف أن يتصلّ منها.

ولكن مقابل هذه الواجبات فإن للإنسان حقوقاً، وهذا هو الأساس في بحثنا.



* الإمام عليّ وحقوق الإنسان:

لقد وضع العالم المتمدّن الحديث شرعة لحقوق الإنسان، وهي صادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة. وفي هذه الوثيقة نقرأ مثلاً أن الناس سواسية أمام القانون والقضاء، وليس لأحد أن يعتسف على أحد أو يعذّبه أو يسطوا عليه. ولكل إنسان الحق في العلم والتنقل والسكن وإبداء الرأي والتفكير والعقيدة.. الخ.

وفي مقابل هذه الوثيقة نجد وثيقة أخرى أعظم وأعمق تتعلق بحقوق الإنسان هي الوثيقة التي وضعها وطبقها أمير المؤمنين عليه السلام.

وين الوثيقتين فروقات كبيرة أهمها أربعة: الأول أن الوثيقة التي وضعها المجتمع الدولي عكف عليها آلاف المفكرين ولعشرات السنين حتى وصلوا إليها. في حين أن وثيقة أمير المؤمنين هي من عمل رجل واحد عبقرى. والفرق الثاني أن أمير المؤمنين قد سبق وثيقة الأمم المتحدة ببضعة عشر قرناً. والثالث أن الذين وصفوا وثيقة الأمم المتحدة ملأوا الدنيا عجيجاً وصياحاً فارغاً ومننوا الناس، بينما أمير المؤمنين وضع وثيقة حقوق الإنسان في تواضع للناس وتواضع لله ربّ العالمين. أما الفرق الرابع وهو الأهم أن القوى نفسها التي وضعت شرعة حقوق الإنسان وأقرّتها هذه القوى هي التي تخرقها ويدوس جنودها كرامات وحقوق الإنسان في كل أنحاء الأرض، حتى غدت حقوق الإنسان حبراً على ورق؛ أما السائد في هذا العالم فهو شريعة الغاب حيث يسطو القوي على الضعيف، والشمال على الجنوب، وأسلحة الدمار الأميركية على الشعوب المستضعفة.



أما أمير المؤمنين فقد طبق شرعة حقوق الإنسان انطلاقاً من مخافة الله والشرعية الإلهية. هو يكتب إلى مالك الأشر يقول له: «واعلم يا مالك أنني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون إليك في مثل ما كنت تنظر في أمور الولاية من قبلك، أشعر قلبك الرحمة للرعية واللطف بهم والمحبة لهم والحنان عليهم، ولا تكن سبعا ضارياً فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق».

ويكتب إلى عامله عثمان بن حنيف يقول: «أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة قد دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتثقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفوً وغنيهم مسلوً. أما لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا الخز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل في الحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع.

وإذا نظرنا إلى شرعة حقوق الإنسان العالمية نجد أنها تحرّم التعذيب للأسرى وتمنع التصرفات الانتقامية. أما في الواقع فإن سجون جميع الدول الموقعة على هذه الشرعية تغصّ بالسجناء الذين يتعرضون لتعذيب وحشي تقشعر منه الأبدان. وأين كل هذا من موقف أمير المؤمنين من ابن ملجم؟! جاء الناس بابن ملجم إلى المحراب وأمير المؤمنين ينزف ويسيل الدم من رأسه. وكانوا يريدون أن يقطّعوه إرباً، فتحامل أمير المؤمنين على جراحه وقال لهم: ويلكم، من سمح لكم بأن تضربوه؟! ثم طلب من ولده الحسن أن يحلّ قيده ويضعه في

السجن، على أن يطعمه ويسقيه مما يأكلون ويشربون، ثم قال له: إذا متّ، فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثّل بالرجل. أما إذا عشت فإنني أرى رأيي فيه. بهذا الموقف العظيم واجه أمير المؤمنين قاتله، ومنع جماعته من التنكيل به، ولم يقبل أن يجري عليه إلا الحدّ الذي فرضه الله سبحانه.

ونسلم في شرعة حقوق الإنسان أن الناس سواسية أمام القانون والقضاء. ولكن هل تعتقدون أن المحاكم في عالمنا هذا وفي دولنا القائمة تعامل الأمير وصاحب السلطة والنفوذ بمثل ما تعامل المواطن العادي البسيط؟! إن روائح الظلم التي تزكم الأنوف تقطع وتجزم بأن الحق لا يعمل به في هذا المجال وأن الباطل لا يتتاهي عنه، وأن الناس أمام قضاء ومحاكم هذه الدول ينقسمون إلى أبناء ستّ وأبناء جارية.

وأين هذا من سلوك وموقف أمير المؤمنين حين تنازع مع ذاك اليهودي أمام القاضي شريح في مسألة درع أمير المؤمنين؟ لقد رضي الإمام أن يمثّل أمام القاضي ليدافع عن حقه في ملكية درعه. ورفض أن يعامله القاضي باحترام أكثر مما يعامل اليهودي المفتري، وقال للقاضي: ما أنصفت بيننا حين كنيّتني وناديتني بأبي الحسن وناديت الرجل باسمه.

ولما لم يستطع أمير المؤمنين أن يقدّم البيّنة على أن الدرع له، خرج من المجلس ولم يغتصب حقه اغتصاباً، عندها وقف اليهودي وصاح: الله أكبر، هذا أمير المؤمنين يقاضيني أمام القاضي ولا يقبل أن يتقدّم عليّ! أشهد أن هذا الدرع له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.



هذه هي حقوق الإنسان في شرعة أمير المؤمنين. في حين نجد حاكماً آخر مثل عبد الملك بن مروان يصعد المنبر ويقول: أيها الناس، لا يقول لي أحدٌ منكم: إتَّقِ الله إلا ضربت عنقه بسيفي هذا.

وأمير المؤمنين الحاكم العادل يعزل أبا الأسود الدؤلي عن اليمن لأنه بلغه أن واليه يعلو صوته على صوت خصمه.

إن الإسلام يحرص على كرامة الإنسان ويرفض له الذل والهوان ويحفظ له حقوقه، وهذا ما نجده بأكمل صورة في سيرة أمير المؤمنين قولاً وعملاً.. ولذلك نرى الإمام الحسين يوم عاشوراء يقف ويقول: ألا وإن الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين: بين السلّة وبين الذلّة، وهيهات منا الذلّة. يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون.

* وضع الأسرة في ظل عدل أمير المؤمنين:

والأسرة التي هي مصنع الإنسان الصالح في المجتمع، هذه الأسرة لها وضع خاص ومميّز في اهتمام أمير المؤمنين، سواء في نظرته إلى تماسكها وعلاقات أفرادها فيما بينهم، أما في النظرة إلى الأم أو الطفل.

فالأم الطيّبة الحنون العاقلة هي التي ترضع أطفالها لبن المحبة والحرية والكرامة. ولذلك يقول أمير المؤمنين: «لا تسترضعوا الحمقاء، فإن اللبن يعدي». ويقول الإمام الحسين: «حجور طابت وطهرت» لأن حجر الأم إذا كان طيباً طاهراً فإنه يخرج أبناء أحراراً أعزّة على مثال الحسين، وهم الأبناء الذين يساهمون في البناء الحضاري للمجتمع.



والأسرة في ظل حكم أمير المؤمنين هي أسرة متماسكة، ويقول أحد المؤرخين أن ظاهرة الطلاق قد اختفت في عهد أمير المؤمنين. ولماذا الطلاق وتفسخ الأسرة إذا كان المجتمع ينعم بالحرية والعدالة. كل شيء من حقوق الإنسان محفوظ ومحترم: العمل، الوضع الاقتصادي، الوضع السياسي، الأخلاق، التربية والتعليم.. فالحقوق والواجبات تحتاج الى حرية، والحرية لا تجد معناها الحقيقي إلا في ظل العدالة الاجتماعية. أما الحرية في ظل غياب العدل الاجتماعي فهي حرية السرقة والفجور والجريمة والانحراف والمخدرات والجنس. هذه هي الحرية المطبقة في عدالة المجتمعات الغربية الفاسدة.

موجة الطلاق السائدة اليوم هي ظاهرة مخيفة تدل على تفسخ الأسرة وانهارها. ويكفي أن نطلع على الأرقام في المحاكم الشرعية لنذكر اتساع موجة الطلاق ونذكر الهاوية التي تسير باتجاهها الأسرة.

إن الحاكم العادل الذي يصون حقوق الإنسان انطلاقاً من إيمانه وتقواه هو الحاكم الذي يراعي حرية الإنسان في أصعب الظروف. فإذا نحن نظرنا الى حكومات اليوم نجدها عند أقل حركة اعتراضية تعلن حالة الطوارئ في البلاد وتعلق القوانين، أي تجمّد حقوق الإنسان وتعطلها، وتملأ السجون بالأبرياء، بحجة أن الغاية تبرر الوسيلة. أمير المؤمنين لا يعترف بهذا القانون الجائر. فحقوق الانسان محفوظة ومصانة في جميع الظروف. لقد واجه أمير المؤمنين ثلاثة حروب شنت عليه دفعة واحدة: حرب الجمل بقيادة عائشة وطلحة والزبير، وحرب صفين بقيادة معاوية وعمرو بن العاص، وحرب الخوارج. وفي هذا

الوقت الذي كان فيه الدولة تتعرض لثلاثة حروب لم يعلن أمير المؤمنين حالة الطوارئ ولم يعلّق أحكام الشريعة ولم يصادر حرّيات الناس. فلم يكن له إلا سجن بسيط من القصب في الكوفة. في عهد أمير المؤمنين لم يكن هناك سجناء معتقلون سياسيون.

ويأتي أعداء أمير المؤمنين وبعض الكتاب السفهاء ليقولوا: ما كان عليّ يحسن السياسة! فيجيبهم أمير المؤمنين قائلاً: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر. ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس».

إن الحاكم الذي يرضى بيت من جريد النخل ولا يبحث عن طيب المأكّل والملبس، ولا يرضى بالشعب إذا كان هناك رجلٌ واحد جائع من المسلمين، ويقول للصفراء والبيضاء من الذهب والفضة: «غريّ غيري» ويقول لابن عباس: «إن خلافتكم هذه هي أقل من شسع نعلي إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً» مثل هذا الحاكم هو الموتى القوي على حقوق الإنسان، هو القائم بالأمانة التي عرضها الله على الجبال والملائكة فأشفقن منها، وقبلها الإنسان.

والذين يسعون وراء زخرف الحياة هؤلاء يدوسون على حقوق الإنسان ويكون الحكم عندهم غاية بحد ذاته. وزعيم هؤلاء هو معاوية ابن أبي سفيان الذي قال: ما حاربتم لتصوموا أو تصلّوا، وإنما حاربتم لتأمر عليكم.

أما الإنسان الذي طلق زخرف الحياة وتعلّق بأذيال الحق فإن الحسين عليه السلام يعبر عنه بقوله: «إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا شقاء وبرماً».



* البقاء والحياة للعدل وأئمة:

إن الكوخ البسيط الذي كان يعيش فيه أمير المؤمنين تحول مزاراً تهوي إليه الأفتدة عبر الأجيال. أما قصور معاوية وقبره فقد تحولت الى ملعب للذباب تنفر منها الناس. وها هو الشاعر يقف على قبر معاوية ويخاطبه قائلاً:

أين القصور أبا يزيد ولهوها	والصافنات وزهوها والسودد
أين الدهاء نحرت عزته على	أعتاب دنيا سحرها لا ينفذ
هذا ضريحك لو بصرت ببؤسه	لأسال مدمعك المصير الأسود
كتل من التراب المهين بخربة	سكر الذباب بها فراح يعرید
خفيت معالمها على سكانها	فكانها في مجهل لا يقصد
أبا يزيد وتلك حكمة خالق	ماذا أقول وباب سمعكم موصد
قم وارمق النجف الأغرب بنظرة	يرتد طرفك وهو باك أرمـد
تلك العظام أعز ربك شأنها	فتكاد لولا خوف ربك تعبد ^(١)

أمير المؤمنين كان يجول في السوق ويقول: «من يشتري سيفي هذا» ولو كان يملك ثمن طعامه ما كان يبيع سيفه. هذا في وقت كانت بين يديه جميع أموال بيت مال المسلمين ويجبى إليه الخراج من كل أنحاء الدولة الإسلامية. ومع ذلك كان يرفض أن تستعير إحدى بناته عقداً من بيت مال المسلمين لتضعه حول عنقها يوم العيد.

(١) تلك العظام (أي عظام أمير المؤمنين).



وأمر المؤمنين رفض أن يأخذ ابنه محمد بن الحنفية رطلاً من العسل من بيت مال المسلمين ليطعم ضيوفه، حتى ولو كان ذلك على سبيل الاستعارة. ويقول له: «هذا يا بني للمسلمين، وأنت تأخذ حقك مثل سائر المسلمين».

ويخرج الإمام مع خادمه قنبر إلى السوق ليشتري ثوبين. فإذا به يعدل عن الشراء من أحد التجار لأن هذا التاجر عرفه، فرفض أمير المؤمنين أن يشتري منه مخافة أن يبيعه بثمن بخس. ثم يشتري من تاجر يجهله ثوبين، ثوباً جديداً وآخر قديماً، فيحتفظ بالثوب القديم ويقدم الجديد لقنبر قائلاً له: أنت بحاجة إلى هذا الثوب الجديد أكثر مني، لأنك مازلت شاباً نفسك متطلبة.

* وصية أمير المؤمنين عليه السلام:

وقبل أن يجود أمير المؤمنين - عليه السلام - بروحه الشريفة جمع أولاده حوله وأوصاهم. وقال للحسن والحسين: «أوصيكما وجميع ولدي بتقوى الله، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. وقولا بالحق واعملا للأخرة، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.. أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه قلبي هذا بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدك رسول الله ﷺ يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام (يعني النوافل). ثم قال: الله الله في الأيتام، فلا تغبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم. وإياكم ودمعة اليتيم فإنها تسري في الليل والناس نيام. الله الله في القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم.



الله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم. الله الله في حج البيت فلا تخلوه. الله الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم. ثم التفت إلى أهله وعشيرته وقال: لا ألفيتكم يا آل عبدالمطلب تخوضون دماء المسلمين خوضاً، وتقولون: قتل أمير المؤمنين ! ألا لا يقتلنَّ بي إلا قاتلي. فإذا قضيت فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثّل بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور.

هذه كانت وصية أمير المؤمنين وهي وثيقة تاريخية هامة ونصّ تربوي يصنع إنساناً مؤمناً صالحاً وأسرة متماسكة. وهي تعبّر عن موقف رجل كان في سيرته وحياته إماماً للمتقين ونموذجاً أسمى للعدل والحرية.



في الخطبة

وهي الخطبة الغراء التي ستظل محل إعجاب أحلام الفصحاء والبلغاء وذوي الأقلام السيالة والأفكار النيرة، والتي قالتها فاطمة الزهراء عليها السلام عندما عزم أبو بكر على منعها فذك، فدخلت عليه وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فافتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله.

حين بدأت خطبتها، بدأتها بالدموع وتحريك المشاعر والعواطف، لأن العاطفة المشتعلة هي شرط أساسي في صحة العقل وسلامته.. ولولا المشاعر الجياشة، والعواطف الساخنة، لتحول العقل إلى صخرة صماء لا تعي ولا تفقه شيئاً..

فقد أدركت الصديقة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - هذه الحقيقة فركزت عليها تركيزاً بالغاً في خطبتها هذه.

إن الإسلام هو دين الحب والعاطفة، إلى جانب العقل والوعي والرشد.. والفتنة.. على أن هذه كلها ما هي إلا ثمرة من ثمرات العاطفة.. والذي جعل العاطفة مشتعلة، هي الزهراء وأولادها.. ولولاها لما بقي لهذا الدين من أثر.. لأن الإسلام الذي طبقه بنو أمية، وبنو العباس، إسلام جاف وغليظ وقاس، ليس فيه نفحة من الحب، ولا ذرة من العاطفة.. ولذلك نجد أهمية أبناء فاطمة في هذا المجال بالذات، حتى أنك تسمع حديث الرسول ﷺ يقول في حق الحسين عليه السلام: «إن للحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تنطفئ إلى يوم القيامة».



«وإن للحسين محبة مكنونة في قلوب المؤمنين».

إن الله سبحانه قد أنزل القرآن في ليلة القدر وهي ليلة كلها أمن وطمأنينة وخير وسلام.. ثم اختار مكاناً للقرآن هو قلب النبي ﷺ فأنزله على قلبه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ﴾ (١).

وإذا عرفنا أن قلب النبي أرق من هجرات النسيم، أدركنا كم هو قلب النبي عظيم، فالقرآن الذي يملك قوة ذاتية لو وجهت الى الجبال لصدعتها.. ولكنه في الوقت ذاته ينزل على قلب المصطفى فيلتحم معه التحام النور بالنور، أقول: فالقرآن الذي يملك هذه القوة الحضارية لقادر على أن يحرك القلوب والعقول في آن واحد بشرط أن يكون الإخراج من سيرة النبي وأهل بيته وليس من غيرهم.. وهذا هو ما ركزت عليه الزهراء في حديثها وخطبتها هذه.

ولكي تأتي خطبة الزهراء عليها السلام واضحة في أذهاننا، متألفة جياشة في قلوبنا، فإني أحببت أن أسكب هذه التأملات التي ثارت في خاطري وأنا أقرأ شيئاً من خطبتها على مجموعة من طلاب الجامعة في لبنان.. أقول: أحببت أن أسكبها على صفحات هذا الكتاب في محاولة جادة لتغيير مسار حياتنا.. وأوضاعنا.. إلى غد مشرق ومستقبل حر كريم. قالت فاطمة في مستهل خطابها: «الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم».

الحمد لله.. أرق كلمة وأثرى عبارة يمكن أن يستقبلها السمع والفؤاد.

(١) الشعراء/ ١٩٣ - ١٩٤.



إنها كملة تكشف عن طيب قائلها ورقته وصفائه وعذوبته.. لأن النفس المليئة برقة القلب، وصفاء الأخلاق.. وعذوبة المنطق، لهي نفس كبيرة وعظيمة تقابل الإحسان بالشكر والنعمة بالحمد.. بخلاف النفس الصغيرة المشحونة بالذنوب.. المليئة بفحیح الشياطين.. التي لا تقابل النعمة إلا بالنكران، ولا ترد الحسنة إلا بالسيئة.. لأنها نفس كافرة.. بينما الأولى نفس مؤمنة عادتھا الحمد والثناء والشكر والصفاء في مقابل كل نعمة صغيرة كانت أم كبيرة، ظاهرة أم باطنة..

على أن نعم الله من الكثرة والعظمة بحيث ليس في الإمكان حصرها ولا عدها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(١).

غير أننا نستطيع أن نجعلها في أربع نعم كبرى، لا يمكن لأي واحد منا أن يتجاهلها أو يغمض عينيه عنها.. وهي النعم التالية:

الأولى: نعمة الوجود.

الثانية: نعمة العقل.

الثالثة: نعمة العلم.

الرابعة: نعمة الإيمان والدين.

ونحن عندما نلقي نظرة واعية على هذه النعم، نجد أنها مترابطة بعضها مع بعض لا يمكن فصلها، أو تفكيكها.. لأنه إذا وجدت الأولى فلا بد من الثانية ومن دون النعمة الثانية، تنطفئ النعمة الأولى، وهكذا بالنسبة للثالثة والرابعة إذ إنها تعد سبيكة واحدة لا تتجزأ.. وبالتالي

(١) إبراهيم/ ٣٤.

فالنعم الأربع هذه ملتزمة التحام الضوء من الضوء، أو الذراع من العضد.. على أن هذه الحقيقة، ستكشف أمامنا بعد لحظات من متابعة الموضوع.

وحتى تجيء الصورة أكثر وضوحاً أرسم لكم اللوحة التالية التي تبين الارتباط الوثيق الذي يشد هذه النعم بعضها ببعض..

افتتحت فاطمة الزهراء كلامها بحمد الله والثناء عليه والصلاة على أبيها رسول الله محمد ﷺ وابتدأت باستعراض سريع لعموم نعم الله عز وجل واتساع آلائه ورحمته التي وسعت كل شيء.. وذلك حتى تحرك مشاعرهم وتثير عقولهم ليدركوا عظمة النعمة، وحجم العطاء.. على أنها إذ تحدثت عن نعم الله، أوضحت أن الله سبحانه وتعالى، ابتداءً بهذه النعم على الناس ابتداءً من دون أن يسألوه شيئاً منها، وذلك لأنه كريم وفياض بالعطاء، وعطاؤه لا حدود له.. ولكنها في الوقت ذاته حذرتهم من مغبة التلاعب بشأن هذه النعم والتفريط بحقوقها لأن ذلك يزيلها منهم وينقلها إلى قوم آخرين، فما من نعمة باقية إلا وملاكها الحمد والثناء، وما من نعمة مفقودة إلا ووراء فقدانها الكفر والجحود، فليس هناك شيء أقوى على تغيير النعمة، وتبديلها إلى نقمة وحرمان وعذاب مثل الكفر والجحود، وعدم الشكر.. ولذلك أشارت الزهراء إلى هذه الحقيقة ثم بينت لهم كيف يستبقونها ويحافظون عليها فدلتهم على طريق يضمن لهم سلامة هذه النعم الثلاث هي أدوات الإنسان الحضاري المؤمن الذي يشكر النعمة، ويحمد الله عليها ويثني على الوهاب الكريم بالمديح والثناء، ثم يوجهها في الإصلاح والصلاح وعمل الخير أي أنه يستخدم هذه النعم في البناء وليس في الهدم..



وإنما يستطيع أن يستعملها في البناء فقط حين يحمد الله ويشكره
ويثني عليه أما عندما ينقطع عن الله فإن ذلك يعني إنفاق النعم
والطاقات وصرفها في الهدم والشيطان.

والجدير بالملاحظة هو: أن الزهراء ذكرت النعم الظاهرة مثل نعمة
الطعام ونعمة الحواس، ونعمة الأنبياء وإرسالهم الى البشرية.. ثم
ذكرت النعم الباطنة مثل الإلهام والعقول، والعلم والإيمان. على أنها
ذكرت في معرض حديثها نعماً عامة يشترك فيها الناس جميعاً مثل
نعمة تسخير الكون لخدمة الإنسان أياً كان نوع ذلك الإنسان.

وبكلمة: فإن فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - قد أشارت في
حديثها هذا إلى النعم الظاهرة مثل نعمة الوجود ونعمة إرسال الأنبياء
بمناهج السماء، ونعمة الأشياء التي تخدم الإنسان من قبيل: المطعم،
والمشرب، والمسكن، والملبس، والأمن وكل ما يجري في هذا الكون
لخدمة لبشر.. ثم ذكرت «النعم الباطنة مثل: العقل والعلم والإيمان..
ثم أوضحت الطرق التي تؤمن بقاءها، واستدامتها فذكرت ثلاث طرق
- كما مر علينا - ونذكرها للتأكيد ثانية:

١ - الشكر لزيادتها.

٢ - الحمد لإجزالها.

٣ - وثنى بالندب إلى أمثالها - بمعنى - أحسن كما أحسن الله
إليك، فكما أعطاك الله هذه النعم، فانعم أنت على الآخرين وأحسن
إليهم لأن ذلك يضاعفها عندك، وتزداد النعمة الواحدة، فتصير أنعماً
كثيرة، وهذا هو الذي يجعل الإنسان إنساناً ذا مستوى حضاري عظيم.



ولتوضيح هذه الفكرة التي طرحتها الزهراء في أول خطبتها لآبد لنا من أخذ صورة واضحة ومفيدة في هذا المجال.

نحن نعرف أن نعم الله عز وجل تفوق الحصر والعد.. لكثرتها واتساع رقعتها وشمولها، وهي من العظمة بحيث يشير القرآن الكريم إلى عجز الإنسان عن إحصائها.. وقد أشارت فاطمة الزهراء أيضاً في أول حديثها هذا الى هذه الحقيقة حيث قالت: جم عن الإحصاء عددها.

على أن هذه حقيقة لا غبار عليها كما لا يختلف فيها اثنان، فالنعم كثيرة تفوق الحصر.. والآلاء عظيمة لا حدود لها.. ولكن ذلك لا يمنع من حصر النعم الكبرى وتقديرها بين يدي الإنسان ليعرف كيف يتعامل معها، وبالتالي ينتفع من وجودها حين يستخدمها على نحو حضاري متميز.. وقد مر علينا أن النعم يمكن حصرها في أربع هي:

نعمة الوجود، نعمة العقل، نعمة العلم، ونعمة الإيمان.

على أن هذه النعم مترابطة بعضها مع بعض بشكل يثير الدهشة ويأخذ بمجامع القلوب.. فنعمة الوجود لا يمكن أن تتفعلنا من دون نعمة العقل لأن العقل هو الذي يجعلك تستثمر كل ساعة من العمر، وكل لحظة من الحياة بحيث يتحول وجودك إلى وجود نافع بنشر الخير والعطاء في كل زمان ومكان.. فبالعقل يستطيع الإنسان أن يكون مباركاً أينما حل ونزل ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾.

في حين أن الذي لا يحرك عقله لا يمكن أن ينتفع من عمره ووجوده في الحياة، ولذلك قال الإمام علي عليه السلام «لا غنى كالعقل» لأن نعمة



العقل هي التي تجعل أيامك غنية بالعطاء، ومعمورة بالخير والبركة.. ونفس الشيء يقال بالنسبة لنعمة العلم إذ إنها ضرورة ملحة للعقل لأن العقل أشبه بالمصباح، والعلم هو الزيت لهذا المصباح فعقل بلا علم يشبه مصباح بلا زيت وهكذا نسمع الإمام علياً أمير المؤمنين - عليه السلام - يقول: إن العقل يتغذى بالعلم، وهذا هو الحق والواقع.. لأنه كما للبدن غذاء كذلك للعقل غذاء.. وغذاؤه العلم..

ثم نأتي الى النعمة الرابعة وهي نعمة الإيمان والدين، لنجد أن هذه النعمة هي الأساس الرئيسي في كل النعم الثلاث السابقة، وذلك أن العلم من دون إيمان لا قيمة له ولا وزن.. وأحياناً يصبح العلم بلا إيمان جريمة ومحنة كبرى تنزل بالبشرية.. وما هذه الرحلة المزعجة للعلم المادي الخالي من الإيمان إلا خير دليل على أن العلم وحده لا يكفي لإنقاذ البشرية من العذاب والدمار بل لابد للعلم من الإيمان، لأن الإيمان هو غذاء القلوب بينما العلم غذاء العقول، ومشكلة الحضارة اليوم، هي أنها اهتمت بالعقول ولم تهتم بالقلوب فأعطت العقول علماً ، ولكنها تركت القلوب جائعة في ظمأ وعطش واضطراب، وعندما تكون القلوب جائعة خاوية، فإن العقول تتحول الى كتلة مظلمة لا تنفع بأي حال من الأحوال.. على أننا سنتناول موضوع النعم والآلاء بشكل أوضح وأوجز مما مر علينا الآن فنتركه الى محله من هذا الكتاب.

* الحمد والثناء والشكر:

قالت الزهراء عليها السلام: «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام



منن والاهـا، جم عن الإحصاء عددها ونأوى عن الجزاء أمددها...
ونديهم لاستزاداتها بالشكر لاتصالها.. وثنى بالندب الى أمثالها».

الحمد، والشكر، والثناء، ثلاث كلمات جامعة، ومعبرة، من قالها
ملأت جوفه نوراً، وفجرت ينابيع الحكمة، والشكر والثناء، لله وحده
فهي التي تتشئ جسراً بين الإنسان، وبين خالقه تشده الى الله العزيز
الحميد.

والسؤال الآن هو: كيف يكون ذلك كذلك؟.. والجواب ببساطة
يتلخص في فكر الصديقة فاطمة الزهراء، - سلام الله عليها -.. ففي
خطبتها العظيمة الرائعة، الذائعة الصيت، التي رواها أهل البيت، كابراً
عن كابر، وتناقلها المسلمون جيلاً بعد جيل، أقول: ففي هذه الخطبة
الفاطمية، نجد الزهراء، قد تناولت كل مناهج الإسلام، واستطاعت أن
تصور الإسلام تصويراً يستولي على القلوب، ويأخذ بالألباب، والعقول،
وليس على من يريد الانتفاع بفكرها، إلا أن يفتح قلبه، ويصفي بخشوع
لما تقول، فإن الإنسان الذي يفتح عقله، ويصفي إصغاء السامع المطيع
الذي يبحث عن الحقيقة، فإنه لاشك سيكتشف كنوزاً من العلم،
والمعرفة. والآداب والسنن.

إن فكر الزهراء، أهم فصل في كتاب الإسلام.. ولعلني لا أعدو
الحقيقة إذا قلت إن فكر فاطمة الزهراء، ليس فقط هو أهم فصل في
رسالة السماء، بل وأيضاً أعظم أساس في الإسلام. وبكلمة: إن فكر
الزهراء، هو الإسلام بعينه، وهو القرآن بذاته.

أليست الزهراء، هي أم أبيها؟.. ألم يقل الرسول فيها: فاطمة
بضعة مني يؤذيها ما يؤذيني، ويسخطها ما يسخطني؟ ألم يقل الرسول

فيها: «إن الله ليرضى لرضا فاطمة ويفضب لغضبها»؟ ثم أليست فاطمة هي المرأة الصافية التي انعكست عليها أشواق السماء، وأخلاق أبيها رسول الله ﷺ؟ كانت إذا مشت حكت أصالة مشية النبي، وإذا تكلمت، خيل إلى الناس، وكأنهم يسمعون كلام رسول الله ﷺ.

فما معنى ذلك؟.. ذلك معناه أن الرسول الأعظم كان يستمر في حياته وعطائه من خلال ابنته العظيمة، فاطمة الزهراء، وبعدها يستمر من خلال أبنائها، ولذلك كانت الزهراء هي الكوثر الذي لا ينضب عطاؤه، ولا يمحي أثره. ومن هنا ندرك أهمية الكوثر الذي منحه الله لنبيه الكريم، وما الكوثر إلا فاطمة، لأنها هي الاستمرار الطبيعي لرسالة السماء، ولذلك كانت أم أبيها، وكانت الكوثر الذي وعد الله سبحانه نبيه الكريم أن يعطيه إياه.

وبعد هذه الجولة السريعة في التمهيد لمعرفة خطبة الزهراء، نود الإشارة إلى أن دراسة خطبة الزهراء، تعتبر أروع وأجمل، وأنصح دراسة للفكر الإسلامي، الصحيح الأصل. ولهذا فإنه يتوجب على الشباب بالخصوص أن يقرأوا خطبة الزهراء، بشيء من التأمل والتدبر وإثارة الفكر.. حتى يستوعب كل واحد منا ويدرك كم هو الإسلام العظيم الذي تقدمه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء - سلام الله عليها -.

* تأملات في مقدمة خطبة الزهراء:

«الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم، من عموم نعم اتبداها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاه، جم عن



الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدّها، وتفاوتت عن الإدراك أبدّها،
وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد الى الخلائق بأجزالها،
وثنى بالندب الى أمثالها..»^(١).

لا خير في العيش إلا لمن سار في رفقة الأحرار، من الشهداء،
والصديقين، من الذين أنعم الله عليهم، فعرفوا تلك النعمة، وأدوا
شكرها، ولم يبدلوها كفرًا، فيحلوا قومهم دار البوار.

إن هؤلاء عرفوا آلاء الله ونعمه فأدوا شكرها،.. ومن يحمد الله
ويشكره ويشي عليه، ويجعل نفسه مطيعا لله، وللرسول، لأن الحمد
والثناء والشكر يلخص طاعة الله والرسول، أجمل تلخيص، ويجعل
صاحبه في مصاف الشهداء والصالحين.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ
وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^(٢).

ولذلك، فإننا نكرر في كل يوم عشر مرات خلال صلاتنا، الدعاء
التالي في سورة الحمد ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ^(٣).

على أن الذي يركز فكره، ويتأمل قوله الله تعالى في هذه السورة،
سورة الحمد: اهدنا الصراط المستقيم.. الخ، يدرك أن النعمة لا

(١) من كتاب الاحتجاج للطبرسي ص ٩٨.

(٢) النساء / ٦٩.

(٣) الفاتحة / ٦ - ٧.



يتذوقها، ولا يعرف قدرها إلا الإنسان المؤمن لأنه هو وحده العارف بالشكر على آلاء الله ونعمه.

أما الكفار والمنافقون، فأولئك لم يعرفوا قدر النعمة الربانية، فداسوها تحت أرجلهم، ودفتوها في تراب الغفلة والنسيان، والنتيجة كانت أنهم بدلوا نعمة الله كُفْرًا!!

يقول القرآن الكريم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (١).

يقول الإمام الصادق - عليه السلام -: «إن الله منَّ على قوم بالمواهب فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالاً» (٢).

وتفسير هذا الحديث، أن الذي يتمتع بموهبة، ونعمة، عليه أن يشكر الله وذلك بتوظيفها في طريق العدل، والحرية، فإذا لم يشكر الله، وترك لكم الموهبة دون أن يحاول الاستفادة منها، والاتفاع بها، فإنها تتحول إلى وبال عليه، أي أن الذي ينسى الله فلا يشكره، لا يستطيع أن يعرف قدر نفسه، وقدر نعم الله عليه، فيهلك نفسه حينما يحول طاقاته عن مسارها الصحيح.

إن الذي يشكر الله على نعمه يوظف نعمه في سبيله، وإذا جعلها في سبيل الله، فقد نفعته ونفعت الآخرين معه، في حين أن الذي لا يشكر الله - وهي إشارة إلى أنه نسي الله فأنساه نفسه - يدس تلكم النعمة في التراب، فتتحول إلى وبال عليه، أو أنه يوجهها إلى خلاف فطرتها،

(١) إبراهيم/ ٢٨ - ٢٩.

(٢) البحار ٤١/٧١، التفسير المعين ص ٢٥٦ سورة إبراهيم.



كما قال الله: ﴿بَدِّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ لأنه لا يعرف قيمتها كما قلنا وذلك أن المعرفة لا تحصل إلا بمعرفة الله سبحانه وتعالى.

والذي يشكر الله هو وحده الذي يعرف النعمة لأنه عارف بالحقيقة.. ولذلك يقول الإمام الحسن العسكري - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - موضحاً هذا المعنى بالذات، يقول: «لا يعرف النعمة إلا الشاكر، ولا يشكر النعمة إلا العارف»^(١).

فالذي يعرف النعمة يشكرها، والذي يشكر النعمة، هو العارف بالحق. في خطابها الرياني الذي ألقته في مسجد أبيها الرسول الأعظم، والذي استعرضت فيه كل معالم الإسلام، ومناهجه الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية، والنفسية، افتتحت فاطمة الزهراء كلامها بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على أبيها رسول الله ﷺ.

وافتتح الكلام بحمد الله، والشكر له، والثناء عليه، صفة ملازمة لأهل البيت عليهم السلام. فما من أحد منهم إلا ويبدأ كلامه بالله، البداية من الله، والنهاية الى الله. وبين البداية والنهاية، اتصال وثيق وتوجه كامل إلى الله سبحانه وتعالى.

والذي يعيش في رحاب الزهراء، رحاب العلم، والرشد، والمعرفة، يدرك كم هي عظيمة سيدة النساء.

إن فاطمة لتفتح كل أبواب العلم في خطبتها هذه، وتدعو الناس كافة للالتحاق بهذه الجامعة الإسلامية الكبرى التي تديرها منذ فجر الإسلام وإلى اليوم.

(١) البحار ٣٧٨/٧٨، والتفسير المعين ص ٢٥٦ سورة إبراهيم.



ولكي نستوعب أقوال فاطمة، وأفكارها، تعالوا معي في رحلة ممتعة
ونافعة، نقطعها من ظلال خطبة الزهراء عليها السلام.

ولنبداً بقولها: «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم،
والثناء بما قدم.. من عموم نعم اتبداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام
مننٍ والاهـ...».

ولكن قبل الدخول في رحاب سيدة النساء، لابد من تذكيركم - أيها
الأحبة - بأن فاطمة الزهراء، هي مرآة صافية تنعكس عليها أفراح
السماء وأحزانها.. بل هي انعكاس صادق لغضب الله ورضاه، بحيث
إذا رضيت الزهراء عن أحد، فمعنى ذلك أن الله قد غضب على ذلك
الشخص، لأنها لا تغضب إلا من أجل غضب الله، ولا ترضى إلا من
أجل رضى الله، بمعنى أن رضاها وغضبها مطابقان وموافقان لرضى
الله، وغضبه، وذلك أنها معصومة عن الخطأ فلا يخرجها غضبها عن
طاعة الله، ولا يدخلها رضاها في معصية الله.

ومن هنا جاءت الروايات تترى عن رسول الله ﷺ، وهو الصادق
الأمين الذي ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.. أقول: جاءت
أحاديث النبي وروايته تؤكد هذا الجانب بالذات فيقول: «يا فاطمة إن
الله ليرضى لرضاك ويغضب لغضبك.. ويقول في حديث ثان: إن الله
ليرضى لرضا فاطمة، ويغضب لغضبها».

ومرة ثالثة يقول: «رضا فاطمة من رضاي، وسخطها من سخطي».
ونقرأ عشرات الأحاديث الواردة في هذا المجال، وكلها تؤكد أن
فاطمة مرآة صافية تنعكس عليها أشواق السماء.. وأفراح وأحزان



السماء.. ولهذا كانت كلمات الزهراء، وأقوالها، تعادل آيات القرآن، قيمة ومعنى وتكريماً، لأنها لا تقول ماتقول غلطاً، ولا تفعل ما تفعل شططاً، وليس في كلامها حرف واحد ضد القرآن.. كما ليس في مقدور أحد أن يضع يده على كلمة لفاطمة تخالف القرآن، أو تخالف سنة أبيها المصطفى محمد - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - .

فإذا عرفنا ذلك، أدركنا الحقيقة التالية: وهي أنه ليس في إمكاننا استيعاب كلام فاطمة، إلا بأخذ صور فكرية من القرآن الكريم، تساعدنا على فهم كلامها، وتقرب فكرها الى أذهاننا فنستوعبه ونفهمه بسهولة، ويسر..

فالله سبحانه، يسر كلامها لنا، كما يسر القرآن للذكر.. ولكن يسره لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

والآن لكي تتضح صورة الحمد الذي افتتحت فاطمة كلامها به، لابد من العودة الى القرآن الكريم لأخذ الفكرة الآتية:

في القرآن نلمس صورتين متعاكستين لهذا الإنسان!

فتارة يحدثنا القرآن الكريم عن الإنسان الأمين الصادق، الذي كرمه الله سبحانه، فحمله في البر والبحر.. الإنسان المؤمن المطيع لله ولرسوله.. الإنسان الذي أدى الأمانة، واجتنب الخيانة.. يحدثنا عن الإنسان الذي علمه الله الأسماء كلها.. عن الإنسان المعلم الذي يعلم الملائكة، والذي سجدت له الملائكة، ومرغت جباها بتراب أقدامه.. يحدثنا القرآن الكريم عن الإنسان الذي تنزل عليه الملائكة بالبشرى.. عن الإنسان المليء بالمبادرة، والتقدمية، عن الإنسان الذي لا يعرف اليأس، ولا يعرف القلق، ولا يستسلم للدهر..



وتارة أخرى نجد القرآن الكريم يعرض علينا صوراً للإنسان الهلوع،
الجزوع، المنوع الكفور الظلوم.. الإنسان الذي خان الأمانة، وغاص في
أوحال الخيانة.. يحدثنا القرآن عن الإنسان اليؤوس القنوط الذي
تعشعش الشياطين في صدره، وتتطق على لسانه، وبالتالي يحدثنا عن
الإنسان الذي اتبع هواه، وباع آخرته بدنياه، الإنسان الذي لا يذكر الله،
ولا يتوجه إليه طوال الحياة!.

إذن: فهناك نوعان من الإنسان في القرآن الكريم.. نلمس صورتين
متعاكستين له:

صورة الإنسان المتربع على قمة المجد، وصورة الإنسان المنكوس على
رأسه في حمأة الضياع والانحطاط.

وحيثما نمعن النظر في الصورتين نجد أن الصورة الأولى إنما هي
صورة الإنسان المؤمن الذي آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.. بينما
الصورة الثانية هي صورة الإنسان الذي ترك الله فتركه الله.. فمثله
كمثل الأعمى الذي يتخبط في الظلام، ويمشي مكباً على وجهه..

على أن الصورة الثانية.. أعني صورة الإنسان البعيد عن الله،
تتقسم الى قسمين: قسم للكافر، وقسم للمنافق. وعلى هذا الأساس
يكون القرآن الكريم قد قدم لنا ثلاثة نماذج من البشر بعد أن صورها
بدقة بالغة.

وحتى تتم الفائدة من هذه المقدمة التي جئنا بها هنا لاستيعاب
خطبة الزهراء - سلام الله عليها - أقول: لكي تأتي الفائدة كاملة،
فلا بد من استعراض اللوحات الثلاث المتحركة التي رسمها القرآن،



وصورها تصويراً دقيقاً، بحيث يستطيع الواحد منا أن يشاهد كل واحد من أقسام الناس الثلاثة بوضوح وجلاء.

إن القرآن الكريم - هنا - ليمنح كل صورة، حركات، ونبضات وملامح صاحب الصورة، حتى يكاد الواحد منا يحس بهذا المعنى إحساساً جيداً.

والصور الثلاثة هي: صورة الكافر... والمنافق، والمؤمن..

فالنسبة للكفار يصفه القرآن بحمار الوحش الذي يشد عليه أسد ضار يقول: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ ۖ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾^(١)، والحمير المستنفرة هي الحمير الوحشية التي أثارها هجوم الأسد عليه، فتفر من بين يديه فزعة مرعوبة، والأسد يجري في أعقابها.. تأملوا هذه الصور جيداً، لعل بعضكم كان قد رأى مثل هذه الصور على شاشة التلفزيون أثناء استعراض بعض الأفلام العلمية التي تحدث عن حياة الحيوان في الغابات وفي الأدغال في أفريقيا وغيرها من البلاد التي يكثر فيها هذا اللون من الصور الحيوانية.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ ۖ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾.. والقسورة هو الأسد.

إن هؤلاء الكفار ببلاذتهم وتعطيلهم لطاقتهم وحواسهم، وصفهم القرآن الكريم بحالة هذه الحيوانات التي تمضي وقتها في مطاردة حثيثة مرهقة ومتعبة، ولكن دون أن تعرف إلى أين تتجه، وإلى أين تسير، وما هو هدفها، وغايتها.

هذا بالنسبة للكفار.. أما بالنسبة للمنافقين فيصفهم القرآن

(١) المدثر/ ٥٠ - ٥١.



بالخشب المسندة.. وهو وصف دقيق الى أبعد الحدود، فالخشب المسندة هي التي تقطع من الغابة وتجلب إلى الدار من أجل التدفئة أو أي غرض آخر..

ولكن قبل أن يتم الانتفاع بها.. تترك مسندة الى حائط.. أي أن صاحبها يسندها الى جدار بحيث يجعل بعضها فوق بعض في صف طويل مسنود الى الحائط بغير حبل يربطها، ولا وبد يثبتها، وإنما يتركها صاحبها - في العادة - هكذا دون أية تقوية أو مساندة، والأخشاب بهذه الحال، يستطيع كل طفل أن يهدمها.. فمجرد حركة من أي إنسان، تكفي لإسقاطها محطمة في ركام وغيار.. وللتوضيح اسمعوا القرآن أو اقرأوا إذا شئتم هذه الآيات الكريمة من سورة المنافقون: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (١).

لاحظوا دقة التعبير، وتأملوا سياق الآيات الكريمة.

هذه صورة المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾..

أي أنهم يهتمون بتغذية أبدانهم دون أن يهتموا بتغذية عقولهم، وقلوبهم، وأرواحهم، فعقولهم راكدة ليس فيها نفحة علم، ولا نور وفكر.. وقلوبهم خاوية على عروشها من العمى.. وأرواحهم في ظمأ وعطش، أي أن نفوسهم ليس فيها إيمان، ولا هدى، ولا نور مبين.

(١) المنافقون/ ٤.

والقرآن يقول: تعجبك أجسامهم.. ولم يقل: تعجبك أجسادهم، وذلك أن الجسم يختلف عن الجسد.. فما دام الإنسان على قيد الحياة، فإنه يطلق على بدنه جسم، أما إذا مات وخرجت الروح من البدن فنطلق عليه اسم الجسد، وليس الجسم.. ولذلك نقول في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «السلام عليك وعلى أرواحكم، وعلى أجسامكم وأجسادكم..» أي السلام عليك يوم كنتم أحياء، والسلام عليكم بعد موتكم، وأنتم أحياء عند ربكم ترزقون.

إذن: فالجسم يطلق على البدن وفيه الروح، في حين أن الجسد يطلق على البدن بعد خروج الروح منه.

والقرآن الكريم، هنا يشير إشارة رائعة عندما يذكر الأجسام دون الأجساد، وهي أن أصحابها على الرغم من أنهم أحياء إلا أنهم أموات غير أحياء. لأنهم فقدوا النور، والرشد، والإيمان.

ثم يقول: كأنهم خشب مسندة. بينما في صورة المؤمنين يصفهم بالبنيان المرصوص يقول: ﴿كَأَنَّهُمْ بُيَآنٌ مَّرْصُوصٌ﴾^(١).

وهكذا عرض علينا القرآن هذه الصور الثلاث للأصناف الثلاثة من الناس في القرآن.

على المؤمن الذي له صفة ملازمة له، طوال الوقت وهي ذكر الله على كل حال.. فهو يذكر الله دائماً، ولا ينساه أبداً.. فكل نعمة تنزل على الإنسان المؤمن يقابلها بالحمد والشكر لله، والثناء عليه.. بينما الكفار والمنافقون لا يقابلون آلاء الله ونعمه بالحمد والشكر والثناء

(١) الصف / ٤.



عليه على الإطلاق. لأن الواحد منهم - أي من الكفار والمنافقين - إذا ربح يقول: «إنما أوتيته على علم عندي» بخلاف المؤمن، فإنه يرد كل شيء إلى الله وإلى الرسول. ويردد دائماً قول الله تعالى ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^(١).

ومن روائع ما يذكره القرآن الكريم في هذا المجال، تقديمه لاثنتين من ملوك مصر، أحدهما كان مؤمناً وهو يوسف الصديق عليه السلام، والثاني كان كافراً وهو فرعون عليه اللعنة وسوء العذاب.

فالملك الكافر، نظرته مادية بحتة، ومحدودة جداً، لا ينظر إلا ما تقع عليه الحواس المادية: ﴿وَنَادَىٰ فرعونُ في قومِهِ قَالَ يَا قومِ أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصرَ وَهَذِهِ الأنهارُ تجري من تحتي أَفَلَا تبصرون﴾^(٢).

إن نظرته محدودة بالماء والحجارة، وليس لديه قدرة على استيعاب وفقه ما يجري في هذا الكون العريض.. لأنه من أين تأتيه تلكم النظرة الربانية والمعرفة الحكيمة؟

إن الإيمان بالآخرة شرط أساسي في وجود القدرة على فهم الأمور، واستيعاب غاية الحياة وهدفها.

إن الإيمان بيوم القيامة والحساب، والجنة والنار. أو قل الإيمان بالغيب، يعتبر شرطاً بالغ الأهمية في تركيز العقيدة في الرأس، وترسيخ الإيمان في القلوب.

(١) النحل / ٥٣.

(٢) الزخرف / ٥١.



يقول الله عزوجل في خطابه لحبيبه المصطفى محمد ﷺ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (١).

ولأن فرعون لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، فمعنى ذلك أنه لا يفهم ولا يفقه سر الحياة، ولا معنى الوجود.

ولذا نجد نظرتة فقيرة فارغة من العلم، والنور والمعرفة.. إنه يفكر فقط بما تحت أقدامه، وما بين يديه، ليس أكثر من ذلك.. ثم يكرر قوله على الضعفاء من الناس: ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

هذه إذن: نظرة الحاكم الملحد الكافر.. أما نظرة الملك المؤمن، فتختلف اختلافاً كبيراً،.. إن الملك المؤمن يدرك أن كل نعمة هي من الله عطية وهدية من الله لهذا الإنسان وعلى الإنسان أن يشكر النعمة، ويحمد الله سبحانه على أنه أفاض على الناس خيره وعطاءه، ونعمه ظاهرة وباطنة.

فهذا يوسف الصديق، الملك المؤمن، والحاكم العادل الذي حكم مصر فأنقذها من جفاف مدمر، ومن مجاعة قاتلة لا تبقي ولا تذر، فإذا الأنهار تتفجر تحت قدميه.. وإذا الخير، والعطاء يتدفق من بين يديه وإذا الأرض تموج بالخير، والعطاء، والحب، والسلام، والحرية.

فماذا قال يوسف الصديق الملك العادل، والحاكم الورع التقى الذي لا يظلم في حضرته أحد، ولا يسجن في أرضه إنسان.. ماذا قال هذا

(١) الإسراء / ٤٥.



الحاكم المؤمن حينما وجد الأنهار تجري من تحته بالخير والعطاء،
وحينما وجد خزائن الأرض تفيض بالخير...؟..

ماذا قال يوسف؟ قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا
وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١).

وهذا هو الفرق بين من نظرته محدودة بالماء والحجارة، وبين من
نظرته تطوف السموات والأرض فيردد في تضرع وابتهاال ﴿رَبِّ قَدْ
آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وهذا هو الفاصل الذي يفصل بين ملكوت العمالقة وبين حمأة
الأقزام.

إن الحمد يرفع الإنسان إلى أعلى عليين، بينما الكفر يهوي به إلى
أسفل سافلين.

إن الصديقة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - تأخذنا معها في
رحلة الحمد هذه إلى أرفع القمم الشاهقة في آفاق الإيمان والوعي
والرشد.

وحينما نمعن النظر في خطبة الزهراء، نجد أن الخطبة تعتبر
جامعة كبرى من جامعات العلم، والفكر والفلسفة.

(١) يوسف/ ١٠١.



عَمَّنْ نُقِلَتْ خُطْبَةُ الزَّهْرَاءِ ؟

خطبة الزهراء، كانت محفوظة لدى أهل البيت، وكانوا يلقنونها لأبنائهم، حتى كان الأطفال والصبيان يتسابقون لحفظها واستظهارها عن ظهر الغيب، بحيث يجلس الصبية في حلقة، ويبدأ كل واحد منهم بقراءة الخطبة وتلاوتها أمام أترابه وأقرانه، بنفس الحماس الذي يحفظون به آيات الذكر الحكيم، وسور القرآن الكريم.. ولذا نجد أن الخطبة رواها واحد من أحفاد الزهراء صلوات الله وسلامه عليها - وهو عبدالله بن الحسن، وهو حفيد الإمام الحسن السبط المجتبي.. على أن الذي يشد القلوب، ويلفت الانتباه، هو أن الخطبة المذكورة، نقلها الحفاظ، عن زينب العقيلة بنت فاطمة الزهراء، حيث كانت في صحبة أمها يوم ألقت الخطبة في مسجد النبي، وكانت زينب يومذاك في السادسة من العمر، فحفظت خطبة أمها فاطمة عن ظهر قلب، ولذا نجد عبدالله بن عباس عندما يتحدث عن مصادر الخطبة يقول: حدثنا عقيلتنا زينب بكذا وكذا..

ولا عجب، ولا غرابة في ذلك، فأهل البيت، - عليهم السلام -، كما قال أعداؤهم في وصفهم: كبيرهم لا يقاس، وصغيرهم جمرة لا تُداس.

إن فاطمة بنت الحسين، وهي الصغرى، ألقت خطاباً نارياً في الكوفة وكانت أسيرة مع أخيها السجاد وعمتها زينب وأهل البيت، ألقت الخطبة في الكوفة، فاهتزت لها القلوب والأبدان، بحيث استولت على



مشاعر الناس، واستحوذت على القلوب بمنطقها وبلاغتها.. وفي إمكان كل واحد منا أن يكتشف هذا الجانب في أهل البيت بمجرد إلقاء نظرة واعية على حياتهم وسيرتهم الذاتية في الحياة.

وإنما كتبت هذه الملاحظة، حتى ندرك لماذا جاءت الخطبة عن طريق عبدالله بن الحسن، ولم تأت عن غيره هنا بالذات؟

فبالرغم من كثرة المصادر التي نقلت خطبة الزهراء، حتى كادت أن تجمع الأقلام، ويجمع الحفاظ على صحتها.. أقول، بالرغم من ذلك، وبالرغم من أن المؤرخين أجمعت كلمتهم في اتفاق واحد أن فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - ألقت هذه الخطبة.. بالرغم من كل ذلك، فإن نقل الخطبة عن عبدالله بن الحسن، وهو حفيد فاطمة الزهراء، يظل يحفظ طعم الإيمان في روحية الخطبة.



عودة إلى الحمد

كلمة الحمد، والشكر، والثناء، دائماً تتألق على شفاه المؤمنين.

إن المؤمن يبدأ عمله ببسم الله، ويختمه بحمد الله والشكر له، والثناء عليه.

أما غير المؤمن فلا يعرف قدر النعمة إلا ند فقدتها.. فتراه يتحرق شوقاً إليها، ويعاني حسرة من فراقها ومغادرتها.

وهذا هو الفرق بين الإنسان المليء بالإيمان، وبين الفارغ من الإيمان، وهو أن الأول يذكر الله سبحانه في كل الأحوال فلا يفتر عن ذكر الله، ولا ينسى ألاء الله، ولا يجحد النعم.. في حين أن الثاني وهو الإنسان الفارغ من الإيمان.. الإنسان الذي يعيش في الظلمات وليس في النور، هذا الإنسان لا يذكر الله إلا في أوقات الشدة والعسر وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة وضرب لها أمثلة كثيرة ويمكن تطبيقها، في الجو، والبر، والبحر.

ففي الجو ترى الواحد منهم لا يذكر الله أبداً، حتى إذا اهتزت الطائرة في الآفاق وراحت تتقلب في أحضان الجو كطائر جريح، أقول: ترى الواحد منهم هنا في هذا الوقت بالذات يلجأ الى الله ويذكر الله بقلب كله خوف وهلع واضطراب. ولكن.. ولات حين مناص.

أما بالنسبة للذين يركبون البحر ويحاصرهم الموج الغاضب بشراسة وعدوانية، فنجد القرآن الكريم يصور نفوسهم الضائعة، وقلوبهم التي



بلغت الحناجر، يصورها تصويراً دقيقاً في أكثر من مكان، ولكن يكفي أن نذكر مثلاً واحداً من تلك الأمثلة، ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١).

ويتابع القرآن رحلته معهم ليكشف عن نفوسهم الملتوية، وعن الخبائث القابعة في داخلهم، بحيث أن الله حينما يستجيب لندائهم ويمنحهم النجاة والأمن، تراهم ينكصون على أعقابهم جاحدين. ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُمُ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (٢).

(١) يونس/ ٢٢.

(٢) يونس/ ٢٣.



عظمة الله وآلئه ورحمته

في قولها **الْعَلَّامَةُ**: «وسبوغ آلاء أسداها».

الآلاء هي النعم الكاملة التي تشمل كل الوجود، ويكفي لمن يريد أن يستوعب هذا الجانب من البحث، أن يقرأ سورة الرحمن ويلقي نظرة واحدة على سلسلة الفكر المترابطة التي جاءت في هذه السورة المباركة.

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١)﴾.

إذن: فالآلاء هي النعم العامة الشاملة التي تغمر الكون، والحياة والإنسان.. وينبغي للإنسان أن يقابل هذه النعم العظيمة بشكر عظيم، وحمد وثناء جميل. وذلك أن الله يقول ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (٢).

فمن يبتغي الزيادة في الرزق، والعطاء، والعافية، لا بد له من الشكر والحمد والثناء.

(١) الرحمن / ١ - ١٣.

(٢) إبراهيم / ٧.



علماً بأن الشكر يدل على روح الوفاء والأريحية في النفس، في حين أن عدم الشكر يقتل الوفاء في داخل المرء، وحينئذ يحوله الى شيء آخر ومخلوق مختلف تماماً عن الإنسان الذي خلقه الله وجعله خليفة له في الأرض.

وكلما فكر الإنسان في عطاء الله وآلائه ونعمه، ازداد إيماناً بالله وقرباً من الحق.

ولا يملك الواحد منا، حينما يتدبر في نعمة ربه، إلا أن يردد مع الصديقة فاطمة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها - كلماتها الذهبية التي ملأت الدنيا روعة وجمالاً، وملأت القلوب إيماناً وتسليماً.

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم من عموم نعم ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاهـا، جم عن الإحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمددها، وتفاوت عن الإدراك أبددها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد الى الخلائق بأجزالها.. وثنى بالندب إلى أمثالها.

أجل.. إن كل نعمة لا بد أن تقابل بالحمد، وكل إلهام لا بد أن يقابل بالشكر من قبل الإنسان المؤمن، ولكثرة ما قدم الله للبشرية من عطاء فلا بد من الثناء عليه بما هو أهل لذلك الثناء.. والثناء معناه أن تشي على ربك حامداً تعبده مخلصاً له الدين. وتشكره مسبحاً.

على أن كل عطاء الله لنا في الدنيا إذا ما قيس بعطائه في الآخرة فإنه لا يشكل إلا نسبة ضئيلة جداً بالنسبة لذلك العطاء الذي يعطيه



الله سبحانه بغير حساب. والذي تصفه الروايات بأنه فوق ما رآته العيون، وسمعته الأذان، وخطر على القلوب.

ففي الجنة من النعيم والعطاء بحيث مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهذا هو العطاء الذي تريد فاطمة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها - أن تثيره في قلوبنا، وتشد نفوسنا إليه بقوة بالغة، وشوق عميق.

والثناء بما قدم من عموم نعم ابتداها وسبوغ آلاء أسداها تمام ممن والاهـا.

الرزق رزقان، رزق تطلبه، ورزق يطلبك، والنعم نوعان؛ واحد يأتيك بغير طلب، وآخر لا يأتيك إلا بجد، واجتهاد..

فالماء والهواء، وضوء الشمس والقمر، وأنوار النجوم، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، والأنهار التي تجري في الأرض بما ينفع الناس وتجمعها الآية المباركة التالية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١).

(١) البقرة / ١٦٤.



أقول: هذه أشياء مسخرة في خدمة الإنسان دون أن يكون للإنسان دخل في توجيه نفعها إليه.. فهي تعمل من أجل الإنسان سواء فطن الإنسان لذلك أم لم يفطن، وسواء عرف أو لم يعرف. وهي بمجموعها من النعم التي ابتدأها الله سبحانه ابتداءً، أي أنه لم ينتظر من الناس أن يطلبوها منه، ولم يوزعها على الناس، على أساس أنهم يستحقونها.. أبداً، وإنما لأنه كريم، وفياض العطاء، فعطاؤه للبر والفاجر.. للمؤمن والكافر.. لا فرق في عطائه هذا.. ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (١).

ولتوضيح هذه الفكرة التي طرحتها الزهراء في خطبتها هذه، لا بد من ذكر الحقيقة التالية أو قل المثال التالي: الأشياء في الحياة تنقسم - حيال الإنسان - إلى قسمين: قسم يفعل للإنسان دون أن يكون الإنسان طرفاً في الفعل.. وقسم آخر لا يفعل للإنسان إلا بعد أن يتحرك الإنسان باتجاه الفعل هذا.. أي أن هذا القسم لا يفعل للإنسان وإنما ينفعه بحركة الإنسان، ومثالي على ذلك الشمس والأرض.. فالشمس تفعل للإنسان لأنها مسخرة في خدمته، سواء أراد الإنسان من الشمس ذلك أم لم يرد، فهي أي الشمس تشع بخيرها وعطائها على بني الإنسان كافة، مؤمنهم وكافرهم، عالمهم، وجاهلهم.. صغيرهم وكبيرهم، نسائهم ورجالهم.. لا فرق عند الشمس في عطائها، فهي لا تفرق بين أحد من العباد، إنها تطلق حرارتها ودفئها على الطيبين والطيبات بنفس المقدار الذي تطلقه على الخبيثين، والخبيثات وهلم جرا.. إذ إن الشمس من الأشياء التي تفعل للإنسان ولا ينفع بها،

(١) الإسراء / ٢٠.



بمعنى لو أضرب الناس عن الشمس وقالوا: غداً صباحاً لا نريد من الشمس أن تشرق، ولا نسمح لها بالطلوع.. فهل تسمع الشمس كلامهم وتتصاع لأوامرهم، وتضرب عن الشروق بالفعل؟

بالتأكيد لا.. لماذا؟ لأنها لا تعمل بإرادة الإنسان وإنما هي تعمل بإرادة الله، ولذلك فهي تفعل للإنسان ولا تتفعل به.

هذا بالنسبة للشمس.. أما بالنسبة للأرض، فإنها تختلف اختلافاً كبيراً عن الشمس وذلك أن الأرض لا تعطي الإنسان خيرها إلا بعد أن يحراثها الإنسان ويجري عليها الماء.. وهذا مثال بالطبع لتقريب المعنى، وإلا فالقرآن الكريم يقول: ﴿تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ (١).

ولكن على الأغلب وفي الأعم تكون الأرض في عطائها للإنسان منفعة وليست فاعلة، أي أنها تنفعل بحركة الإنسان ولهذا يظل عطاؤها متوقفاً على جهد الإنسان.. وقد أشارت الآية المباركة إلى ذلك بقولها: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٢).

كما أن الرسول الأعظم محمد ﷺ كان قد كشف عن هذه الحقيقة في خطاب رائع - وكل كلامه رائع - وجهه الى ابنته الصديقة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - حيث جاء فيه: «يا فاطمة اعملي لنفسك فإني لا أغني عنك من الله شيئاً» (٣).

(١) فصلت/ ٣٩.

(٢) النجم/ ٣٩.

(٣) فاطمة وتر في غمد ص ١٧ من مقدمة الإمام الصدر.



على أن هذا الحديث، إنما هو ترجمة حقيقية للآية الكريمة التي مرت علينا قبل لحظات.. وإنما وجهه النبي لابنته الزهراء، وذلك أن فاطمة تجسد أشواق السماء، وتشكل حياتها كل مناهج الإسلام، وأعمدة القرآن الكريم.

إذن: فهناك نعم وآلاء قدمها الله للعباد ابتداءً، وهناك نعم وآلاء يمنحها الله للناس بالصلاة والدعاء، والتوجه إليه.

وبعد سبوع الآلاء، تابعت الزهراء، في خطابها، تذكير الناس بتمام المنن التي والاهها الله على البشرية جمعاء أي تابعها في عطاء لا ينقطع أبداً. فقالت: «وتمام منن والاهها..» والمنن جمع منة، وهي العطية، والإحسان، والنعمة.. ووالاهها أي تابعها، وهي الموالاة مثل المتابعة والديمومة، والاستمرارية في العطاء.

يقول القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

وفي آية ثانية يقول الحق سبحانه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢).

وفي آية ثالثة يقول: ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣).

(١) آل عمران / ١٦٤.

(٢) الحجرات / ١٧.

(٣) يوسف / ٩٠.



وفي آية رابعة: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾^(١).

وآية خامسة تقول: ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾^(٢).

وفي سورة النساء يقول القرآن الكريم ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾^(٣).

إذن: فالمنة هي العطية والنعمة والإحسان.. وهنا نجد الزهراء - سلام الله عليها - تؤكد هذا المعنى في خطبتها فتلفت أنظار الناس إلى نعم الله، وتثير أفكارهم حتى يتدبروا في العطاء الرياني المغني الذي تتابع فصوله واحد إثر الآخر.

ثم قالت فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - : «جم عن الإحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدّها، وتفاوت عن الإدراك أبدّها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، وثى بالندب إلى أمثالها..»

وهل في استطاعة أحد أن يعرف كم هي نعم الله، وما هو عددها؟ ليس في الإمكان.

وحيثما نقرأ الآيات التي تتحدث عن كلمات الله، علماً بأن الكلمة الواحدة تشكل موكباً من النعم والآلاء - أقول: حينما نقرأ القرآن، ونقرأ الآيات التي تتحدث عن كلمات الله، ثم نتأمل الآية التي تقول:

(١) القصص / ٨٢.

(٢) الطور / ٢٧.

(٣) النساء / ٩٤.

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ
كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (١).

أي رقم هائل هذا الذي تشير إليه الآية، بحيث لو تحولت كل أشجار الأرض إلى أقلام، والشجرة الواحدة تصبح أكثر من مليون قلم، والبحر يصبح مداداً أي حبراً، ثم تبدأ عملية الكتابة لإحصاء كلمات الله فقط، وليس لإحصاء النعم، لما استطاع أحد أن يحصي نعماء الله، ولا كلماته. ولذلك لا بد من الشكر المتواصل، والحمد المستمر، حتى نتمكن أن نقابل النعمة بالشكر، والحمد والثناء، وهذا هو أقل جهد يمكن للإنسان أن يقدمه لله سبحانه وتعالى.

أما قولها: «ونأى عن الجزاء أمدّها»، فإنه يكشف لنا عن حقيقة مدهشة، وهي أن الإنسان، مهما بلغت قدرته، فإنه ليس في إمكانه أن يؤدي حق النعمة الذي يناسب حجمها ويوافق عظمتها، كما أنه لا يستطيع جزاءً ولا شكوراً، لأنها - أي النعم - نأت عن الجزاء، وبعدت عن الشكور، يضاف إلى ذلك أنها ليست متوقفة على الشكر.. فأغلب الناس لا يشكر الله، ومع ذلك فאלله سبحانه، يتابع نعمه على العباد.

«وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها» أي حتى تبقى النعمة متصلة، فإنه بحاجة إلى وقود، وهو الشكر الذي يكثرها، وينميها، وكذلك الحمد فالله سبحانه، أراد من عباده أن يحمده، واستحمد أي طلب الحمد من الناس، فبالشكر تدوم النعم، وتكثر، وبالحمد تتحصن ضد غائلة الدهر.

(١) لقمان / ٢٧.

وفي الحديث: إذا رأيت الله سبحانه يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه فاحذره ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

ونثي بالندب إلى أمثالها.

بمعنى أنه - تقدست أسماؤه - أراد من الناس أن يتعرضوا لموجبات رحمته ونعمه، وآلائه سبحانه وتعالى بالدعاء والصلاة، والتضرع إليه والتوجه إلى مرضاته عزوجل.

ومعنى الكلام أن الإنسان مهما كان قوياً، وقادراً، وبليغاً، فإنه ليس في وسعه أن يحيط علماً، بكافة أنواع النعمة، وأصناف الآلاء الربانية، وذلك أنها تفوق الحصر، وتفوق قدرة الإنسان على الإحصاء، والعد.

ومن هنا فإننا لا نملك أمام هذا الطوفان الكريم، من الآلاء والنعم، إلا أن نعبد الله مخلصين له الدين، ونحمده، ونشكره، ونثني عليه في السراء، والضراء.

فإنه قد يتبادر إلى الأذهان، من خلال بعض مشاهد الحياة، أننا في الضراء، والشدة، ولكن ما يلبث الواحد منا أن يكتشف الحقيقة، فإذا هو في أسعد نعمة، وأهنأ بال وأجمل ساعات العمر.

(١) النور / ٣٦.



من خطبة الزهراء

واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة

الوالي وحقوق الرعية

توجد حقيقة لا يمكن التغافل عنها، وهي أن الناس يحبون من أحسن إليهم، ويكرهون من أساء إليهم، وهذه حقيقة ليس عليها غبار.. كما أنها حقيقة تكشف عن فطرة الإنسان، وعن الماهية المزروعة في أعماق هذا المخلوق البشري، وهي قبل كل شيء غريزة مزروعة في فطرة الإنسان، ونابتة في طبيئته، طينة الفطرة، ولأن الدين هو دين الفطرة، فمعنى ذلك أن مناهج الإسلام كلها إنما هي نابعة من الفطرة، وتتأغم دائماً مع أمواجها، ومن هنا فقد حرص الإسلام على أن تكون مناهجه كلها مثيرة للفطرة ومنسجمة معها في توافق مذهش، وعناق طويل وعميق.

وانطلاقاً من هذا المفهوم، فقد جعل الإسلام مسيرته كلها، مسيرة العدل والإحسان، مسيرة الحق والحرية، مسيرة الإيثار والمساواة، إن هاجس الإسلام هو الإحسان إلى الناس لا الإساءة إليهم.. هاجسه العدل ونشر العدالة الاجتماعية بين الناس، لا الظلم، ولا الاستبداد ولا نشر الذعر، والرعب بين صفوف الشعب وأبناء الأمة.

إن الإسلام يعامل الناس وفقاً لمبادئ العدل والإحسان، والحق



والحرية، حتى أن الحاكم الإسلامي الأعلى علياً أمير المؤمنين عليه السلام، يصف الخلافة بأنها لا تزن عنده أو لا تساوي عنده قيمة نعل ليف، إلا أن يقيم حقاً أو يدفع باطلاً.. فالخلافة والحكومة القائمة على الظلم، والاستبداد، وسلب الناس حرياتهم، وانتزاع العزة منهم والسعي إلى إذلالهم، إنما هذه كلها تجعل الخلافة في نظر الإسلام ورجال الإسلام، قطعة من الجحيم، قطعة من العذاب.

إن الله سبحانه لم يخلق الناس ليعذبهم، وإنما خلقهم لينشر عليهم رحمته، ويشملهم برعايته، ويفيض عليهم إحسانه وكرمه، ونعمه ظاهرة وباطنة لقد ركز الإسلام في مناهجه الاجتماعية على الإحسان إلى الآخرين حتى ولو كانوا أعداء ومسيئين.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (١).

وجاء في الدعاء: «وعادتكم الإحسان إلى المسيئين» وفي سيرة النبي، ألم نجده كان قد أحسن إلى أعدائه الذين أساءوا إليه، وأنزلوا به أفدح ألوان البلاء والعذاب؟ ألم يحسن إلى أبي سفيان وهند، وأهل مكة الذين قاتلوه وحاربوه وكانوا له أعداء إلى آخر لحظة؟

وفي حياة علي أمير المؤمنين عليه السلام لم يحسن حتى لألد أعدائه وهو ابن ملجم الذي خضب لحيته من دم رأسه بضربة بالسيف أثناء صلاة الصبح في مسجد الكوفة؟ ومع ذلك فقد أوصى الإمام علي عليه السلام



بالإحسان إلى ابن ملجم، وذات مرة كان يشرب اللبن فأبعد الإناء من فمه ودفعه لولده الحسن وقال له: بني ابعثه إلى أسيركم ابن ملجم، بني بحقي عليك إلا ما أطعمته مما تأكل، وسقيته مما تشرب!.

وأمثلة كثيرة وشواهد عظيمة موجودة في تاريخ أهل البيت وفي سيرة النبي ﷺ وأهل بيته - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام - فحياتهم حافلة بهذه الصور الإنسانية الرائعة. ولا تتسى الإمام الحسين أبا الأحرار، وكيف سقى أعداءه ماءً، وأعطى قاتليه طعاماً وهم الذين منعوه من شرب الماء وقتلوه وصبيته وهم في أشد ألوان الظمأ والعطش!

يقول الشاعر:

جاز الإساءة بالإحسان إن صدرت من امرئ زلة تدعو إلى الغضب
سجية النخل من يرميه في حجرٍ كافاه عن ضربه بالبسر والرطب
إذا: فإن مناهج الإسلام إنما أمرت بالإحسان إلى الناس وذلك لشدة قلوبهم، ولحفظ كرامتهم وعزتهم.. الإسلام دين العزة والكرامة، ولا يرضى لأتباعه أن يكونوا في ذل وهوان، وحرمان، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين».

ويقول الإمام الحسين عليه السلام في معرض كلامه عن يزيد بن معاوية، وعن عبيد الله بن زياد الدعي بن الأدعياء، يقول الحسين عليه السلام: «ألا وإن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيئات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام».



وظلّ هذا الصوت يمدُّ الأجيال بالشعور بالعزة والكرامة والحيوية.
على أن تضحية الإمام الحسين عليه السلام بهذا الشكل المأساوي المفجع
كانت قد أدّت الى إبقاء مبادئ الاسلام حية ساخنة في أذهان الناس..
ولولا الحسين لماتت تلك المبادئ، وانطفأت شعلة الإسلام، وجذوة الدين
في النفوس. ولذلك نجد الإسلام هو الدين الوحيد الذي ركز في كل
مناهجه ومبادئه وقوانينه على احترام الإنسان، من حيث كونه إنساناً
بقطع النظر عن عقيدته، سواء أكان مؤمناً أم كافراً فإن الإسلام يحترم
الإنسان ويحترم عقيدته ويحترم ماله ودمه وعرضه وكل ما له علاقة
به.

يقول علي أمير المؤمنين في كتابه لمالك الأشتر حين ولّاه مصر، وهو
كتاب يعتبر أعظم وأقدس وثيقة احتوت على كل مناهج الحياة،
اقتصادية وسياسية، وأخلاقية، وتربوية وجهادية وغيرها. يقول في
واحدة من كلمات هذا الكتاب: واشعر قلبك الرحمة للرعية واللفظ
بهم والحنان عليهم، ولا تكونن سبعا ضارياً تغتتم أكلهم فإنهم صنفان:
إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق.

وهذه قاعدة عامة تجري في كل مناهج الإسلام، وهي أن الإسلام لا
يرفع السلاح بوجه عقيمة أحد، وإنما يرفع السلاح بوجه الظلم
والاستبداد. «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس» والإسلام لا
يتسامح مع الظلم أياً كان نوعه، يحاربه بكل وسائله سواء صدر الظلم
من كافر أو مؤمن لا فرق عند الإسلام في ذلك إنما هو الظلم وليس
شيء وراءه ولا قبله.



أما الكفار الذين لا يظلمون أحداً، ولم يصدر منهم ظلم ضد أحد فالإسلام يأمر بالإحسان إليهم، والعدل معهم..

يقول الحق سبحانه ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١).

إنما ينهاكم عن الذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم.

إذاً: فالقرآن صريح في هذا المجال، وفي كل أحكامه ومناهجه فهو يؤكد أن الكفر لا يحرك السلاح في الإسلام، وإنما الظلم هو الذي يثير القوة، ويحرك السلاح، ويجعل السيوف تلمع في وجه الحاكم الظالم الطاغية.

وانطلاقاً من هذا الباب، وهذه القاعدة، فإن الإسلام لا يسمح لأحد أن يمس كرامة أحد، أو أن يسلبه حقاً من حقوقه، لا بل جعل الإسلام الإنسان محفوفة حقوقه في حضرته وفي غيبته فالغيبة حرام، والنميمة، وهي ان تتقل كلام أحد لآخر، حرام أيضاً، والبهتان حرام، وكل ما من شأنه أن يمس كرامة الإنسان فهو حرام وآثم من يفعله.

ومن أجل ذلك، أي من أجل أن يظل الإنسان في احترامه وكرامته وعزته، فقد حرم الإسلام رمي الناس، وقذفهم بالباطل. ووصل الإسلام في تقريره هذه القاعدة الى درجة أنه حرم معها على الحاكم أن يفتش عن باطن الناس، ويبحث عن دخائلهم ونفوسهم وإنما حدد وظيفة الحاكم أن يحكم على ظاهر الأشياء دون بواطنها.

(١) المتحفة / ٨.



يحكم على الظاهر فقط، وليس على الباطن.. بمعنى أن الحاكم هو المشرف على المجتمع والمطلوب منه أن يحفظ ظاهر المجتمع سالماً، أما الباطن فمتروك الى الله سبحانه وتعالى، بالاضافة الى أن شعائر الدين وعبادات الإسلام هي التي تتكفل بتطهير الباطن، فكما قلنا - سابقا - إن كان الدين في القلوب، وما دام مكان الدين في القلوب، فإن الدين هو الذي يطهر القلوب، وليس الحاكم.. إن الحاكم وظيفته تتمثل في تطهير ما ظهر له من الفساد، أما ما غاب عنه، فأمره الى الله تعالى، الله سبحانه يقضي بين عباده على ما في قلوبهم وما أسروه في نفوسهم وفيما كانوا فيه يختلفون..

ولكي تجيء هذه الفكرة واضحة أنقل لكم كلمة ذهبية من كلمات بطل الإسلام الخالد علي أمير المؤمنين عليه السلام وهي الكلمة التي أوصى بها مالك الأشتر النخعي القائد العام للقوات المسلحة، حين ولاه مصر وأرسله إليها والياً وحاكماً، أوصاه بهذه الكلمة التي يجب أن تكتب بماء الذهب على أستار القلوب، والتي لو طبقها الحكام المسلمون لعاشت الشعوب الإسلامية في تقدم وازدهار وفي رخاء كبير وعظيم.

يقول علي - عليه السلام - : «وليكن أبعد رعيته منك، وأشأنهم عنك، أطلبهم لمصائب الناس فإن للناس عيوباً الوالي أحق من سترها، فلا تكشفنّ عما غاب عنك منها، وإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيته».

ونقف هنا لحظات، لنستوعب ما يقوله هذا العملاق العظيم: يقول: إن الذي يبحث عن أخطاء الناس، ويفتش عن عيوبهم، ويقدم لك



التقارير عن مذاهب الناس واتجاهاتهم وميولهم، هذا الإنسان يجب أن يكون أبعد الناس عنك ومن ألد أعدائك أي أنك إذا صادفت إنساناً بهذه المواصفات التي مرت عليك فإنه من ألدّ خصومك وشائئيك فاتخذه عدواً ولا تجعله من بطانتك ومن خاصتك ولو لحظة واحدة.. إن هذا اللون من البشر إنما هو سرطان ينخر في عرش السلطان، وهو حطب ونار يوضع تحت سرير الحاكم.

إن القاعدة الأساسية تقضي بأن الناس ليسوا معصومين وليسو في عصمة من الأخطاء.. إنهم معرضون للأخطاء وللوقوع في حبائل الشيطان، ومسيرة الإنسان والناس تستدعي أن تكون لهم عيوب كثيرة لأنهم أحرار والحر لا يسلك طريقاً واحداً، فلا بد إذاً من الوقوع في الأخطاء والعيوب.

وهنا يكشف علي عليه السلام عن قاعدة جوهرية في هذا المجال ملخصها أنه إذا كان للناس عيوب فمن أحق بسترها من السلطان؟.. إن الحاكم هو أب للشعب، وأبناء الشعب أبنائه، وهل هناك أرحم وأرأف من الأب بأبنائه؟.. وهل هناك أحق من الأب بستر مصائب أبنائه؟ كلا ثم كلا. إن الحاكم الإسلامي هو أحق من ستر هذه العيوب. لذلك يقول: «فإن للناس عيوباً الحاكم أحق من سترها».

ثم يوصيه بوصية أخرى ويطلب منه فيها ألا يتتبع عثرات الناس. يقول: «فلا تكشفن عما غاب عنك منها» لأنه ليس مطلوباً من الحاكم أن يفتش قلوب الناس ويبحث عن أخطائهم وعقائدهم. أبداً إن هذا لم يكن من شأن المرسلين والأنبياء والأئمة المعصومين، فكيف بنا نحن أبناء آدم ونحن لسنا معصومين؟.



هناك بعض الدول ادّعت أنها تطبق الإسلام، والإسلام منها براء، جاءت تحت هذه المظلة ونادت بشعائر الدين، ولكنها أعطت أقبح صورة عن الإسلام لقد شوّهته بسيرتها البعيدة عن الدين والدليل على ذلك أنه في بعض البلاد الإسلامية لا يستطيع الرجل أن يمشي مع امرأة في الشارع حتى ولو كانت تلك المرأة زوجته أو أمه أو أخته أو بنته، وإذا حدث أن مشى رجل مع امرأة في الشارع فإنه يتوجب عليه - حينئذ أن يبرز هويته وهوية المرأة، ويؤكد انتساب المرأة له بشكل رسمي وشرعي، وإلا فهو يعد مخالفاً للقانون، وفي هذه الحالة يستطيع الشرطي أو المسؤول العسكري أن يعتقله ويعتقل المرأة في لحظة واحدة ويلقي بهما في أعماق السجون الى ما شاء الله وربما لن يستطيع أحد منهما أن يعود الى الحياة بعد اليوم..

وقد حدث أن كان بعض الرجال يمشي مع زوجته ولكنه لم يكن حاملاً معه وثيقة رسمية تثبت انتساب المرأة إليه، فكانت النتيجة أن سيق الزوج والزوجة الى السجن دون أن يسمحوا لهما حتى بالذهاب الى المنزل الذي لا يبعد عن الشارع الذي كانا يسيران عليه أكثر من مرمى حجر! فهل هذا هو الإسلام؟ وفي أي قانون من قوانين الإسلام، يأمر الدين بتفتيش الناس، وتكذيبهم والاعتداء عليهم؟

إنها خطة أعداء الإسلام الذين جاءوا بحكام خونة ظلمة، وزرعوهم في قلب العالم الإسلامي، كما يزرع الخنجر في قلوبنا، والشوكة في عيوننا وجعلوهم حكاماً على المسلمين ومكنوهم في رقابهم ليسيموهم الخسف والذل والهوان، وليطبقوا برؤوسهم قوانين شرائع بغيضة تحمل اسم الإسلام وذلك حتى تشمئز النفوس من الدين، وتتفر الطباع

من الإسلام، فأخذوا يطبقون كل شيء يزرع الحقد في النفوس ضد الدين وضد رجاله.. وعطلوا مناهج الله، تلکم المناهج السمحاء التي لو طبقت لعرف الناس عظمة الإسلام، وتذوقوا حلاوته.

وإذا أردت أن تتأكد من صحة كلامي هذا فما عليك إلا أن تذهب للعمرة وزيارة قبر النبي، لترى بأمر عينيك ما يجري هناك من فظائع وفجائع باسم الإسلام والإسلام منها براء.

والآن أرجع بكم الى النص السياسي الاجتماعي الذي أخذناه من علي أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يوصي به حاكماً من حكام المسلمين، أن يسير بالناس سيرة طيبة، فيقول له: «وإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك». وهنا تتحدد وظيفة الحاكم بشكل واضح ليس عليه غبار فهو يقول: «وإنما عليك تطهير ما ظهر لك» أي أن الحاكم الإسلامي مطلوب منه أن يطهر المجتمع من الظلم والفساد.

الظلم الظاهر، والفساد الظاهر، بمعنى أن الحاكم الإسلامي يجب عليه ألا يسمح لأحد أن يشرب الخمر ويجاهر بالفسق في الشارع العام وأمام الناس، ولكن ليس عليه أن يقتحم الدور والمنازل للتفتيش عن الخمر والقمار.. ليس من حق الحاكم أن يقتحم البيوت بحجة البحث عن الخمر، أو البحث عن المنكرات أبداً.

إن البيوت جعلها الإسلام في حصانة وفي مأمن وأمر ألا يدخلها أحد إلا بإذن أهلها حتى ولو كان ذلك الأحد هو الحاكم الإسلامي نفسه.

يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ (١).

على أن الإسلام جعل البيت في حصانة إسلامية وسمى الأسرة حصناً حصيناً، وصار الانتساب إلى الأسرة يؤدي إلى الحصانة، فالمرأة المتزوجة محصنة لأنها تنتمي إلى هذا الحصن الذي نسميه الأسرة، والرجل المتزوج محصن بسبب انتمائه وانتسابه إلى الأسرة المحصنة بحصان الإيمان وبالحصانة الإسلامية التي تجعل للأسرة حرمة وكرامة وعزة، واحترام، وبموجب هذه القاعدة فالإسلام يمنع كل تجاوز أو تهديد يوجه إلى الأسرة تحت أي عنوان كان.

بل أكثر من ذلك حتى إذا علمت أن هناك فاحشة تجري في أسرة معينة، فإنه ليس من حَقِّك، ولا من حق الحاكم الإسلامي أن ينشر هذه الفاحشة ويذيع بها بين الناس.

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

من أجل ذلك كتب الإمام علي عليه السلام إلى مالك يرشده إلى وظيفة الحاكم، ويبين له معالم الطريق حتى لا يضل ولا تذهب به المذاهب في كل اتجاه.

أجل: إنه يحدد وظيفة الحاكم بقوله: «وإنما عليك تطهير ما ظهر

(١) النور/ ٢٧.

(٢) النور/ ١٩.

لك، والله يحكم على ما غاب عنك». ولعمري إنه لمنهج ينسجم مع الفطرة تمام الإنسجام.. فالفطرة تقضي بذلك والعقل يقضي أنه ليس من الحكمة أن نجعل الرقابة على بيوت الناس وعلى قلوبهم، وإنما الناس أحرار في تصرفاتهم ما لم يقع ضرر على الآخرين، وإذا وقع ضرر على أحد فذلك ظلم يجب الوقوف ضده، على أن الضرر حين يقع على أحد وحين يعتبر ظلماً فإنما هو من الأمور التي تجري في الظاهر وليس في الباطن، ورفع الظلم في هذه الحالة إنما هو مصداق لوصية الإمام علي عليه السلام التي يقول فيها : وإنما عليك تطهير ما ظهر لك منها، وأما ما غاب عنك فاتركه الى الله.. أو وفقاً للنص «والله يحكم على ما غاب عنك» ومن هنا نجد الإسلام يمنع القذف وهو أن ترمي أحداً بريئة أو بهتان أو فحشاء.

يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

وفي آية ثانية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

على أن هذه الآية الكريمة قد جاءت بصلة الحكم وهي نزول اللعنة على الناس الذين يسعون في إشاعة الفحشاء بين الآخرين، ونشر الفضائح بين صفوف الجماهير.

(١) النور/ ٤.

(٢) النور/ ٢٣.

* الزهراء تكشف عن نظرية الإسلام في مسألة القذف:

وقد كشفت الصديقة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - عن هذه الحقيقة في خطبتها وذلك في معرض طرحها للأحكام الإسلامية والقوانين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. أقول: في معرض كلامها ذكرت هذه الحقيقة وكشفت عنها حينما قالت: «وجعل الله سبحانه وتعالى - اجتناب القذف حجاباً عن اللعنة».

والقذف في - اللغة - معناه رمي الناس الأبرياء بالريبة والفحشاء.

تقول: قذف يقذف قذفاً وقذف الرجل، إذا رماه واتهمه بريئة.. رماه بفاحشة، قذفه بتهمة.. والقذف بالقول: هو الغوغائية في إطلاق اللسان في الناس دون تدبر ولا تعقل.. على أن القذف بالقول: أي تكلم من غير تدبر ولا تأمل. قالت: «واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة». وفي نسخة أخرى: واجتناب قذف المحصنات، ولكن الأولى أو التعبير الأول أجمع وأشمل، لأن القذف لا يخص المرأة دون الرجل، وإنما هي تهمة يمكن إطلاقها على المرأة كما يمكن إطلاقها على الرجل، ومن تتبع الأثر والتاريخ يجد أن القذف يأتي للمرأة وللرجل على حد سواء، أو يقع على الإنسان من حيث كونه إنساناً ذكراً أم أنثى.. لا فرق في ذلك.

ومن هذا يتبين لنا كم هي عظيمة وكبيرة هذه الحقيقة التي كشفت عنها الزهراء في خطبتها، فهي تقول في صراحة ووضوح ما مفاده: إن الإسلام يأمر بحفظ كرامة الإنسان، ويجعل عقوبة لكل اقتحام أو تجاوز لهذه الكرامة فكل من يريد أن يقتحم هذا الحصن المنيع أو يحاول المساس بكرامته وعفته، فإن الإسلام اعتبر هذا الاقتحام جريمة يعاقب عليها القانون الإسلامي في الدنيا والآخرة.



في الدنيا الجلد.. وفي الآخرة النار.. ثم هناك عقوبة أخرى تجيء مع هذه العقوبة السالفة، ويمكن أن نطلق عليها أنها عقوبة نفسانية أكثر منها بدنية، فإن عقوبة البدن الجلد، والدخول في النار، ولكن هذه العقوبة الثانية هي نزول اللعنة على الذي يشيع الفاحشة ويقذف النساء، ويرمي الأبرياء بريبة أو تهمة.

اللعنة في الدنيا واللعنة في الآخرة.. واللعنة هي الخروج من رحمة الله، أو الطرد من رحمة الله تعالى.. وبتعبير آخر أكثر دقة، إن الذي يرمي الناس لا تتاله رحمة الله أو أنه لا يستطيع أن يستظل بظل رحمة الله تعالى.

إن رمي الناس بالفجور، وقذفهم بالفحشاء والمنكر ليس أمراً هيناً كما نحسبه، وكما يبدو للبعض، وإنما هو جريمة في غاية الخطورة: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^(١).

وانطلاقاً من هذه القاعدة فإن الذي لا يتتبع عورات الناس، ولا يفتش عن أخطاء الآخرين، يكون محجوباً عن اللعنة، أي أنه في مأمن من نزول اللعنة، وإنما هو في مقعد صدق عند مليك مقتدر، بخلاف الذي يلهث وراء أخطاء الناس، ويتصيد نقاط الضعف في الماء العكر، ويريد أن يهتك حرمة الناس، ويسعى في إذلال الآخرين، هذا الإنسان إنما هو في ظل لا ظليل من اللعنة والعذاب. إن اللعنة تطارده في قيامه وقعوده، وفي يقظته ومنامه.

وقد جعل الإسلام قانوناً من قوانين العقوبات، لمن يرمي الناس

(١) النور/ ١٥.

بالريبة ويقذفهم بالفحشاء، جعل الإسلام له قانوناً يقضي بعقوبته التي تتمثل بضربه ثمانين سوطاً يجلد في غير رقة ولا رافة.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

ويقول في آية ثانية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢).

وعندما تقول الصديقة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - : «واجتتاب القذف، حجاباً عن اللعنة» أي أن الله تعالى جعل اجتتاب القذف حجاباً يصد نزول اللعنة، حجاب غليظ لا يخترقه شهاب ولا سهم.. أقول: عندما تقول الزهراء ذلك، فإنها تكشف عن نظرية الإسلام في مسألة القذف، ورمي الناس بالباطل. على أن الشيء اللافت للنظر، هنا، هو: أن فاطمة ذكرت القذف في خطبتها ولم تتعرض لذكر الزنا لا من قريب ولا من بعيد، وذلك مما يقتضيه المقام، ويلح عليه مقتضى الحال، وهذه ملاحظة لا تغيب عن بال القارئ، وكلما كان الفهم أعمق كان الاستيعاب أشمل، والنفع أكبر.

والذي يدرس خطبتها بدقة وإمعان، يجد أن الزهراء لم تأت على ذكر شؤون المرأة الخاصة - في خلال خطبتها وعرضها لأحكام الإسلام - مثل مسائل الزواج والطلاق، والحيض والنفاس والرضاعة..

(١) النور/ ٤.

(٢) النور/ ٢٣.

وكل ما له علاقة بالفاحشة وخصوصا الزنا، أقول: لم تكن فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - قد تعرضت في خطبتها لذكر شؤون المرأة الخاصة، وذلك لأن المقام كان يقتضي ذلك أي يقتضي عدم ذكر هذه الأمور التي لها علاقة بالنساء.. ومن جملتها مسألة الزنا.. فالصديقة الطاهرة - سلام الله عليها - لم تذكر الزنا في خطبتها علماً بأنه من المحرمات في الإسلام، وهي كانت قد ذكرت الواجبات والمحرمات في الإسلام في أثناء خطابها العظيم، وذكرت الأحكام الإسلامية وفلسفة الإسلام وعلل الأحكام، ولكنها حينما جاءت الى ذكر الزنا أعرضت عنه ولم تذكره، وإما ذكرت القذف عوضاً عن الزنا.. وأنا أقول هذا الكلام وأبدي هذه الملاحظة بعد بحث دقيق في التاريخ وفي روايات خطبتها بحيث كانت النتيجة أنه لم يرد ذكر الزنا في خطبتها أبداً، والرواية التي تذكر الزنا ضمن خطبة الزهراء وجدناها رواية ضعيفة لا تقف على أرض صلبة، ولا تستند الى دليل يدعمها.

على أن الذوق الإسلامي العظيم الذي يتمتع به أهل البيت في طرح القضايا وعرض شؤون الساعة التي يعيشها الناس، كان يستدعي عدم ذكر الزنا وأمثاله من كلمات الخنا والفحش، وإنما استعاضت عن كلمة الزنا بكلمة القذف لأنها جامعة وشاملة ولأنها تبين عظمة الإسلام في محافظته لحقوق الناس أكثر من كلمة الزنا، وموضوع السفاح، لأن كلامها ليس في معرض مايشين وإنما في معرض ما يزين.. وليت لي قلاماً قوياً يستطيع أن يعبر عما في خاطري حول هذه الفكرة بالذات، وحول إعراض الزهراء عن مثل هذه الكلمات، ولكن الذي سطرته هنا يكفي لكشف الحقيقة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.



وقد تقول - أيها القارئ - إن مسألة الزنا هي مسألة كشف حكم إسلامي وليس فيها شيء بغيب، فلم أعرضت عنها الزهراء؟

وأجيبك في محبة: أن مسألة ذكر الحور العين مسألة كشف حقيقة وحكم إسلامي، ولا يمكن أن نتصور جنة من دون حور عين، ولكن مع ذلك كله فقد نزلت سورة الدهر تتحدث عن كل ألوان النعيم في الجنة إلا الحور العين، وهي مسألة واضحة لمن يقرأ سورة الدهر أو سورة الإنسان، فإنه يجد أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر كل أنواع النعيم في الجنة، ما عدا الحور العين، فإنه لم يذكر الحور العين في هذه السورة بالذات، في حين أن أكثر سور القرآن تذكر الحور العين عندما تتحدث عن نعيم الجنة باستثناء سورة الدهر، فإنها السورة الوحيدة التي تركت ذكر الحور العين وذلك كرامة واحتراماً لفاطمة الزهراء - سلام الله عليها - لأن السورة نزلت في فاطمة وبعلاها وبنيتها كما هو معروف ومشهور في قصة إطعام الطعام للمسكين واليتيم والأسير: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا^(١) إلى آخر السورة.

أقول: فكما أن الحال كان يقتضي عدم ذكر الحور العين في سورة الدهر، رغم أن الحور من قوانين الله وأحكامه، وذلك كرامة لفاطمة، كذلك كان الحال يقتضي عدم ذكر اسم الزنا والفاحشة في خطبة الزهراء رغم أنها من أحكام الله، وذلك كرامة لمقام فاطمة ووقوفها بين الرجال في المسجد، لأنها دخلت المسجد وكان محتشداً بالرجال،

(١) الإنسان / ٨ و ٩.



فضريت ستاراً، أو أن القوم ضربوا حجاباً بينها وبينهم كما تقول الرواية: فنيطت دونها ملاءة وهي ستر يُضرب عادة في المساجد ليفصل بين الرجال والنساء، أقول: مع أن المجلس كان محتشداً بالرجال الذين كانوا يتشوقون لسماع ماستقول، لكن في الحقيقة كانت توجه كلامها للخليفة والناس مجتمعون حوله من المهاجرين والأنصار، هي تثير همهم بكلامها، وتشعل الحماس في نفوسهم ولكن دون جدوى..

ومهما يكن من أمر، فإن الحقيقة الواضحة أمامنا، هي أن الزهراء إنما تركت ذكر الزنا - على الرغم من أنه من المحرمات التي ذكرتها في خطبتها - وأبدلته بالقذف، وذلك لأن المقام من الناحيتين كان يقتضي ذلك: من الناحية الفكرية في الإسلام، ومن ناحية حال موقفها في المسجد وسط الرجال.

أما الناحية الفكرية الإسلامية فهي أن ذكر القذف يكفي عن ذكر الزنا وغيره، وذلك أن القذف أشمل وأعم من الزنا أولاً، وأوقع في النفوس ثانياً لأنه في معرض حقوق الإنسان والدفاع عنها في حين أن الزنا هنا ليس له علاقة بحقوق الإنسان ولا الدفاع عنها.

وأخيراً أترك المسألة تتفاعل في ذهنك أكثر فأكثر أيها القارئ العزيز وكلما أعمت النظر في هذا المضمار أخذت فائدة أكبر، ونفعاً أعظم.



تسبيح الزهراء العليّة:

رحلة في عالم الكمال والرفي

في تسبيح فاطمة، يلتقي الإنسان بأسرار الكون، ويعيش مع الطبيعة، في انسجام عميق، ووثام تام.. حيث الكل يؤدي صلاة واحدة، ويقف في صف واحد، ويشترك في موكب واحد.

- فالذرة تسبح الله وتمجده.

- والخلية لا تفتر عن التسبيح أبداً.

- والقلب يسبح الله في كل نبضة من نبضاته.

- والهواء يشترك مع الأشجار في التسبيح.

والرعد يسبح بحمد الله قبل أن تتقضى صواعقه على الأرض.. وإذا خرجنا من الأرض، فإننا نجد النجوم الغارقة في أعماق الفضاء لا تسأم من التسبيح مطلقاً.. بل نجد أن الكائنات كلها تشترك في عملية التسبيح هذه.

وبالتالي، فالطبيعة حين تدور بأفلاكها، فإنها تسبح الله - هي الأخرى - وتقده.



الحركة تابعة للهدف

إن الجندي حين يمشي في مهمة عسكرية، يمضي الى غايته قدماً لا يعرج على شيء ولا يلتفت الى شيء. ولكن السائح يسير متمهلاً ينظر يمينه ويسرة، فإن رأى منظراً عجيباً وقف عليه، وإن أبصر شيئاً غريباً صورته، وإن مرَّ بأثر قديم سأل عن تاريخه، فيكون له من سيره متعة، ويكون له منه منفعة، ويقول: وأنا لا أحب - في هذه الذكريات - أن أمشي مشية الجندي، بل أسير مسيرة السائح. إذن فالغاية تحدّد حركة الإنسان، فكيف تكون الغاية تتبعها الحركة.. وذلك أن هناك توافقاً قوياً بين الهدف والحركة. ونستطيع أن نتبين ذلك حتى من خلال طريقة المشي، من خلال مشية الناس. وبالمثل! فمشية الجندي، تختلف عن مشية السائح، لأن لكل واحد منها هدفاً يختلف عن الآخر، فمشية الجندي، مشية سريعة لا يلوي على شيء بها، لأن هدفه مهمة عسكرية يريد انجازها، في حين أن مشية السائح بطيئة لأنها توافق هدف السائح وغايته، وبذلك كانت صفة المؤمنين: الذين يمشون على الأرض هوناً: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾^(١).

لماذا كل ذلك؟ لأن المشية يجب أن توافق الهدف، فليس هدف المؤمن هو ضرب الناس، وإنزال الدمار فيهم حتى يمشي في الأرض مرحاً أو

(١) الإسراء / ٣٧.



مختالاً، وإنما غاية المؤمن هي نشر الرحمة بين الناس، والمحافظة على الأمن، والطمأنينة، ونشر السلام بين أفراد المجتمع، وهذه تقتضي أن تكون مشيته هوناً، وليس خرقاً. ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (١).

(١) الفرقان/ ٦٣ و ٧٢.

الكون مخلوق لحكمة فلا تفسدوها

يقول القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (١).

انظروا الى آثار رحمة الله.. كيف يحيي الله الأرض بعد موتها.. انظروا.. كيف تتزاحم النعم على الإنسان من كل صوب ومكان. يقول الإمام علي - عليه السلام - لكميل بن زياد: يا كميل إنك لا تخلو من نعمة الله عزوجل عندك وعافيتك، فلا تخل من تحميده وتمجيده، وتسبيحه، وتقديسه وشكره وذكره على كل حال» (٢).

ويقول في أول خطبة له في نهج البلاغة: الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصى نعماء العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون كل شيء في هذا الكون إنما خلقه الله لحكمة، وجعل له غاية يجري لها في عناية فائقة. ولكن أحياناً يتدخل الإنسان فيفسد تلك الحكمة، ويبدل الغاية، من النعمة الى الكفر.. ومن الصلاح الى الفساد، ومن الخير الى الشر.. وذلك أن الله سبحانه قد أعطى الإنسان قدرة

(١) إبراهيم/ ٣٢ - ٣٤.

(٢) بحار الأنوار ٢٧٣/٧٧ التفسير المعين ص ٢٦٠ سورة إبراهيم.

يستطيع بواسطتها أن يغير ما يجري حوله من أشياء، ويبدل ما يحيط به من الآلاء والنعم. على أن القرآن صريح في هذا المجال. حيث يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ..﴾.

أي أن الله سبحانه قد سخر كل شيء في هذا الكون في خدمة الإنسان.. وسخره أي جعل في طواعية الإنسان بحيث يستطيع أن يوجهه نحو البناء، أو نحو الهدم. فالطاقة الشمسية يمكن أن توجه نحو البناء.. ويمكن أن توجه في سبيل الهدم والدمار.. تماماً كما أن الطاقة الذرية يمكن أن تبني المجتمعات، ويمكن أن تمزقها.. وهكذا كل طاقة في الكون يستطيع الإنسان أن يصرفها في البناء إذا كان صالحاً، وفي الفساد إذا كان غير صالح. وبالمثل: طاقات النفس، فإننا نجد أن كل واحدة منها إنما خلقها الله لغاية وأعطاهها وظيفة خاصة بها، فإذا تدخل الإنسان وبدلها من وظيفتها إلى وظيفة أخرى ضد هدفها. فإن ذلك يعني الدمار، والضياع.

إذن: فكل طاقة في الإنسان إذا وجهت نحو هدفها، وأعطت ثمارها، كانت فضيلة، بينما إذا تحولت عن هدفها عادت رذيلة، فما الفضيلة والرذيلة إلا توجيه الطاقة في داخل النفس.

إن الله شحن النفس بالطاقة وترك مسألة التوجيه بيدك أنت.. فإذا سارت في النور كانت فضيلة تشع في الخير والعطاء، وإذا تعثرت في الظلام، باتت رذيلة تفوح منها رائحة الإخفاق والفشل.

النعمة، هي عطية، ومنحة وهدية من الله للإنسان. غير أن الإنسان

- في الأغلب - يبدل النعمة كفراً والخير شراً.. وللتوضيح أقول: الغرائز تكون نعمة حينما تمشي في طريق النور والهواء الطلق فتذهب كل الى غايتها، كذهاب غريزة الجنس الى الزواج.. وغريزة حب الخير الى جمع المال من الحلال، وغريزة المعرفة تذهب الى طلب العلم.. وهلم جراً.

أما إذا تغيرت الحال، وصارت غريزة الجنس تسرق اللذة في الظلام، ووراء الجدران، وغريزة حب الخير انطلقت في السلب والنهب والسرقة.. وغريزة المعرفة سارت في طرق ملتوية لا نور فيها، ولا هواء، أقول: أما إذا تغيرت الحال بالنسبة لغرائز المرء، فإن دماراً رهيباً ينتظره في حياته.

لأهمية التذكير بنعمة الله وآلائه نجد القرآن الكريم، في أغلب سورة ينبه الناس إلى آثار رحمة الله، وآلائه، ونعمه.. حتى أن القرآن قد أفرد سورة كاملة في هذا المجال، وهي سورة الرحمن التي تتحدث عن آلاء الله ونعمه وآثار رحمته في كل آياتها وفصولها.. وتبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾.

على أن الشيء الملفت للنظر في هذه السورة، هو تقديم القرآن على خلق الإنسان، حيث يقول: الرحمن علم القرآن خلق الإنسان!.

والسؤال هو: لماذا قدم القرآن على خلق الإنسان؟ أما الجواب فهو: بما أن سورة الرحمن هذه نزلت تتحدث عن نعم الله وآلائه على

(١) الرحمن/ ١ - ٤.

الإنسان.. وبما أن القرآن الكريم هو أكبر نعمة، وأعظم رحمة نزلت من الله على البشر كافة، فلذلك قدم القرآن في السورة على كل شيء.. يضاف الى ذلك أن سورة الرحمن بدأت بكلمة: الرحمن علم القرآن.. وإنما بدأت بالرحمن لأنها جاءت تستعرض كل معالم رحمة الله سبحانه وتعالى. زد على ذلك أنه لولا القرآن الكريم، لما كان لوجود الإنسان وخلقه معنى في الحياة.

هذا من ناحية القرآن.. أما من ناحية أهل البيت - عليهم السلام - فقد تركوا لنا تراثاً عظيماً من الأدعية والمناهج الفكرية.. ففي أدعية أهل البيت - وهي التي تشكل واحداً من أكبر أعمدة الفكر في الإسلام - نجد أنهم أولوا هذا الجانب، جانب التذكير بآلاء الله ونعمه، أولوه وأعطوه عناية فائقة، فما من دعاء إلا وفيه تركيز بالغ، وتذكير عميق على هذا الجانب وفي هذا المجال.. حتى أن الإمام موسى بن جعفر - صلوات الله وسلامه عليه - كان قد خصص دعاءً مستقلاً في هذا المضمار، واطلق عليه اسم: دعاء الجوشن الصغير.. وكل فصول الدعاء تدور حول كيفية تذكير الناس بآلاء الله، ونعمه، وكيف يشكرون الله سبحانه وتعالى. وقد رد في كل مقطع من الدعاء المذكور العبارة التالية: اللهم صل على محمد وآل محمد واجعلني لنعمائك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين.. وارحمني برحمتك يا أرحم الراحمين».

احمدوا الله فنعمه لا تحصى

الحمد لله على ما أنعم.. وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدم. الحمد، والشكر، والثناء، هي بمجموعها ثلاث كلمات، لكنها تعطي التعبير كله، وتشكل العلاقة التي تربط الإنسان بالله سبحانه وتعالى.. فالإنسان المؤمن الفطن هو الذي يحمد الله ويشكره، ويشني عليه كثيراً، ويسبحه بكرة وأصيلاً. ولكن لماذا الحمد، والشكر، والثناء لله؟.. وهل هناك من سبب وجيه يجعلنا نقطع هذه الرحلة في رحاب الحمد، والشكر والثناء؟ يفتح الواحد منا عينيه، حين يفتحها على الحياة، فيرى نفسه غارقاً في شاطئ الآلاء والنعم.. بحيث لا يكاد يدخل في نعمة، حتى تفاجئه نعمة أخرى أكبر من أختها.. وهكذا يظل الإنسان يتنقل من نعمة الى نعمة، ومن ثناء جميل الى ثناء أجمل طوال الحياة.

فأكبر نعمة أنعمها الله علينا، هي نعمة الإيمان والهداية.. ونعمة الأمن، والطعام.. بالإضافة الى نعمة الصحة والعافية وسلامة الحواس، والأعضاء في البدن.. ولكن لماذا تراني أعد عليك نعم الله وهل يستطيع إنسان مثلي أن يحصي نعمة الله؟ لا أظن ذلك ممكناً أبداً.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

فلو جئنا بأكبر العقول الالكترونية وطلبنا منها أن تقوم بإحصاء دقيق لآلاء الله ونعمه، لما تمكنت من ذلك أبداً.. وأنى لها بذلك ونعمة الله مساوية لعظمة الله، وهل أحد فينا يستطيع أن يصل الى معرفة عظمة الله؟.



بالتأكيد لا.. غير أن هذا لا يمنعنا من إلقاء نظرة محدودة على ما يقع تحت أبصارنا من آثار رحمة الله سبحانه وتعالى.

ولنبداً بها، قدر المستطاع، واحدة، واحدة:

١ - الطفل يقبع في بطن أمه ضمن أغطية ثلاثة: واحد عازل للصوت، والثاني عازل للحرارة، في حين أن الثالث عازل للضوء.. وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة العلمية في آية كريمة من آياته المباركة يقول فيها ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (١).

والظلمات الثلاث، معناها الأغطية الثلاث التي تزلّ الجنين في الرحم. غطاء عازل للصوت، بغية نمو حاسة السمع بشكل جيد، وتحسباً من حدوث تمزق في طبلة الأذن عند الجنين، وهي في العادة طبلة ناعمة رقيقة لا تستطيع استقبال أي صوت ولذلك جعل الله في قرار مكين حماية لها من التشقق والتمزق.. ثم يجيء الغطاء الثاني وهو الغطاء الذي يعزل الحرارة عن بدن الجنين الناعم.. ولولا هذا الغطاء لما تمكن الجنين من النمو داخل الرحم.. أما الغطاء الثالث، فهو الغطاء الذي يعزل الضوء، عن الطفل وذلك لكي تنمو عيناه بشكل جميل ومنسق.

إن عيون الجنين، لا قدرة لها على استقبال الضوء بالمرة، ولهذا جاءت أهمية هذا الغطاء العازل لقوة الضوء، حتى يستطيع جهاز البصر من إكمال مشواره في عين الجنين!

وقد أكد العلم الحديث بالأرقام التي لا غبار على حقيقتها أن حواس الطفل - لولا هذه الأغطية الثلاثة - لما استطاعت أن تشق طريقها في الحياة!

(١) الزمر/٦.

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة قبل العلم الحديث بأكثر من ألف عام حينما قال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١) ﴾.

وفي آية ثانية، يتحدث القرآن الكريم عن مراحل النمو التي يتدرج عليها الجنين في بطن أمه فيقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (٢) ﴾.

ومن عجيب صنع الله تبارك وتعالى، أن جعل الجنين، يستمد غذاءه من المشيمة وهي عبارة عن جهاز كامل لإعداد الطعام الذي يحتاجه الجنين.. والمشيمة هذه تمتد الجنين بالغذاء عن طريق الحبل السري الذي طوله ٥٠ سنتمتراً فقط بحيث لا يزيد ولا ينقص، فلو زاد على الخمسين لارتخى والتف على رقبة الطفل وخنقه، وهنا يمكن الخطر إذ إن موت الجنين في بطن أمه يشكل أكبر خطر على حياة الأم ولكن بنعمة من الله ورحمة جعل الحبل السري المذكور مقدراً بمسافة لا تضر الطفل ولا تضر الأم بأي حال من الأحوال.. وكما في طول الحبل كذلك في قصره، فلو كان الحبل السري ٤٠ سنتمتراً بدل الخمسين، لما استطاع الجنين أن يتحرك في بطن أمه، علماً بأن حركة الجنين في أحشاء الأم تجعلها في قمة السعادة، وتصب في صدرها شلالاً من

(١) البلد / ٨ - ١١.

(٢) المؤمنون / ١٢ - ١٤.

النشوة والانشراح، وهذا بحد ذاته يعتبر عاملاً مساعداً على تعميق علاقة الأم بطفلها، وهو لا يزال جنيناً في أحشائها. والسؤال هو: هل استطاع الإنسان أن يعرف قدر هذه النعمة، نعمة الخلق.. ونعمة الإفاضة الربانية عليه وهو في بطن أمه؟.

هل قابلها بالشكر لاتمامها؟ يقول الإمام علي بطل الإنسانية الخالد عليه السلام مشيراً بكلامه الى هذا الجانب في حياة الإنسان - يقول: «أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام، وشغف الاستار، نطفة دهاقاً، وعلاقة محاقاً وجنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً، ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، ويقصر مزدجراً، حتى إذا قام اعتداله، واستوى مثاله، نفر مستكبراً، وخبط سادراً، ماتحاً في غرب هواه، كادحاً سعياً لدنياه، في لذات طريه، وبدوات أربه، ثم لا يحتسب رزية ولا يخشع تقية، فمات في فتنه غريراً، وعاش في هفوته يسيراً، لم يفد عوضاً، ولم يقض مفترضاً، دهمته فجعات المنية في غير جماحة، وسنن مراحه، فظل سادراً، وبات ساهراً في غمرات الآلام، وطوارق الأوجاع والأسقام، بين أخ شقيق، ووالد شفيق، وداعية بالويل جزعاً، ولادمة للصدر قلقاً، والمرء في سكرة ملهثة، وغمرة كارثة، وأنة موجعة، وجذبة مكربة، وسوقة متعبة، ثم أدرج في أكفانه مبلساً، وجذب منقاداً سلساً، ثم ألقى على الأعواد رجيع وصب ونضو سقم، تحمله حفدة الولدان، وحشدة الإخوان الى دار غربته، ومنقطع زورته ومفرد وحشته، حتى إذا انصرف المشيع، ورجع المتفجع، أقعد في حضرتة، نجياً لبهتة السؤال، وعثرة الامتحان.. وأعظم ما هنالك بلية، نزول الحميم، وتصلية الجحيم، وفورات السعير، وسورات الزفير، لا

فترة مريحة ولادعة مريحة، ولا قوة حازجة ولا مودة ناجزة، ولا سنة
مسلية بيت أطوار الموتات، وعذاب الساعات إنا بالله عائدون».

ولو جمعنا كل عباقة الأدب، وحملة الفكر في العالم، على أن يأتوا
بمثل هذه اللوحة الفكرية الرائعة التي يصور فيها الإمام علي عليه السلام
يصور بداية الإنسان ونهايته،.. منشأه ومعاده.. تصويراً دقيقاً وبالغاً
في الحكمة،.. أقول: لو جمعنا كل حملة الفكر، وأصحاب العقول،
وأرباب الأقلام والآداب، على أن يخطوا لنا بأقلامهم مثل ما خطه علي
بيمينه، في هذه الرائعة - حول رحلة الإنسان التي يقطعها من
الأرحام، إلى القبور، لما تمكن أحد منهم من ذلك، ولما استطاع أحد
منهم أن يبلغ معشار ما بلغه الإمام علي في هذا المضمار.

فما أروعك يا قائد الكلمة، ويا إمام العلم والفكر والأدب.. ما
أروعك وأنت تملي على الأجيال صحف الفكر والوعي، والرشد
فتمنحهم النور والعلم والعبقرية، وتشعل في أعماقهم قناديل الإيمان،
وتربي فيهم الضمير والوجدان. ولقد كانت الأجيال، وما زالت وستظل
تتهل من معينك الغني، ومن نبعك الطاهر العميق، ما تحتاجه وقوداً
في مسيرتها الطويلة.. وطعاماً ذا مذاق شهى تتغذى به.. بل تغذي به
روحها، وعقلها، وفكرها، ونفسها.. وذلك بأن البشرية في ظمأ وعطش
وجوع لفكرك يا علي، يا إمام المتقين، وقائد الغر المحجلين.

ولكي تبدو الصورة أكثر وضوحاً، فإنه لابد لنا من معرفة واستيعاب
ما خفي علينا من كلمات الإمام علي أمير المؤمنين - صلوات الله
وسلامه عليه - فحينما نلقي نظرة صائبة على هذه اللوحة نجد الإمام
يشير إلى الإنسان بقوله: أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام، أي

أن الله سبحانه أنشأ هذا الإنسان في ظلمات الأرحام، وهي الظلمات التي مرت بنا قبل لحظات وكان القرآن قد أشار إليها في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

ثم يتابع الإمام قوله: وشغف الاستار أي أن الله سبحانه، خلق الإنسان وأنشأ في ظلمات الأرحام، وشغف الاستار، والشغف جمع شغاف - على وزن سحاب وسحب - وهي في الأصل غلاف القلب، ولكن الإمام علياً، يقصد بها - هنا - المشيمة وذلك من باب الاستعارة.

ثم يتدرج الإمام علي في خلق الإنسان، بدءاً من النطفة والعلقه، ومروراً بطور الجنين وانتهاء بكون الطفل رضيعاً، ووليداً، وشاباً يافعاً، في مطلع العمر، وعنقوان الشباب والمراهقة. ثم يتحدث الإمام عن الإنسان حينما يستوي مثاله أي بلغ حده من النماء، فلم يعد ينمو له عضو في بدنه، وهذه المرحلة تكون عندما يقارب الواحد منا، الثلاثين من العمر حيث يأخذ كل عضو فيه حجمه الطبيعي واعتداله الفطري. وذلك بعد أن منحه الله سبحانه وتعالى قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، من أجل أن يستوعب الأمور، ويفقه الحياة.. ليفهم معتبراً، ويقصر مزدجراً... ولكن الإنسان، - مع شديد الأسف - ينفر مستكبراً، ويمشي في الأرض مرحاً، حتى ليخيل إليه أنه يستطيع أن يخرق الأرض، ويبلغ الجبال طولاً. ذاهباً في إرواء رغائبه، لا يحتسب رزية، ولا يفكر في وقوعها. مغروراً لا يخشع قلبه لذكر الله، ولا يخاف الله رب العالمين.

وهكذا عاش الإنسان الغافل عن هدفه وغايته، عاش في هفوته، أي في أخطائه، وخطيئاته التي نشأت بفعل الخطأ في تقدير العواقب..

حتى هجم عليه هادم اللذات، ورمته قسي الفناء بنبال الموت، فأصبحت الديار منه خالية، والمساكن معطلة، وورثها قوم آخرون.

ولاشك أن كلمات الإمام علي أمير المؤمنين، هذه تهزنا من الأعماق، لنبصر طريقنا، ونعرف كما هي عظيم نعم الله علينا، وكم هي كبيرة وجميلة الاء الله على العباد، فليعتبر معتبر، وإلا فلا يأمن الهلاك والدمار. وفي سورة النحل، يطلع علينا القرآن الكريم بقائمة مضيئة يعدد فيها بعض نعم الله علينا، فيقول: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازٍ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ (١).

(١) النحل / ٥ - ١٨.



هذا ويطلع علينا القرآن الكريم، مرة ثانية، بحزمة مضيئة من الآيات الكريمة في سورة إبراهيم، وهي تتحدث عن نعم الله وآلائه في قائمة مشرقة ليس في الإمكان إحصاؤها، ولا الإحاطة بها، غير أن القرآن يقدم لنا شيئاً يسيراً من نعماء الله لنكون من الشاكرين، ونحمد الله رب العالمين.

يقول الحق سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (١).

وحيثما نمعن النظر، ونتأمل في كلتا السورتين: سورة النحل، وسورة إبراهيم نجد أن كل سورة منهما، قد أعطيتا لوحة من نعم الله وآلائه غير أن الشيء الملفت للنظر والجدير بالانتباه، هو أن كل سورة ختمت خطابها بكلمة تختلف عن أختها في السورة الثانية.. فمثلاً سورة إبراهيم قالت: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. في حين أن سورة النحل قالت: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، ولكنها ما قالت: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وإنما قالت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) إبراهيم/ ٣٢ - ٣٤.

فلماذا إذن: هذا الاختلاف في السورتين.. فبينما ختمت سورة إبراهيم حديثها بظلم الإنسان وكفره.. نجد سورة النحل قد ختمت حديثها برحمة الله ومغفرته!! والمقابلة رائعة ومعقولة، فما دام الإنسان ظلوماً وكفاراً، فلا بد أن يقابله خالق غفور ورحيم.. لأنه لا يريد ظلماً للعباد، ولكن العباد أنفسهم يظلمون. فمهما كان الإنسان عنوداً، وكنوداً، وناكراً لأنعم الله فإن الله يقابله بالعفو، والصفح والمغفرة حتى يرجع الإنسان الى ربه، ويعتذر إليه.. أما إذا ركب الإنسان رأسه، وأدار للحق ظهره، فإن الله له بالمرصاد ولن يفلت من العقاب أبداً.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (١).

ويقول الإمام علي عليه السلام: «ولئن أمهل الظالم فلن يفوته أخذه، والله له بالمرصاد» إذن: فجحود النعمة، هو ظلم وكفر لنعمة الله.

(١) إبراهيم/ ٤٢.

في قول الزهراء عليها السلام

« وله الشكر على ما ألهم »

يفتح الطفل عينيه فيرى ألواناً مختلفة، ثم يصغي بأذنه، فيسمع أصواتاً مختلفة، ثم يشم روائح مختلفة، ويلمس أجساماً مختلفة، ويتذوق أطعمة مختلفة.. وذلك بعد ولادته مباشرة حينما تبدأ حواسه الخمس بالعمل والتكيف مع الحياة.

الطفل يلتقم الثدي فيذوب رقة وحناناً على صدر أمه.

ويمارس امتصاص اللبن، وكأنه يعرفه منذ عشرات السنين.

وأكثر من ذلك، فالطفل ليس فقط يشرب اللبن من ثدي أمه، بل وأيضاً يبحث في وجهها عن نفحات العطف، والحنان.. حتى إذا كانت الأم في حالة انزعاج، فإن الطفل يلوذ بالبكاء، ويعبر عن رفضه لهذه الحال بالصراخ والدموع!...

على أن أغلب النساء لا يلتفتن الى هذه الناحية، فتري الأم تتعجب من بكاء ولدها بينما هي تعطيه الحليب الذي يحتاجه، فتقول له: لمَ البكاء يا بني؟.. هذا حليب يتدفق في فمك سائغاً، لذيذاً فلماذا إذن البكاء؟..

ولو استطاع الطفل أن يكلمها لقال لها بلسان فصيح: يا أماه أنا لست أبحث عن الحليب وحده، ولكنني أبحث عن الحنان، والعطف

والمودة. هذا من جانب، ومن جانب آخر، نجد الطفل إذا شعر بالجوع يبكي.. وإذا شعر بالعطش يبكي، وحينما يحس بالخوف نتيجة ابتعاد الأم عنه، يبكي أيضاً.. وفي لحظة الفرح والسرور يضحك، وعندما يشعر بالطمأنينة يهدأ ويبتسم!.. والسؤال هو: من الذي أعطى الطفل القدرة على التمييز؟ ومن الذي ألهمه هذه المعلومات الفطرية الدقيقة؟..

الجواب: ببساطة.. أن كل ذلك إنما هو إلهام من الله سبحانه وتعالى.. فإن الله قد ألهمنا علوماً ومعارف، نتمكن أن نمارس من خلالها نشاطنا ونحن صغار، وهذا ما نطلق عليه اسم الغرائز، فهناك غرائز لا تحتاج الى موجة، ولا تحتاج الى معلم، وإنما ينزل الطفل من بطن أمه مزوداً بتركيب الغرائز الملهمه التي تمارس نشاطها دون أن يتدخل في دائرتها أحد. وتلك نعمة كبرى، أنعمها الله علينا، إذ لو كان الطفل يحتاج الى من يعلمه كيفية الرضاعة، لمات من الجوع.. ونفس الشيء يقال بالنسبة لبقية الغرائز والطاقات التي تبدأ نشاطها بعد الولادة مباشرة دون أن تنتظر أحداً يوجهها إلى ذلك.

إذن، فحينما تقول الصديقة فاطمة الزهراء - سلام الله عليها -: «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم» فإنها تشير الى هذه الحقيقة وهي حقيقة أن الإنسان يجيء الى الحياة مزوداً بغرائز، وطاقات تعمل عملها، وتمارس نشاطها بشكل فطري، وإلهامي.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١).

(١) الشمس/ ٧ - ١٠.

وهنا مرة ثانية، نحن أمام نفس قد أخذت الفجور والتقوى، بطريق الإلهام أي أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاها قدرة على الارتفاع والسمو، وقدرة على الانحطاط والانحدار.. ولكنه بشكل إلهامي يشعر الإنسان أنه مطلوب منه أن يرتفع في طريق التكامل، وأفاق السمو.

والشيء الملفت للنظر، هو أن للطفل قدرة على تمييز الأصوات، ومعرفة الألوان، بحيث يعرف صوت أمه من بين مجموعة من الأصوات، كما يميز بين هذا اللون وذاك بشكل دقيق، وكل هذه الطاقات إنما هي إلهام من الله أفاض به على هذا الطفل الصغير.

هذا وقد أوضح أهل البيت أن الشكر إنما هو مرحلة عملية وليس فقط قولاً باللسان.. كما أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(١).

إن الشكر معناه العمل الصالح، فمن يعمل صالحاً، يشكر الله سبحانه ومن لا يعمل لا يشكر. وقد مر علينا قول الإمام جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام - : «إن الله منَّ على قوم بالمواهب فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالاً...».

(١) سبأ/ ١٣.



حديث النذر في خطبة فاطمة

جاء في خطبة الصديقة الطاهرة، فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - قولها: «ثم جعل الله سبحانه، الوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة».

وعندما نتأمل هذه الكلمة الذهبية، الرائعة نكتشف كنوزاً من المعرفة، التي تدل على وعي فاطمة، وإحاطتها بالإسلام، إحاطة كاملة.. فهي أولاً.. لم تتحدث عن النذر، وإنما تحدثت عن الوفاء بالنذر، لأن الله لم يفرض النذر على الناس، ولكن فرض الوفاء به.. والوفاء توأم الصدق.. بل هو يدل على عمق الإيمان، ووجود الدين، والعقيدة لدى الإنسان الوفي.

ثم إن الوفاء شرط أساسي، في صحة الإيمان، وهو الوفاء بالعهد، والوفاء بالعقود، والوفاء بالنذر.

على أن الذي يريد أن يتأمل في كلمة الزهراء، هذه التي جاءت في الوفاء بالنذر، وأنه تعريض للمغفرة، إن الذي يتأمل هذه الكلمة، يكتشف أكثر من باب، وأكثر من بحث وموضوع في هذا المجال بالذات. فمثلاً، حين نجد الزهراء، تذكرنا بالوفاء بالنذر، وليس بالنذر نفسه، فإننا ندرك أن النذر شيء مباح، وليس ضرورة من ضرورات الدين، بخلاف الوفاء به فإنه ضرورة، تدل على صدق النية، وسلامة العقيدة.

لقد ورد في الفكر الإسلامي، عن أئمة الهدى أن من لا وفاء له، لا دين له.. لأن الوفاء بالعهد، أو الوفاء بالنذر، أو بالعقود، أو في أي شيء آخر، فإنه إنما يدل على احترام الإنسان لعقيدته، وخوفه من الله رب العالمين.



ولذلك فإن ثمة جانبين في هذا الأمر، أي الوفاء بالنذر.. جانب لله، وآخر للإنسان.. وللتوضيح يمكن أن نقول.. هناك نوعان من الحق في الوفاء بالنذر:

حق الله، وحق النفس، فحق الله، أن تفي بالنذر، وحق نفسك هو أن تحترم كلمتها، وتحترم عهدها، لأن الخوف من الله هو الذي يضيء النفس بنور الإيمان، ويجعل الواحد منا، يسرع الى الوفاء بعهد الله عزوجل.

يقول القرآن الكريم - مشيداً في سيرة فاطمة، وسلوكها مع بعليها وأبنائها، وذلك حين نذروا نذراً، ثم وفوا بالنذر، يقول: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (١).

ولأنهم كانوا يخافون الله، فقد وفوا بنذرهم، وأمضوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم. ودائماً العالم الرياني، هو الذي يخاف الله ويخشاه، وكلما ازداد المرء علماً بالله، ازداد خوفاً من الله، وخشية له.. وإذا عرفنا ذلك، فمن أعلم من محمد ﷺ وأهل بيته؟ ومن أعلم من فاطمة وأبنائها؟ لذلك تراهم يخشون ربهم.. ويخافون سوء الحساب ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿(٢).

إذاً، فكلما ازداد الانسان علماً ازداد خوفاً من الله، وخشية له، وخشوعاً لذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

(١) الإنسان / ٧.

(٢) الإنسان / ١٠-١١.

كل ذلك نستفيده. من كلمة فاطمة.. واعتقد أن الأمر أكبر من أن يكون مجرد وفاء بالندر.. بل هناك انعكاس، على النفس، بسبب ارتقاعها، وعلوها... لأن الذي يحترم العهد، تستقيم حياته، ويقطف النجاح بأسرع ما يمكن.. ونجاحه يعتبر تعريضاً لمغفرة الله عز وجل، لأن العمل عبادة، والنجاح في العمل سمو، وارتقاء بالعبادة الى مكانها الصحيح.

وخلاصة الفكرة: أن الزهراء - سلام الله عليها - ليست فقط تأمرنا بالوفاء بالعهد والندر، وإنما حياتها كانت تطبيقاً حرفياً لهذه المبادئ.. كما صرح بذلك القرآن الكريم، كما مر علينا.

ولهذا الأسلوب الحضاري، أثر عظيم في مجال التربية، فقد طبعت الزهراء كل أبنائها على هذه السيرة الطيبة، وصبغت حياتهم بلون الإيمان والعقيدة، وهي الصبغة التي تحبها السماء، لأنها صبغة الله، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.

ونلمح هذا المعنى واضحاً في زيارة أبي عبدالله الحسين، - عليه السلام - في قول الصادق - عليه السلام -: «لبيك داعي الله، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك، ولساني عند استتصارك، فقد أجابك قلبي وسمعي، وبصري» والتلبية إنما هي من الوفاء بالعهد، والالتزام بمبادئ الإسلام.

وكما في زيارة الحسين، كذلك نقرأ في زيارة أخيه أبي الفضل العباس عليه السلام حيث يخاطبه الإمام أبو عبدالله الصادق عليه السلام بقوله: «أشهد لك بالوفاء، والنصيحة لخلف النبي المرسل، والسبط المنتجب، والدليل العالم، والوصي المبلغ، والمظلوم المهتضم الخ».



من كل ذلك نخرج، بأن النذر بحد ذاته، إنما هو شيء مباح، لا ضرورة فيه.. أما إذا طوق الإنسان به عنقه، فإنه يصبح - حينئذ - فريضة مقدسة والوفاء بها.

ومادام الوفاء بالنذر، يعد تعريضاً للمغفرة، على حد تعبير الزهراء، فإن ترك الوفاء بالنذر، يعد جريمة تقتل المغفرة، وتطفئ الرضوان. ولذلك يقول القرآن الكريم بالنسبة لأهل البيت - عليهم السلام - وبالذات لبیت فاطمة يقول: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (١).

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن الوفاء بالنذر كوعد قطعه الإنسان على نفسه، فإنه يحقق شيئين اثنين هما:

ثواب الله، ورضوانه، من ناحية.. وصقل النفس وصوغها صياغة ربانية، من ناحية ثانية، لأن شعائر الله، إذا عظمها المرء، تترك أثراً تريبياً في النفس.

● على أن ترك الحرام، بحد ذاته يترك أثراً إيجابياً في نفس الإنسان، في الحال، وعلى الفور، فقد ورد في الحديث، على سبيل المثال، أن النظرة هي سهم من سهام إبليس، فمن تركها خوفاً من الله عزوجل، أعطاه إيماناً يجد حلاوته في قلبه. وكدليل على صحة هذا الحديث، جرب أن تحفظ عينيك من النظر الحرام، بمعنى غض من بصرك، إذامرت بك امرأة جميلة، فأنت ستجد في الحال، حلاوة الإيمان، تتدفق في داخلك.

(١) الإنسان / ٧.



إذا فإن الوفاء بالنذر، يؤدي إلى حتّ الذنوب حتاً.. في حين أن نقض العهد، وعدم الوفاء بالنذر، وعدم احترام العقود، والعهود، والموازين، هذه كلها تؤدي إلى مزيد من نزول السخط، واللعنة على الإنسان لأنه لم يحفظ الأمانة، فكان ظالماً، وجهولاً.

يقول القرآن الكريم: ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرِ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١).

بمعنى أنه لا أنصار، ولا انتصار للظالمين، الذين يندرون النذور، ولكن من دون وفاء، لأنهم لا وفاء لهم، ولا ذمّة.

(١) البقرة/ ٢٧٠.

وصيتها عليها السلام

عن أبي بصير المرادي قال: قال أبو جعفر عليه السلام: ألا أحدثك بوصية فاطمة عليها السلام؟ قال: بلى، فأخرج حقاً أو سफطاً، وأخرج منه كتاباً فقراه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصت به فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله، أوصت بحوائطها ^(١) السبعة بالعواف والدلال والبرقة والميثب والحسنى والصافى ومال أم إبراهيم إلى علي بن أبي طالب، فإن مضى علي فإلى الحسن، فإن مضى الحسن فإلى الحسين، فإن مضى الحسين فإلى الأكبر من ولدي، تشهد الله على ذلك، والمقداد بن الأسود، والزبير بن العوام. وكتب علي بن أبي طالب عليه السلام.

ورواه الصدوق أيضاً بإسناده عن عاصم بن حميد، ورواه الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي نجران، عن عاصم بن حميد نحوه، ورواه أيضاً عن علي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عاصم بن حميد مثله، ولم يذكر حقاً ولا سफطاً، وقال: «إلى الأكبر من ولدي دون ولدك». ورواه أيضاً عن علي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن حماد بن عثمان، عن أبي بصير نحوه إلا أنه أخر ذكر أسماء الحوائط عن ذكر الأولاد ^(٢).

(١) كان لها - سلام الله عليها - سبعة بساتين أنحلها وأعطاهما رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأمر من الله عز وجل وتسمى هذه البساتين بحوائط السبعة والعوالي. وقيل بأن العوالي قرى بأعلى أراضى المدينة.

(٢) راجع وسائل الشيعة ١٣ / ٣١١.

تأملات في آيات النذر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١).

وقال: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (٢).
﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ (٣).

وفي هذه الآية يتوعد الذين لا يوفون بالنذر بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

وقال: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ (٤).
ثم يقول: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (٥).
فجعل الوفاء بالنذر من حرمان الله... إلخ.

(١) آل عمران / ٣٥-٣٦.

(٢) مريم / ٢٦.

(٣) البقرة / ٢٧٠.

(٤) الحج / ٢٩.

(٥) الحج / ٣٠.

وقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (١).

فجعل مقابل عدم الوفاء بالنذر - اليوم المستطير بالشر وهذا اليوم يلقاه الخائن في الدنيا والآخرة، إلا إذا تاب الله عليه.

وفي قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾

أي وليتموا نذورهم بقضائها، ولم يقل بنذورهم لأن المراد بالإيفاء الاتمام - وهي ما نذروا من أعمال البر في أيام الحج، وربما نذر الإنسان أن يتصدق إن رزقه الله الحج. وإن كان على الرجل نذور مطلقة فالأفضل أن يفي بها هناك. ﴿وَمَنْ يَعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ﴾ (٢).

والحرمة ما لا يحل انتهاكه. «الحرمة ما وجب القيام به، وحرمة التفريط فيه».

وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ - أي كانوا في الدنيا بهذه الصفة، والإيفاء بالنذر هو أن يفعل ما نذر عليه فإذا نذر الطاعة تممها ووفى بها. وفي قوله: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ ... إلى آخر الآية.

دلالة على أنها إنما قالت هذا القول حينما كانت حاملاً، وأن حملها كان من عمران، ولا يخلو الكلام من إشعار بأن زوجها عمران لم يكن حياً عندئذ وإلا لم يكن لها أن تستقل بتحرير ما في بطنها هذا الاستقلال. كما يدل عليه أيضاً ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاحَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (٣).

(١) الإنسان / ٧.

(٢) الحج / ٣٠.

(٣) آل عمران / ٤٤.

ومن المعلوم أن تحرير الأب أو الأم للولد ليس تحريراً عن الرقبة وإنما هو تحرير عن قيد الولاية التي للوالدين على الولد من حيث تربيته واستعماله في مقاصدهما وافتراض طاعتهما . فبالإتحرير يخرج من تسلط أبويه عليه في استخدامه، وإذا كان التحرير منذوراً لله سبحانه ، يدخل في ولاية الله يعبد، ويخدمه أي (يخدم في أماكن العبادة ومواطن الدعاء والزيارة) .

ومن سياق الكلام، تظهر دلالة واضحة تدل على أنها كانت تعتقد أن الجنين الذي في بطنها كان ذكراً، لأنها لم تشترط في النذر إن كان ذكراً أو أنثى وإنما أطلقت الكلام على أنه ذكر ويؤكد هذا المعنى أنه حين وضعتها أنثى علاها الحزن وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾، وهذا يدل على أنها كانت تعتقد بشكل قاطع أن نوع الجنين ذكر وليس أنثى. وقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾، وهو خبر أرادت به التحسر دون الإخبار وهو ظاهر - لأن الله يعلم ذلك .

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، ومعنى مريم العابدة أي أن اسم مريم يعني العابدة أو الخادمة في بيت الله ... ولذلك قالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فكان هناك تلاؤم وتوافق بين كونها عابدة وبين البعد من الشيطان ، لتستقيم لها العبادة. يقول الحق سبحانه: ﴿فَإِذَا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

وفي قوله: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ بمعونة السياق أنه أمرها أن تتوي الصوم لوقتها، وتذره لله على نفسها فلا يكون إخباراً بما لا حقيقة له - الميزان.



وبمناسبة الوفاء بالنذر أود أن أنقل لكم هذه الفكرة من آيات مريم:
يقول القرآن الكريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا
قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ﴾.

وهي : أن الرزق الذي يفوق الحساب، والعد إنما هو يجرى من
المحراب ، من الصلاة - لأن المحراب - مأخوذ من محاربة الشيطان ،
ومحاربة الشيطان معناها التقوى ، والتقوى أيضاً مصدر الرزق لأنه
يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (١).

«وإن خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان فقد وكلني
خذلانك إلى حيث النصب والحرمان» .

وهنا تأتي ملاحظة هامة ، وهي أن المحراب مأخوذ من محل
محاربة النفس والشيطان - ففي الآية : يجعل له مخرجاً ويرزقه من
حيث لا يحتسب - وفي الدعاء أن الذي يترك التقوى يقع في النصب
والحرمان.

إذاً: فهنا نجد ملازمة الرزق للمحراب، وهي إشارة وفي آية ثانية من
نفس السورة نجد القرآن يقول: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي
الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ (٢).

فتجد هنا البشارة أيضاً ملازمة للمحراب . والمحراب مأخوذ من
محاربة الشيطان التي هي تركيز التقوى ، نجد هنا الرزق والبشرى في
المحراب ... وهذه أجمل صورة للصلاة .. صورة كلها رزق حسن وبشرى .

(١) الطلاق / ٢-٣.

(٢) آل عمران / ٣٩.

كما قال النبي : أحب من دنياكم ثلاثاً : الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة ، فجعل الصلاة مع العطر والنساء ، كما أن المرأة جاءت هنا بين العطر والصلاة وهي أجمل منزلة يمكن أن تحلم بها امرأة .
وفي قوله تعالى : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ (١) .

أي صمتاً ، والمعني أوجبت على نفسي لله أن لا اتكلم وإنما أمرت بالصمت ليكفيها الكلام ولدها بما يبرئ به ساحتها من التهمة التي أثارت اليهود ضدها .

وجاء في النذر أن الإسلام يكره للإنسان أن يلزم نفسه بالنذور أو العهود . يقول الإمام زيد العابدين عليه السلام : (لا توجب على نفسك الحقوق واصبر على النوائب) . والسبب في أن الإسلام يكره أن يلزم الإنسان نفسه بنذر ، خشية عدم الوفاء به .. وهذا له انعكاس وظلال على النفس ، لذلك جاءت الكراهة من هنا ، أما إذا ألزم نفسه ووفى بنذره وعهده ، فليس أحسن ولا أجمل منه ، وإنما سبب الكراهة نابع من احتمال عدم القدرة على التنفيذ .

على أن هذا إن دلّ على شيء ، فإنما يدل على عظمة الدين ، وسماحته ، واحترامه لحقوق الإنسان . فقد ورد عن اسحاق بن عمار قال : قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : إني جعلت على نفسي شكراً لله ركعتين أصليهما في السفر والحضر ، أفأصليهما في السفر بالنهار ؟ فقال نعم ، ثم قال : (إني لأكره الإيجاب ، أن يوجب الرجل على نفسه) (٢) .

(١) مريم / ٢٦ .

(٢) التفسير المعين ، والوسائل ١٦ / ١٨٩ .

الإسلام وعلاقة الأبدان بالأديان

أرسل الله الأنبياء مبشرين، ومنذرين ليوافق إرسالهم، الوعد، والوعيد، وحالة الخوف والرجاء في النفوس .. وحينما ينظر الواحد منا إلى هذا البناء المتكامل في خلق الله سبحانه وفي منهاجه، يجد العجب العجيب، الذي يأخذ بالألباب، بحيث كل شئ في هذا النظام مترابط ترابطاً وثيقاً بعضه ببعض، ولذا حينما نقول : دين الفطرة، فإن الفطرة هي التي تأتي بدين يوافق كل مشاعر الإنسان وليس في الدين ما تنفر منه الطباع، وتعافه النفوس وإنما هو دين سمح سهل، ميسر، جاء ليوافق الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فهو الخالق وهو المصور، وهو الذي يعرف ما يصلح النفوس فأنزل إلى الناس ما يصلحهم ويجعلهم سعداء في الدنيا والآخرة، ولذلك أرسل الأنبياء مبشرين، ومنذرين لتوافق بعثة الأنبياء فطرة الإنسان القائمة على الخوف من الوعيد، والرجاء في الوعد ..

وهذا من أعجب الأمور في بناء الإسلام للنفس البشرية .. بل قل: في صياغة الإسلام للنفس البشرية صياغة فطرية ليس فيها ما هو ضد الفطرة، ولا ضد معالم الفطرة الإنسانية .

فسبحان الله الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنى .

أحاديث في الوفاء بالنذر والعهد

قال النبي ﷺ: أقل الناس وفاءً الملوك^(١).

ويقول الإمام علي عليه السلام الوفاء حفظ الذمام^(٢).

- الخائن لا وفاء له ..

- لا تعتمد على مودة من لا يوفي بعهده .

- الوفاء حلية العقل وعنوان النبيل .

- الوفاء توأم الأمانة وزين الإخوة .

- نعم قرين الصدق الوفاء .

وقال النبي ﷺ: أقربكم غداً مني في الموقف أصدقكم للحديث وأداكم للأمانة، وأوفاكم بالعهد^(٣) .

وقال النبي ﷺ : ثلاثة لا عذر لأحد فيها: أداء الأمانة للبر والفاجر، والوفاء للبر والفاجر وبر الوالدين برّين كانا أو فاجرين^(٤).

(١) البحار ١١٣/٧٧ - من التفسير المعين: ١٠٦.

(٢) التفسير المعين: ١٠٦.

(٣) البحار ٧٥ / ٩٤.

(٤) البحار ٧٥ / ٩٣.

قال الإمام علي عليه السلام: أيها الناس إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنةً أوقى منه وما يغدر من علم كيف المرجع ، ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة. مالهم! قاتلهم الله، قد يرى الحوّل القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأى العين بعد القدرة عليها .. وينتهاز فرصتها من لا حريجة له في الدين .

في قوله : ولا أعلم جنة ... لأن الوفي محفوظ من الله ، ومشكور من الناس، والحريجة: التقوى. أي ليس بذئ حرج. والتخرج : التأثم .

وفي كتابه لمالك الأشتر يتحدث الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام عن أهمية الوفاء مرة ثانية، ولكن هذه المرة يأخذ الوفاء من الناحية الاجتماعية أو قل: رؤية الناس إليه أي الوفاء - ثم يطرحه كوثيقة بينه وبين العدو فيقول لمالك :

ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ... ثم يقول : وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء - من حاطه يحوطه بمعنى حفظه وصانه - فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنةً دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشدّ عليه اجتماعاً، مع تفرق أهوائهم، وتشّت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين، لما استؤبلوا من عواقب الغدر، فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي ...

وقال علي عليه السلام: الوفاء لأهل الغدر غدر، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله تعالى . وهذا طبعاً إذا كان بينهما عهد ومشاركة فغدر أحد الفريقين ... قيل ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي، والنكث، والمكر .

وقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ . (١)

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ . (٢)

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ . (٣)

(١) يونس/ ٢٣ .

(٢) الفتح/ ١٠ .

(٣) فاطر/ ٤٣ .

موضوع تحريم الخمرة في خطبة الزهراء عليها السلام

حين يقول القرآن الكريم في الخمرة: ﴿وَأَثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (١). فإنه يريد أن الجانب الاجتماعي أكبر أهمية من الجانب الاقتصادي، وأن الجانب الاجتماعي يحكم على الجانب الاقتصادي، ولذلك لا يسمح الإسلام بإنتاج الخمر، وأدوات القمار، وآلات الميسر والأزلام، هذه كلها محرمة حتى ولو جاءت بأرباح مادية طائلة، وذلك لأنها تترك أثراً سيئاً في المجتمع، وتضر به .. ووفقاً لقاعدة «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» يضاف إلى ذلك كثرة النصوص التي تحرم الخمرة وآلات اللهو. وأقول: وفقاً لهذه الأسباب فإن الإسلام لا يسمح بتوفير المال عن طريق الحرام . إنما يريد أن يكون المال حلالاً لا حراماً.. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (٢).

ولاحظوا الفارق الحضاري الذي يفصل بين حضارة الغرب، والحضارة الإسلامية، وهو أن الإسلام يربط كل شيء في الحياة، ويشده إلى اليوم الآخر، فهو يطلق الأرض أمام الناس بحيث جعلها ذللاً مسخرة في خدمة الناس، ثم يأمرهم أن يبحثوا عن الرزق الحلال ، لأن الحرام إذا دخل البطون أدى إلى عمي القلوب. كما قال

(١) البقرة / ٢١٩.

(٢) الملك / ١٥.

الإمام أبو عبدالله الحسين عليه السلام يوم عاشوراء ، وهو يشير إلى الذين جاءوا لقتاله، قال : «ملئت بطونهم من الحرام .. ثم قال : لقد استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله العظيم» وكأن الشيطان لم يستحوذ عليهم إلا بعد أن ملأوا بطونهم من الحرام .

إذاً: فالفارق الذي يفصل بين حضارة الغرب الكافرة ، وبين الحضارة الإسلامية هو أن كل شيء في الحضارة الإسلامية موكول ومشدود إلى الإيمان باليوم الآخر، إنه يقول : وكلوا من رزقه - أي من رزق الله ، وليس من رزق الحرام - وإليه النشور بمعنى تذكروا دائماً أنكم إلى الله تحشرون .

وقد أكد علماء النفس، وعلماء الاجتماع الأثر الفعال الذي تتركه عقيدة الإيمان باليوم الآخر على سلوك الإنسان. ولذلك قالت الزهراء عليها السلام : «والنهي عن شرب الخمر، تنزيهاً من الرجس» وذلك أن الخمرة، رجس من عمل الشيطان .

الغيبة ومسؤولية المؤمن

يقول القرآن الكريم: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(١)... إلى آخر الآية.

جاء في التفسير أن الهمّاز هو الذي يكسر في أعراض الناس .. واللماز المغتاب الذي يغتاب الآخرين - وهذه السورة، وإن نزلت في الوليد بن المغيرة، لكنها مطلقة وعامة تشمل كل من يهمز ويلمز الآخرين - ومكانه في جهنم الحاطمة التي تحطم كل شيء يلقي فيها .. ﴿كَأَلَّا لَيُبَدِّلَنَّا فِي الْحُطَمَةِ﴾ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٢).

لماذا كل هذا العذاب ؟ لأن صاحب القلب المريض لا علاج له إلا بالنار، إنه يحتاج إلى علاج على طريقة الكي بالنار. إن الحطمة هي النار، وإنما أطلق القرآن عليها هذا الاسم أو الوصف، لأنها تحطم الذي يلقي فيها فلا تترك له عظماً سالماً، ولا جلدأ شاعراً .

وان الجزء من نفس العمل.. إن صاحب الغيبة قد حطم حياة الأفراد والجماعات.. حطم حياة الآخرين، هدم أعمدة الأسر، والعوائل.. كان هاجسه تحطيم أعراض الناس، وتحطيم حياتهم بأي شكل، وبأي لون وثمر.. وهنا نجد الجزء من نفس العمل.. لأنه حطم حياة الآخرين، فالله عزوجل، سيحطمه في نار جهنم، النار الحاطمة..

(١) الهمزة / ١.

(٢) الهمزة / ٤-٧.

لينبذن في الحطمة. وهناك قسم من الناس يتصور أن بناء الشخصية، إنما يكون على حساب الآخرين، فهو لكي يبني شخصيته، ويجعلها عظيمة فإنه يعمد إلى الآخرين فيحطم شخصياتهم بمعاولة الهدامة، ولسانه الهمزة واللمزة، ويخيل إليه - بهذا الصنيع والمسعى - أنه يقيم حياته ويجعلها عظيمة في عيون الناس ليسرق الأضواء نحوه، ويجتذب النفوس الضعيفة إلى ورده الأسن الأجاج، وهو لا يدري أنه بعمله هذا إنما يحفر قبره بيده، وإنه سيجني على نفسه، ويدفنها في التراب قبل أن يدفن الآخرين.. فقديمًا قيل: من حفر بئراً لأخيه وقع فيه .

ثم دعني أذكرك، أن الشخصية العظيمة لا تقوم على حطام الآخرين، وإنما تتشأ العظمة، والشخصية فقط في القلوب الطيبة التي لا تحمل حقداً ولا تغضب ولا تتطوي على حسد أبداً .

لا يحمل الحق من تعلوبه الرتبُ ولا ينال العلا من طبعه الغضبُ
إن صاحب القلب الطيب الطاهر هو الذي يفوز في النهاية ، وهو الذي يحرز قصب السبق في نهاية الشوط وهو الذي سيفوز كأس النصر والظفر على شفثيه عندما ينفذ الناس .

أمّا الذي يريد أن يعيش كلاً على الآخرين ويحاول أن يبني حياته على حطام بني جنسه مستخدماً أبشع الوسائل وأرذل السبل في الوصول إلى غايته الدنيئة، فإنه واهمٌ، ولن يصل إلى مشتهاه أبداً. بل إنه سيكون أول الساقطين تحت أقدام القافلة ..

إن الحياة قائمة على الصدق، والإخلاص، والذي يريد أن يلعب مع الحياة فإنها ترفضه وتدوسه بأقدامها غير آسفة عليه أبداً.. ومن بين

هؤلاء يجيء الهمّاز اللّماز الذي يطعن بالناس، وفي أعراضهم ليجعل من نفسه بطلاً في الشرف والعفة في أعين الناس، ولكن على حساب الآخرين، بمعنى أنه لا يستطيع أن يسمع مديحاً أو ثناءً إلى أحد غيره، فهو يريد أن يسلّط الأضواء عليه، ويعرف وجوه الناس إليه بطريقته الخاصة وهي الوقوع في أعراض الناس، وتوزيع التهم ونشر الفحشاء، والغيبة والنميمة بين الناس وبالتالي فإنه لا ولم ولن يفلح أبداً.

يقول القرآن في الغيبة: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (١).

والسؤال هو: لماذا مثل الغيبة بأكل لحم الميت؟ الجواب: أن هناك توافقاً وتطابقاً بين الميت، والغائب. فكما أن الميت لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمام هجمة الناس عليه، فكذلك الغائب فإنه ليس في مقدوره أن يدافع عن نفسه لأنه غائب وليس حاضراً حتى ينهض للدفاع عن نفسه وعرضه وناموسه.. فهو يشترك مع الميت في أنه لا يتمكن من الدفاع عن نفسه كما بينا ذلك آنفاً.

وثانياً: إن جسم الحي يختلف عن جسد الميت في القدرة على التعويض، فمثلاً لو أخذنا قطعة من الجسم الحي فإنه بعد فترة يعوّض عنها بقطعة ثانية أي أن البدن إذا أصيب بجرح، أو انفصلت منه قطعة، أو جزء بفعل حادثٍ وقع عليه فإنه سرعان ما يعوّض الجزء الضائع منه، في حين أن جسد الميت لا يملك هذه القدرة، فليس في استطاعة جسد الميت أن يعوّض الجزء الذي انفصل منه، فلو أنك

(١) الحجرات/ ١٢.



أخذت سكيناً وقطعت جزءاً من جسد الميت، فإن الجزء يظل مكانه فارغاً لا يستطيع البدن أن يقوم بعملية التعويض هذه، بخلاف الجسم الحي الذي له القدرة والاستطاعة على سد الجزء المفقود .

وكما في هذا المثال كذلك في الإنسان الذي نغتابه، ونهمزه ونلمزه، ونكسر عرضه، ونسقط شرفه وكرامته بين الناس، لأنه لا يمكن أن يعوّض ما اسقطناه منه بالغيبة .

إنك حين تغتاب أخاك المؤمن، فإنك قد هدمت كرامته، وحطمت سمعته بين الناس بلسانك الذي سيكبّك على منخريك في نار جهنم. فلماذا اغتبتَه؟ إنه غائب وليس حاضراً. إنه يشبه جنازة الميت في عدم حضوره عندك، فكما أنك إذا وقفت أمام جثمان ميت وشتمته وأهنته بلسان أحد من الشفرة فإنه لا يجيبك ولا يستطيع أن يقوم ليرد عليك، كذلك أخوك الذي غاب عنك فإنه لم يكن حاضراً حتى يرد عليك، فلماذا إذن تهتك ستره، وتتشعر عرضه على الحبال أمام الآخرين؟ أما تخشى الله؟ ألا تخاف ربّ العالمين؟ صحيح إنه غائب، ولكن الله حاضر معك، يسمع صوتك ويراك كيف تفتري على أخيك وقد أوكل بك ملائكة كراماً يعلمون ما نفع وما نصنع ولا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء . من أجل ذلك قال القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ .

إن الإنسان بمجرد أن يتناول الناس بلسانه تسقط عدالته، وتُرفض شهادته لأنه لم يعد ثقة بعد أن عمد إلى الآخرين فحطم سمعتهم وأحرق كرامتهم وعطل احترامهم بين الناس .. وإن الله له بالمرصاد .. وقد جاء في الخبر أن الغيبة الواحدة تحرق عمل الإنسان لستين



عاماً أو أكثر وهناك يتعجب صاحب الغيبة ويقول: يارب إنها مرة واحدة اغتبت بها فلاناً فيكف ذهبت كل أعمالي ؟ فيأتيه الجواب من قبل الله عز وجل: إنك بهذه الغيبة الواحدة هدمت كل شرف أخيك، فلذلك سأهدم كل أعمالك وألقي بك في النار ولا أبالي ..

إلى هنا نقلنا مضمون الحديث القدسي، وتوجد عشرات بل مئات الأحاديث التي تصب في هذا القنال. فحينما تنال من سمعة أخيك، فإنه لن يعتاض عما هدرت من حرمة أمام الآخرين وقد أبدى الإسلام اهتماماً بالغاً في هذا المسعى، بحيث أن الذي يسمع سياط الغيبة تنهال على ظهر أخيه المؤمن الغائب ولم ينصره، فإنه ليس بمؤمن ولا من الإسلام في شيء .

يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - : «اللهم إني اعتذر إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره» .

وهذا يعني - أن المطلوب منك - إسلامياً وخلقياً - أن تدافع عن أخيك المؤمن إذا سمعت مفتاباً ينهش من لحمه، وإلا فأنت شريك معه في الغيبة .. لأن السامع الراضي والسامع الساكت يشتركان في الجريمة .. فالراضي يشترك لأننا نقرأ في زيارة الإمام أبي عبد الله الحسين - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - نقرأ: «ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به ...» .

وأيضاً نقرأ في الحديث الشريف: «إن الساكت عن الحق شيطان أخرس» .



وفي بعض الأحاديث أن الساكت والراضي بالغيبة يلجمان بلجام من نار . وهذا قليل بحق هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس بالغيبة ، والنميمة من الصباح إلى المساء .

قيل : إن رجلاً أعرابياً دخل على أحد الخلفاء، فقال له الخليفة : بلغني أنك تتال مني وتسبني . فرد الرجل بقوله كلاً أيها الأمير إني ما نلت منك ولا شتمتك . فقال الخليفة : ولكن الثقة أخبروني فقال الرجل : كلاً أيها الأمير .. إن الثقة لا ينمّون .. أي لو كان الرجل الذي أخبرك هو ثقة لما أخبرك لأن الرجل الثقة لا يكون نماماً ينقل الأخبار من هذا إلى هذا .

والآيات كثيرة في هذا المجال ، بالإضافة إلى الروايات التي تربي الناس على طيب القول ، وصفاء القلوب وذلك حتى يعيش الجميع في محبة وألفة وسعادة .

يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١).

ويقول في آية أخرى: ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ﴾ (٢).

وفي آية ثالثة يقول: ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٣).

وفي آية رابعة: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ (٤).

(١) الإسراء / ٣٦.

(٢) الحجرات / ١١.

(٣) الحجرات / ٦.

(٤) النساء / ٩٤.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (١).

ويقول: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢).

وفي الحديث : «كذب من زعم أنه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة» فكما أن الإسلام يحفظك في حضرتك، كذلك فإنه يحفظك في غيبتك .. فحرمة الإنسان المسلم حرمة محفوظة في الإسلام. إنه إنسان مكرم، وله حقوق وعليه واجبات، وكما يبذل الإسلام جهداً في منحه الحقوق، فإنه يطالب بأداء الواجبات في وقت ذاته .

على أن في بحث الغيبة، والنميمة، أبواباً، وفصولاً أخرى لا أدري إذا كان هناك مجال للتوسع في بحثه فإننا سنطرقها بإذن الله بشيء من التفصيل، والتفسير، والتوضيح في مضمونها .

(١) الأعراف/ ٨٥.

(٢) الحشر/ ١٠.

فاطمة العليّة هي الأفضل

لقد مرّ الحديث بنا، حول منزلة المرأة في الإسلام، وعرفنا كيف يقدمها القرآن الكريم، في ضروب من التكريم والاحترام، شأنها في ذلك شأن الرجل المؤمن المسؤول، إذ لا فرق بين الذكورة والأنوثة في الحقوق والواجبات، إلا فيما يتعلق بلون الوظيفة، واختصاص كل واحد منهما في العمل الحضاري الذي يقوم به الإنسان في الحياة .

على أننا ضربنا مثلاً على ذلك هو قول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام إن المرأة ريحانة، ويقابله قول آخر له عليه السلام المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنه لا بد منها.. وقد فسرنا الفاصل الذي يفرق بين النوعين من النساء، فالمرأة الريحانة هي كل النساء السويات، المؤمنات، الفاتحات، الحافظات لحدود الله، في حين أن النوع الثاني هو المرأة التي لا يُرجى من ورائها خير، وهي - عادة - المرأة الناشز، أو الظالمة، أو السليطة.. كما أن النساء الخائنات كثيرات أيضاً، لم يخلُ عصر منهن، ففي الوقت الذي نجد فيه امرأة فرعون قمة الإيمان، والوفاء لله وللحق، نجد فيه زوجة نوح وامرأة لوط، ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰٰخِلِينَ﴾^(١).

أقول: هناك تركيز في القرآن الكريم على قوة المرأة، وأنها لم تكن

(١) التحريم/ ١٠.

ضعيفة - بالمعنى العام لكلمة الضعف - كما يراد لها أن تكون.. وقد ضرب القرآن الكريم مثلاً بامرأة فرعون.. في حين أنه لم يضرب مثلاً بالرجل المؤمن الذي كان يكتُم إيمانه، رغم كون القرآن أفرد سورة كاملة لهذا الرجل الذي كان في مجتمع فرعون يكتُم إيمانه، وقد أعلن نصرته لموسى ﷺ ودفع عنه القتل، أقول: رغم هذا كله، فإن القرآن الكريم لم يفرد له أسوة ولم يضرب فيه مثلاً، وإنما ضرب مثلاً بالمرأة التي رفعت صوتها بوجه الطاغوت.. وهي زوجة فرعون .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

إذاً فالقرآن الكريم، إنما ضرب مثلاً بهذه المرأة، مثلاً للإيمان والتقوى، ولم يضرب بالرجل، لأن الرجل كتم إيمانه بينما المرأة أعلنت إيمانها وصرخت بوجه الطاغوت، وأكبر الجهاد كلمة حق عند إمام جائر .

هذا من جانب .. ومن جانب آخر، فإننا نجد القرآن الكريم يتحدث عن مريم العذراء - سلام الله عليها - فيؤكد أنها أعلم من نبي زمانها، وهو زكريا، لأن زكريا كان زوج خالتها، وهو الذي تكفلها.. ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢).

ومضاد هذا الكلام، أن زكريا كان كبيراً في السن، ولم يرزق من

(١) التحريم / ١١ .

(٢) آل عمران / ٣٧ .

الذرية، وقد يئس من الإنجاب، حسب القواعد الطبيعية، فأيقظت مريم فيه الأمل بالحصول على ذرية، رغم كبر سنه وفناء عمره، لذلك يقول القرآن الكريم: ﴿هَئِلِكَ دَعَا زَكْرِيَّا﴾ وكلمة هئالك تشير إلى البعيد البعيد، وهذا يعني أن احتمال حصول زكريا على ذريته، كان احتمالاً بعيداً جداً فقربته مريم إلى خاطره، وحركت الأشواق في قلبه، لذلك توجه بالدعاء إلى الله، في طلب الذرية، فأعطاه الله ذلك، ووهب له يحيى ﴿يَا زَكْرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (١).

وهذا يدل ، بكل وضوح على أن مريم كانت أعلم من نبي زمانها وهو زكريا ..

على أننا حين نأتي إلى فاطمة الزهراء - سلام الله عليها -، نجد أن القرآن الكريم أكد على أنها من الفضل، والمنزلة، بحيث تفوق كل الأنبياء والمرسلين، باستثناء أبيها رسول الله ﷺ وبعلمها علي أمير المؤمنين - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام - .

وهذه عقيدتنا في سيدة نساء العالمين، ووفقاً لموازين الإسلام ومبادئ الفكر الحضاري في القرآن الكريم، فإننا نجد أن الزهراء - سلام الله عليها -، أفضل من سائر الأنبياء، ما عدا أبيها رسول الله، وبعلمها علي أمير المؤمنين، وأنها لكفو لعلي عليه السلام .

(١) مريم/ ٧.

وإذا عرفنا التفسير الصحيح لآية المباهلة، والمفهوم العميق لخروج فاطمة في المباهلة ، أدركنا أفضلية الزهراء. فقد قال رسول الله ﷺ: لولا علي ، لما كان لفاطمة كفؤ، من آدم فما دونه. وهذا الحديث يبين لنا بوضوح هذه الفكرة التي نحن في صددتها الآن .

أجل .. إن فاطمة ليس فقط أفضل من الأنبياء ، بل وأيضاً أفضل من أبنائها المعصومين .. فقد ورد عن الإمام العسكري عليه السلام في هذا الخصوص قوله: (كلنا حجج الله، وفاطمة الزهراء، حجة الله علينا) .

على أننا ندرك بالقطع واليقين، وحسب الموازين الفكرية في الإسلام أن علياً عليه السلام أفضل من سائر الأنبياء لأنه نفس النبي بنص القرآن والنبي أشرف الأنبياء والمرسلين وأفضلهم جميعاً وكذلك الإمام علي عليه السلام .

البيوت الرفيعة بيت فاطمة

الابتكار والإبداع

إن آلة حاسبة يمكن أن تؤدي عمليات حسابية، ورياضية في غاية الدقة، ولكن من المستحيل أن تقدر هذه الآلة الحاسبة على القيام بابتكار قاعدة رياضية واحدة. يقول علي عليه السلام : «ولو فكروا في عظيم القدرة، وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق، وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عيلة والبصائر مدخولة» .



قيمة الشيء من نفعه للإنسان

وقيمة الإنسان من علاقته بالله

عندما نقرأ القرآن الكريم بتأمل وتدبر، وإمعان نجده يستعرض الكائنات الحيّة وغير الحيّة فيجعلها في خدمة الإنسان ويجعل قيمة كل شيء من الأشياء بمدى خدمته للإنسان ... إذا انتفع الإنسان من ذلك الشيء، فذلك الشيء له قيمة، وإذا لم ينتفع منه فلا قيمة له .

يقول القرآن: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

ولتوضيح الفكرة أقول: حين نقرأ القرآن الكريم نجد أن الأشياء تكتسب قيمتها بمقدار خدمتها للإنسان، بينما الإنسان يستمد قيمته بمدى علاقته بالله سبحانه وتعالى.. فإله سبحانه سخر كل ما في الكون في خدمة الإنسان، وجعل الإنسان المحور الأساسي في هذا الكون .. فكل شيء ينفعه يكون له قيمة بمقدار نفعه ويكون له قوة تجعله شيئاً خالداً في الأرض. وأما الإنسان فيمته بعلاقته بالله وعبادته لله، وتعلقه بالله وتوكله على الله، ﴿وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ (٢).

(١) الرعد / ١٧ .

(٢) سورة العصر .



من هذا المنطلق، فكل شيء ينفع الإنسان مقبول في الفكر الإسلامي، وكل شيء يضره مرفوض وبمعنى آخر إن كل ما ينفع الإنسان وفيه مصلحة له فهو حلال ومقبول، وكل ما يضره وفيه فساد له فهو حرام ومرفوض. ومن هنا، نستطيع أن ندرك الفرق بين مناهج الله، ومناهج الأرض.. منهج الله عز وجل، جعل المحور في الحياة هو الإنسان، في حين أن المناهج الأرضية جعلت المحور هو المادة وليس الإنسان ..

وبالمثل نجد المناهج الأرضية تسمح ببيع الخمر حتى ولو كانت تضر الإنسان وتساهم في انتشار الجريمة، لأن فيها مصلحة مادية وجانباً اقتصادياً - والدوائر الغربية والشرقية، تسمح باقامة الحروب وغزو البلاد الآمنة لأن فيها ربحاً مادياً وتسمح بفتح صالات القمار، وانتشار النظام الربوي في البنوك لامتناس الماده من عرق الإنسان وتعبهم في حين أن الإسلام يرفض هذا النوع من التعامل مع الإنسان ولذلك نجد الاقتصاد المعاصر بكل فروعه وأصوله الماركسية، والرأسمالية، وكل ألوان الاقتصاد المعاصر قائمة على إلحاق الضرر بالإنسان وإذلاله وحرمانه بخلاف الاقتصاد الإسلامي الذي يشترط وجود الخط الأخلاقي في كل تشريعاته، والخط الأخلاقي هو الحفاظ على مصلحة الإنسان دون إلحاق الضرر به وذلك وفقاً للقاعدة الإسلامية المعروفة التي تقول: لا ضرر ولا ضرار في الإسلام وعلى ضوء هذه القاعدة نقرأ الآية الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١).

(١) الملك / ١٥.

البيوت التي أذن الله أن ترفع

قال الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (١).

* البناء المادي والبناء المعنوي :

أحياناً تقتصر نظرنا في تقييم الأمور على النواحي المادية وننسى الجانب المعنوي الذي يكون أساس البناء وعماده. فإذا نظرنا إلى عمارة عالية نقول: هذا بناء عال مرتفع. فالارتفاع هنا مادي. أما إذا قلنا: فلان رفيع القدر، فهذا لا يعني أنه مرتفع مادياً، وإنما يعني أن روحه وعقله ونفسه عالية مرتفعة. وإذا قلنا: فلان منحط، فهذا يعني أن نفسه وضيعة قريبة من الشيطان والأهواء والمصالح الذاتية .

فإذا كان البناء المادي ترفعه الحجارة والأعمدة الإسمنتية، فإن البناء الإنساني ترفعه الأعمال الصالحة وقوة الإيمان وطهارة القلب والنفس.

* اللقاء المادي واللقاء الروحي:

عندما يلتقي الناس فيما بينهم في السوق والمجلس والمسجد فإن للقاءهم جانبين: الجانب المادي والجانب الروحي.

والجانب الروحي للقاء هو الأساس وهو الذي يعطي اللقاء معناه، بحيث إذا افتقد هذا الجانب لا يعود للقاء معنى أو قيمة .

(١) النور / ٣٦-٣٧.

فاللقاء الجسدي ليس أكثر من آلة أو أداة للقاء أعمق هو اللقاء الروحي. وعندما يكون السعي المادي موجهاً بغاية روحية سامية فإنه يصبح سعياً مباركاً. فإذا سرت إلى مجلس حسيني للقاء إخوانك وإحياء سيرة سيّد الشهداء فإن الله سبحانه يكتب لك في كل خطوة تخطوها سبعين ألف حسنة ويمحو عنك سبعين ألف سيئة .

* تأليف القلوب والاهتمام بأمور المسلمين :

في الحديث الشريف: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين ليس بمسلم» في هذا الحديث جانبان: جانب عملي وجانب حضاري. فالجانب العملي هو أنك تؤكد على إسلامك باهتمامك بأمور المسلمين، أما الجانب الحضاري فإنه يتعلق بصفاء نفس المسلم وقدرتها على التقاط هموم الآخرين. أي أن نفسه تكون صافية مثل المرآة التي تعكس الصورة نقيّة جليّة. أما المرآة التي لا تعكس الصورة فإنها مرآة فاسدة. وهذه الميزة الحضارية في النفس المؤمنة ليست شيئاً اكتسبته عن طريق المادة وإنما هي من الله تعالى. لأن الاهتمام بأمور المسلمين وانعكاس صورتهم في مرآة نفسك هو تأليف القلوب. وتأليف القلوب هو من الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

فالأموال لا تؤلف بين القلوب، وإن كانت تساعد أحياناً في اتقاء شر بعض الناس، كما كان الأمر في مسألة «المؤلفة قلوبهم» أمثال أبي سفيان ومعاوية الذين أعطوا أموالاً من الصدقات لإسكاتهم واتقاء

(١) الأنفال / ٦٣.

شرهم. ولكن بأي شيء يؤلف الله القلوب؟ إنه يؤلفها بالمحبة وعمل الإحسان. إنها المحبة التي جعلت الرسول الأعظم يخلع قميصه ويعطيه للفقير المحتاج الذي دخل عليه المجلس. وهي المحبة التي جعلت أمير المؤمنين والزهراء والحسن والحسين يمنعون الطعام عن أنفسهم ثلاثة أيام ويطعمونه للمسكين واليتيم والأسير .

لذلك فإن محبة أهل البيت والالتفاف حولهم هي التي تؤلف القلوب وتجعل المسلمين موحددين. وقد قالت الزهراء عليها السلام : «وجعل الله إمامتنا أماناً من الفرقة» .

* زكاة الفطرة وتأليف القلوب :

لماذا شرع الله تعالى زكاة الفطرة وجعلها علامة قبول الصيام ؟ إن زكاة الفطرة التي نخرجها ليلة العيد - ووقتها إلى يوم العيد ظهراً - إنما لها دورٌ عظيم في تأليف القلوب، ولها دلالة قوية على الاهتمام بأمور المسلمين، خاصة الفقراء والمحتاجين منهم. وكلما تعجّلت فيها كان ثوابك أكبر، لأنك بذلك تساعد الفقير على أن يشتري بعض ما يحتاجه بسرعة ، فتخفف عنه آلام الشعور بالحرمان. لذلك فإن من لا يدفع زكاة الفطرة لا يُقبل صيامُه، لأن من أعظم أسرار الصيام والحكمة من تشريعه هو الإحساس مع الفقير ومشاركته آلامه.

* العطاء يرفع النفس والبيوت :

الإمام الرضا عليه السلام بعث برسالة إلى ابنه الجواد الذي كان صغيراً لم



يتجاوز عمره عشر سنين يقول فيها «بني، إذا أردت أن تخرج فاجعل مدخلك ومخرجك من الباب الكبير» .

لماذا، وما معنى ذلك ؟

كان للإمام الرضا عليه السلام دار واسعة لها بابان: باب كبير يطل على الناس ، وباب صغير خلفي. وكان الخدم يخرجون الإمام الجواد ويدخلونه إلى الدار من الباب الصغير الخلفي حتى لا يجتمع عليه الفقراء إذا دخل وخرج من الباب الكبير ويطلبون منه المال. ولذلك أمره الرضا عليه السلام أن يكون دخوله وخروجه من الباب الكبير ليتصل بالناس ويجتمع عليه الفقراء والمحتاجون. وقال له في نفس الرسالة «..... وليكن معك شيء كثير من الذهب والفضة. أعط المحتاجين ولا ترد سائلا، فإني أريد أن يرفعك الله بالعطاء» .

إذن ترفع البيوت بالعطاء والعمل الصالح. وإلا فإن أموالك التي تكدسها في البنوك لا تنفعك عند الله شيئا حتى وإن كانت أموال قارون .

* الرجال الذين ارتفعوا ورفعوا الإسلام :

الرجال الذين رفعوا راية الإسلام وقواعده يصفهم القرآن الكريم بأنهم «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله». فذكر الله أعظم من التجارة المادية وجمع الأموال. فإذا جمعت المال ربما احترمك الناس لوقت قصير، ولكن عندما يذهب مالك فإنهم ينسونك. أما الثروة الحقيقية فهي العلاقة الصادقة مع الله لأن مردودها عظيم وهو

الجنة، وهي التي تبعد العذاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

ولذلك فإن المؤمن يعتبر المال وسيلة لإعلاء شأن الإسلام والمسلمين وليس غاية بحد ذاتها. والإسلام يعلمنا أن قيمة الإنسان هي في إيمانه وعمله الصالح ونفعه للناس وليس بمقدار ما يملك أو يكدس من الأموال. ولذلك: «من عظم غنياً من أجل غناه أكبه الله على منخرجه في نار جهنم». ومن سلم على أخيه المسلم الفقير بخلاف ما سلم على الغني برئت ذمة الإسلام منه .

* التاجر المؤمن :

إن الإسلام لا ينبذ التجارة والتجار وإنما يباركهما . فتسعة أعشار الرزق هي من التجارة، ومن تركها فقد ابتلي بنقص في العقل. ولكن أية تجارة ؟ ... إنها التجارة المؤمنة .

فالتاجر المؤمن هو الذي ينصرف إلى عمله وتحصيل الربح والكسب، ولكن إذا حضرت الصلاة فإنه يترك كل شيء ويتوجه إلى المسجد والعبادة. وهو الذي يسارع إلى أي لقاء أو محاضرة فيها نور ومعرفة وإيمان. كما يسارع إلى دعم أي مشروع خيري فيه مصلحة عامة للمسلمين أو فيه عون للفقراء والمساكين. والتاجر المؤمن هو قبل كل شيء الذي يخرج زكاة أمواله فيبارك له الله فيما كسب ويضاعف أجره.

(١) الصف/ ١٠-١١.

إن الإسلام في الحقيقة لا يدعو إلى نبذ الدنيا كلياً، وإنما يدعو إلى الأخذ منها بقسط، على أن يكون عمله موجهاً لصالح آخرته. فالدنيا مزرعة الآخرة، ومن لا معاش له لا معاد له. وفي القرآن الكريم: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (١).

* ارتفاع الإنسان بمخافة الله :

«يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار». في الخوف من الآخرة يرتفع الإنسان إلى درجات عليا ، فيقبل على عمل الخير ومساعدة المسكين والمحتاج، لا يطلب من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً في هذه الدنيا وإنما يطلب وجه الله. وهذه الدرجة السامية من علو النفس وعظمة الإيمان تتمثل بأهل البيت الذين عناهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١).

فالخوف من ذلك اليوم، يوم الحساب، يجعلك تنفق وتعطي وتحسب آلام الناس، فيقيك الله شر ذلك اليوم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ..

(١) القصص / ٧٧.

(٢) الإنسان / ٨-١٠.

والنضرة والنضارة تكون في الوجه، والسرور في القلب. لماذا ؟ لأنهم عندما أعطوا الفقير ابتسموا له ولم يلاقوه بوجه عابس، فأدخلوا السرور إلى قلبه، فعاد إليهم ذلك الفرح والسرور بمشيئة الله .

*** ارتفاع النفس بإحياء أمر أهل البيت - عليهم السلام - .**

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «يا فُضيل، تجلسون وتحدثون ؟» قال: نعم سيدي! ... قال: «أما إنني لأحب تلك المجالس، فأحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا» .

وإحياء أمر أهل البيت هو إحياء للقلب ، لأن في سيرة أهل البيت الحكمة والموعظة الحسنة ، وعليه يقوم أساس كل بناء صحيح .

يقول أمير المؤمنين لولده الحسن : «بني، أحيى قلبك بالموعظة». لماذا أنزل الله الحكمة على لقمان الحكيم؟ لأنه كان يحيى القلوب بالموعظة. طلب إليه أحد الملوك أن يذبح نعجة ويأتيه بأطيب ما فيها، فذبحها لقمان وجاءه بقلبها ولسانها . ثم طلب منه بعد مدة أن يفعل نفس الشيء على أن يأتيه بأخبث ما فيها، فجاءه أيضاً بالقلب واللسان. لماذا ؟

قال لقمان: إذا طاب الإنسان، فأطيب ما فيه قلبه ولسانه، وإذا خبث فأخبث ما فيه قلبه ولسانه!

* بالعلم والإيمان يرتفع الإنسان :

ولكن العلم ليس مجرد ادعاء زائف. والعلم الذي يرفع الإنسان درجات ودرجات هو العلم الذي يستقيه من نهج أهل البيت وبحرهم الزاخر. والخول إلى العلم لا يكون إلا من بابه الصحيح وهو أمير المؤمنين عليه السلام.

يقول رسول الله : «أنا مدينة العلم وعلي بابها. فمن أراد المدينة فليأتها من بابها» أي إذا أردت العلم النبوي الشريف فعليك أن تقصده من باب علي بن أبي طالب عليه السلام.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «علمني رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف الف باب».

يقول عبدالله بن عباس: جلست عند أمير المؤمنين يفسر لي معنى النقطة الموجودة في أول كلمة من البسملة وهي «بسم» فأخذ يفسرها من بعد صلاة الصبح إلى وقت الزوال، والعلم يتدفق منه مثل السيل. عندها قلت له: سيدي، مع ذلك أراك ما انتهيت! قال أمير المؤمنين: يا ابن عباس، لو شئت لأوقرت أربعين بعيراً في تفسير معنى النقطة التي تحت الباء في كلمة «بسم».

والفخر الرازي في تفسيره يقول: أنا استخلصت ثلاثين ألف مسألة من سورة الحمد. فإذا كان الفخر الرازي كذلك، فكيف يكون أمير المؤمنين؟

يقول أمير المؤمنين لابن عباس ما معناه : «كل القرآن الكريم يلخص بسورة الحمد، فهي أم الكتاب. وكل ما في سورة الحمد موجود في

البسمة، وكل ما في البسمة موجود في النقطة التي تحت الباء، وأنا هذه النقطة» .

إن النقطة لها معنى عميق. فإذا حذفت النقط من القرآن فهل يُقرأ القرآن ؟ كذلك إذا أبعدت القرآن عن عليٍّ أو أبعدت علياً عن القرآن فلا يبقى عليٌّ ولا القرآن .

ثم يستمر وهج عليٍّ وعلمه في ولديه الحسن والحسين - عليهما السلام - وفي الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء .

هذا العلم انتقل إلى الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام. فبعد واقعة الطفّ وضع الإمام السجّاد القواعد والأسس للحضارة الإسلامية. ثم جاء ولده الإمام الباقر عليه السلام وكان عمره أربع سنوات - فوقف في مجلس يزيد بن معاوية مع السبايا من آل رسول الله .

قال يزيد لمن كان عنده: ماذا تشيرون عليٍّ في أمر هؤلاء ؟ فقال بعضهم : اقتلهم .

وقف الإمام الباقر عليه السلام وقال: يا يزيد، إن مجلسك يشبه مجلس فرعون، مع فارق واحد كبير. قال يزيد: وما هو؟ قال: لما دخل موسى وهارون على فرعون، وسأل فرعون أتباعه ماذا يفعل بهما، قال أتباعه: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (١).

فهم لم يشيروا عليه بقتل موسى وهارون. بينما أتباعك أشاروا عليك بقتلنا. أتعرف لماذا؟ قال يزيد: لماذا؟ قال الإمام: لأن مجلسكم كله أدياء أبناء أدياء. ولا يأمر بقتل أبناء الأنبياء إلا الأدياء .

(١) الأعراف/ ١١١.



ثم جاء الإمام الصادق عليه السلام. ويكفي أن نعلم أن المذاهب الفقهية الإسلامية قد تدفقت من بحر علمه .

كذلك الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، باب الحوائج، وولده علي بن موسى الرضا عليه السلام .

ثم تأتي إلى الإمام الجواد عليه السلام. هذا الإمام الذي أجاب عن ثلاثين ألف مسألة في مجلس واحد وبحضور أكبر العلماء في عصره، ولم يكن عمره يتجاوز عشر سنين .

وهذا الأمر لا تجده في تاريخ البشرية على مرّ السنين. وهكذا تجد العلم والنور والإيمان تتدفق من الأئمة وصولاً إلى الإمام الحجة محمد ابن الحسن عجل الله تعالى فرجه الشريف .

هؤلاء الأئمة سلسلة ذهبية متصلة برسول الله ، فهم من بيت واحد، ومن جدّ واحد. وهذا بخلاف أسباط بني إسرائيل الاثنى عشر الذين ينتمي كل واحد منهم إلى عشيرة مختلفة عن الأخرى .

هؤلاء هم نورنا الذي نهتدي به، وقد أمرنا الله بطاعتهم، لأنهم حجة الله في الأرض، والعالم كله يخضع لآخر الأئمة المهدي المنتظر.

وهذه هي البيوت التي أذن الله أن تُرفع وياتبائعهم ترتفع نفوسنا.. والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

في القلب فاطمة !

علي عليه السلام: إنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم ، فكيف بالغايب الذي غاب أخاه وعيَّره بلواه^(١) (غابه أي اغتابه من الغيبة، والعرب تقول: غابه، وعابه..).

وقال: أيها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين، وسداد طريق فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال، أما أنه قد يرمي الرامي وتخطئ السهام، ويحيل الكلام، وباطل ذلك يبور، والله سميع وشهيد أما أنه ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع، فتحروا الحق واحرصوا عليه، وتحروا الباطل وتجنبوا كل سبيل إليه^(٢).

(١) علي إمام الأئمة ص ١٦٤.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٦٧.

القلب منطقة حرة في الإنسان

في إمكانك - وأنت تحمل السلاح - أن تكره إنساناً بريئاً، على خلع ملابسه ، وسلب نقوده ومتاعه بالقوة .

وفي إمكانك - أيضاً - إذا كنت من أهل السلطة أن تجعل الأغلال في أعناق الناس، وتضع القيود في أيديهم، وتأمر باعتقالهم ونفيهم، أو تشريدهم أو مصادرة حرياتهم بالكامل .

وأيضاً في إمكانك أن تصب ألوان العذاب على شخص برئ، كأن تحبسه، أو تعذبه أو تذبحه، لا فرق .

كل ذلك وأكثر منه يستطيع الواحد منا أن يصنعه بالناس بقوة السلاح والإكراه.. ولكن عليك أن تعرف أنه ليس في استطاعتك أن تدخل حبك في قلب أحد من الناس بالقوة.. لأن القلوب لا تتعامل مع الإكراه، ولا تفهم لغة السياط. وهذه حقيقة تصفع من يفض الطرف عنها..

يقول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «إن القلب إذا أكره على شيء عمي».

ومعنى ذلك أن القلب منطقة حرة لا تتعامل مع الإكراه ولا تتعاطى مع السياط وأعقاب البنادق .

أجل.. إن القلب منطقة معزولة عن سلطة القوة بالكامل .. ونحن عندما نقول القلب، فإننا لا نريد بذلك القلب المادي، وإنما القلب في

الفكر الإسلامي يطلق على شيء أكبر من الروح والنفس والعقل، والفطرة، بل إن العقل لا يشكل سوى وظيفة واحدة من وظائف القلب. يقول القرآن الكريم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (١).

إذن فإحدى وظائف القلب العقل ، تماماً كما نقول: وظيفة العين النظر.. ووظيفة الأذن السمع، ووظيفة اللسان النطق، كذلك نقول وظيفة القلب العقل، أي أن للعقل وظيفة واحدة يؤديها القلب، هذا الوجود الجبار الذي يحيط بكل جوانب الإنسان!

من هنا، فإن القلب في الفكر الإسلامي - كما أكد القرآن الكريم - معناه خلق عظيم أوجده الله سبحانه وتعالى في الإنسان، وهو ينطوي - في وجوده - على العقل والفكر، والروح والنفس، والفطرة، وهو الذي ينظم ويسير آلات الروح، وأدوات العقل، وجوارح النفس.. ولولاه لما استقام للإنسان وجود.. وإنما أطلق القرآن الكريم عليه اسم القلب، ذلك لأن القلب هو مركز البدن وهو الذي يحرك دولا ب الجسم، فكما أن هذا القلب المادي الذي يضطرب بين حنايا الضلوع لتحريك دولا ب البدن، كذلك القلب الذي نتحدث عنه حيث هو بوجوده يشكل مركز القيادة في الإنسان فيحرك العقل، والنفس، والروح، والفطرة، ويعطي كل ذي حق حقه، ويبين وجهة الجميع، لذلك يقول القرآن: ﴿لَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢).

(١) الحج / ٤٦.

(٢) ق / ٣٧.

إذا عرفنا ذلك أدركنا أن القلب هو منطقة حرة، لا تتحكم به قوة،
مهما كانت تلك القوة عاتية وثقيلة .

يقول القرآن الكريم: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (١).

وتأملوا دقة التعبير في هذه الآية الكريمة. إنها تقول «إلا من أكره
وقلبه مطمئن بالإيمان» فنحن - هنا - أمام رجل تأخذه الشياطين من كل
مكان، ولكنها لا تتال من قلبه بمقدار ذرة واحدة.. فالشياطين تنهش
بدنه.. والإكراه يصب جام غضبه عليه، ولكن قلبه ظل مطمئناً
بالإيمان. فلم تفلح عجقة الشياطين بتحريك قلبه، لأن الله سبحانه - هو
وحده - الذي يحول بين المرء وقلبه .

فهذا بلال الحبشي الذي كان عبداً مملوكاً لأمية بن خلف ، وما كاد
يعلن إيمانه ويشهر إسلامه حتى جن جنون أمية وفار حقه، فكان
يخرج بلالاً إلى جبال مكة ويطرحه أرضاً فوق صخورها الملتهبة وتحت
شمسها المحرقة ثم يذيقه ألوان العذاب. يقول له : يا بلال اكفر
بمحمد وبرب محمد!! .. فما كان من بلال إلا أن رفع إصبعه بوجه
أمية وقال: أحد.. أحد.. فرد صمد .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإكراه لا ينال من قلب
المؤمن شيئاً.. فقد كان بلال غارقاً في فيض نوراني رباني، جعله
يتعالى على كل قوى الإلحاد والكفر والجبروت، بل إن كل قوى العالم
مجتمعة لا تتمكن أن تخفض إصبع بلال .

وخلال جولات التبليغ، ورحلات التبشير الإسلامي التي كنت أقوم

(١) النحل / ١٠٦ .

بها بين الحين والحين في القارة الأفريقية، شدّت انتباهي ظاهرة عند المصلين الأفارقة وهي أنهم أثناء التشهد يرفعون إصبعاً من أصابعهم «وهي السبابة» أي أن كل مصلّ حينما يتشهد في صلاته يحرك سبافته «الإصبع الثاني بعد الإبهام» فقلت لهم في صلاة الجماعة وفي خطبة الجمعة، قلت: أتدرون إلى أي شيء تشير هذه الإصبع؟.. إنه إصبع بلال الحبشي لأن بلالاً هذا منكم، وكان يرفع إصبعه تحت التعذيب ويقول: أحد.. أحد.. وأنتم الآن ترفعون أصابعكم في خلال التشهد وتقولون: أحد.. أحد.. فهذا يعني أن إصبع بلال المرفوعة بالشهادة ما تمكنت الأيام ولا السنون، ولا قوى الإلحاد أن تخفضها حتى وصلت إليكم بهذا الشكل!

وما يقال في بلال يقال أيضاً في آل ياسر حيث كانوا يتعرضون لأنواع العذاب تحت سياط وحراب المشركين.. لا شيء، إلا لأنهم أعلنوا إيمانهم بالله الواحد القهار.. فما نقموا منهم إلا أن قالوا ربنا الله..

وكان الحبيب المصطفى يمر على آل ياسر وهم يقاسون العذاب، يقول: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

كان ياسر.. وكانت سمية، وكان عمار، هؤلاء كانوا يشكلون عائلة آل ياسر الذين بشرهم النبي بالجنة .

أما ياسر والد عمار فقد مات تحت التعذيب الوحشي الذي كان يديره أبو جهل، وأبولهب، وأما سمية أم عمار فقد نفضت حياتها بفعل طعنة صماء وحشية تلقتها من أبي جهل، فكانت أول شهيدة في

الإسلام.. وأما عمار فقد كان صامداً وصابراً ومحتسباً تحت التعذيب وبغية إنقاذ أبويه ذكر آلهتهم بخير، فلما تبين له مصرع أمه وأبيه، عاود صموده في وجه الظالمين.. ونزل القرآن الكريم بهذه الآية الكريمة، يزكي عمار بن ياسر ويعلن أن الشياطين التي مزقت بدنه، لم تتمكن أن تحرك ذرة واحدة في قلبه، بل كان قلبه أقوى من الجبال الرواسي .

على أن التاريخ حافل ومليء بصور البطولة والعظمة التي يتعرض أصحابها للإكراه على أبدانهم دون قلوبهم .

والحقيقة أن الأبدان وحدها هي التي تتعرض للإكراه، أما القلوب الحرة، فهي في أعلى عليين، تسبح في رحاب الإيمان، والاطمئنان .

ودعني أذكرك، بأسية زوجة فرعون تلکم المرأة التي آمنت بالله سبحانه وتعالى، فأعلنت الحرب ضد بعلا فرعون الظالم الجبار ..

وماذا كانت النتيجة ؟ ...

طرحها فرعون تحت ألوان العذاب، وراح أنصاره يمشطون بدنها الطاهر بالحديد والنار.. أما هي، فكانت غارقة في بحر رحمة الله.. كانت تسبح الله وتقديسه، وقلبها مطمئن بالإيمان، ولسانها يلهج بذكر الله وبالدعاء، فكانت تدعو الله سبحانه أن ينقلها إلى جواره، ويخلصها من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين .

﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

(١) التحريم/ ١١.

ونحن عندما نقرأ هذه الآية بشيء من التأمل نجد أنه قدمت العندية على البيت، أي أنها بدل أن تقول: رب ابن لي بيتاً في الجنة، قالت: رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة، بمعنى أنها قدمت العندية، وذلك إشارة إلى أنها طلبت جوار رب العباد قبل البيت، أي أنها طلبت الجار قبل الدار .

وكل هذه الصور البطولية المشرفة ، التي يحفظها التاريخ لنا، لتؤكد شيئاً واحداً، وهو أن القلوب جعلها الله سبحانه محصنة بحصن الحرية وقلعة الاستقلال، فلا أحد يتمكن أن يقتحم قلعة الحرية هذه بالقوة، ولا بالإكراه.. إنما الله سبحانه وحده هو القادر على التأثير بالقلوب :

﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (١) .

وفي آية أخرى يقول الحق: ﴿وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢) .

فلا قوة السلاح تتمكن أن تحرك القلوب، ولا المال يستطيع أن يؤثر في القلوب، لكن الحق وحده هو الذي يدخل القلوب ويؤثر فيها.. أما غيره فلا مكان له في القلب ..

صحيح، لقد كان هناك فئات من المشركين والكفار، وكان الإسلام

(١) الأنفال / ٢٤ .

(٢) الأنفال / ٦٢-٦٣ .

يؤلف قلوبهم بإعطائهم سهماً من الزكاة وهم المؤلفة قلوبهم، ولكن ذلك لا يعدو كونه علاجاً وقتياً لا يترك في القلب أثراً بالغاً تأثيرياً. فمثلاً كان أبو سفيان زعيم المؤلفة قلوبهم، وقد أعطاه الإسلام عطاء من لا يخاف الفقر، ولكنه لما وصلت إليه السلطة انقلب على وجهه وخسر الدنيا والآخرة، وكان يقول كلمته المعروفة: يا بني أمية تلاقفوها - أي الخلافة - تلاقف الكرة، فو الذي يحلف به أبو سفيان، لا جنة ولا نار..!!

إذن فالبحت هنا لا علاقة له بالمؤلفة قلوبهم، لأن أولئك أعطاهم الإسلام علاجاً آنياً الهدف منه إسكاتهم لفترة معينة، بغية انتصار الإسلام على أعدائه .

من كل ذلك نطلع بفكرة مفادها: أن القلوب لا يحركها المال ، ولا الحديد.. إنما يحركها الحق، والعدل والإيمان، ولذلك اختارها الله سبحانه فجعلها وعاء الدين، ومكان الإيمان .

ومن هنا فإن الدين لا يدخل القلوب بالسياط والكرباج، وإنما يدخلها بالرحمة والحب والسلام. يقول القرآن الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (١).

(١) البقرة/ ٢٥٦.

لا إكراه في الدين

* أين مكان الدين في الإنسان؟

إن الله سبحانه وتعالى، قد اختار لهذا الدين مكاناً في الإنسان، بعناية فائقة، وحكمة بالغة، جعله في القلب. ونحن نعرف أن القلب هو الشجرة الحرة في النفس، ولذا فهو يرفض الإكراه، ولا يتعامل إلا مع الأحرار والحرية .

أجل.. فالقلب يمثل شجرة الحرية في وجود الإنسان.

يقول الحق: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (١).

والسؤال هو : لماذا الدين يرفض الإكراه ولا يتعامل معه ؟ ...

والإجابة تتلخص في النقاط التالية :

أولاً - إن الله سبحانه خلق الناس يوم خلقهم أحراراً ، لم يكرههم في طريق معين، وإنما تركهم أحراراً بعد أن بين لهم الرشد من الغي، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. وقد كان في امكانه - عز وجل - أن يجبرهم على طريق الخير مثل الملائكة، ولكنه لم يفعل وإنما تركهم هكذا يختارون الطريق الذي يشاءون حتى يكون الواحد منهم أرفع من الملائكة لأنه جاء إلى الحق في طواعية وتلقائية دون جبر ولا إكراه .

(١) البقرة/ ٢٥٦.



﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١) .

ثانيا - إن الدين إنما جاء من أجل التحرير ، وإعطاء الناس
حرياتهم، فقد جاء الإسلام لتحطيم الأغلال والقيود، يقول القرآن
الكريم: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (٢) .

وليس من المعقول أن يخلقنا الله أحراراً ثم يفرض علينا ديناً بالقوة
والسياط، خصوصاً ونحن نعرف أن الإسلام إنما جاء لرفع القيود
وتحطيم الأغلال عن الناس .

ثالثاً - إن الإسلام هو دين الحرية وصانع الأحرار، ولذلك نسمع
نداء الإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام يوم عاشوراء ينادي: «كونوا
أحراراً في دنياكم..» ويقول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام «لا تكن
عبد غيرك وقد جعلك الله حراً». والإكراه ضد الحرية .

رابعاً- إن وظيفة الأنبياء هي وظيفة التذكير وليس وظيفة فرض
العقيدة بالقوة والسلاح. يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾
لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٣) .

ولكن من يتذكر؟.. فيجيء القرآن ليقول: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ .

(١) يونس / ٩٩ .

(٢) الأعراف / ١٥٧ .

(٣) الغاشية / ٢١ - ٢٢ .



أي أهل العقول، وأصحاب الفكر، وحملة الوعي والرشد، هؤلاء وحدهم هم الذين تنفعهم الذكرى.. لأن الذكرى تنفع المؤمنين، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

أما إنزال الحديد وإعداد القوة في الدين، فهي لرفع الظلم عن الناس، وليس لاعتناق العقيدة.

إن الإسلام لا يرفع السلاح بوجه العقيدة، مهما كانت تلك العقيدة مسودة، ومزيفة، ولكنه يرفع السلاح بوجه الظلم.. فأنت حر في أن تعتقد العقيدة التي تختارها ولكنك لست حراً في أن تظلم الآخرين. يقول القرآن: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ (١).

وفي القرآن الكريم آيات مباركة كثيرة تشير إلى هذا الجانب بالذات مثل آية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (٢).

وآية: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٣) ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ (٤).

وبهذا الصدد يقول الإمام علي بطل الإسلام الخالد : «فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، أونظير لك في الخلق ..».

(١) الشورى / ٤٢ .

(٢) التوبة / ٦ .

(٣) الممتحنة / ٨-٩ .

ولكننا نعرف أن أهل الكتاب كانوا يتمتعون بعيش رغيد وكريم تحت ظل الإسلام، كما هو معروف لمن له أدنى إلمام بالتاريخ الإسلامي والفكر الإسلامي الأصيل، وإلا فحتى الحروب الاستراتيجية العسكرية في الإسلام هي الأخرى قائمة على مبدأ الدفاع وليس على مبدأ الهجوم.. ويحفظ التاريخ أن الخليفة الثاني عمر ارتكب خطأ فادحاً يوم حوّل الحروب الإسلامية من قاعدة الدفاع إلى قاعدة الهجوم، فقد سبب ذلك تأخراً في انتشار الإسلام رغم الفتوحات العريضة التي امتدت في الأرض .

وسيمر علينا في مكان آخر من هذا الكتاب بحث هذه النقطة بالذات، لأنها نقطة ساخنة، وبالفرة الأهمية إذ إن بحثها يكشف عن الإسلام الحقيقي الذي أراده الله هدىً ورحمة للعالمين .

خامساً - إن القلوب لا يحركها الحديد ولا النار، وإنما يحركها الحق.. والإسلام دين الحق ودين الحرية.. هذا بالإضافة إلى أن القلب منطقة حرة لا يدخلها إلا من يحمل غصن الزيتون بنفسه، ولذلك فقد اختار الله سبحانه هذه المنطقة لتكون مكاناً للدين والإيمان. حتى أن القرآن الكريم الذي هو كتاب الحرية والأحرار، أنزله الله في منطقة الحرية في القلب: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ﴾ (١) .

ولاحظوا دقة الاختيار في المكان، والمكين .

والنتيجة : أن القرآن الكريم حين يقول: لا إكراه في الدين، فإنه يشير إلى أن مكان الدين في القلب، والقلب يرفض الإكراه، أولاً، وثانياً

(١) الشعراء / ١٩٣-١٩٤ .

يقول: لا إكراه في الدين .. وذلك لأنه، قد تبين الرشد من الغي.. فطريق الرشاد واضح، وطريق الغواية واضح أيضاً.. والله عز وجل بحكمته، ولطفه، قد زود هذا الإنسان بفطرة صائبة متجهة إلى الله دائماً، ثم أعطاه العقل فجعله حجة باطنة موازية للحجة الظاهرة المتمثلة بالأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .

يقول الإمام علي عليه السلام: «إن لله حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة.. فالظاهرة تتمثل في النبي، والباطنة تتمثل في العقل .. » ولا شك أن هناك تناسقاً وترابطاً وتناغماً بين هاتين الحجتين، فالأنبياء وظيفتهم إثارة دفائن العقول، حتى كأن الحجة الظاهرة «وهو النبي» إذا تحركت، وحركت الموج الفكري، وموج الإيمان والهداية في الحجة الباطنة التي يحفظها العقل .. وهكذا تكون الأمور واضحة لدى الناس جميعاً، ويكون القرآن الكريم صادقاً، كذلك حين يقول: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (١).

وفي آية ثانية: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ .

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (٢).

أما الإكراه، فمرفوض في الشكل والأساس، والجملة والتفصيل.. يقول علي عليه السلام: «إن القلب إذا أكره على شيء عمى». وما أروعها من كلمة تجمع التعبير كله.. إن القلب إذا أكره عمى، لماذا؟ لأنه لا يفهم لغة

(١) الإنسان/ ٣.

(٢) الكهف/ ٢٩.

الإكراه، ولا يعرف لغة السياط وكل من يحاول إدخال الدين في القلوب
بالسياط فمحاويلته فاشلة سلفاً، وساقطة حتماً.

* الحرية المنحورة :

ولكن .. أين هي الحرية ؟.

إن الحرية اليوم تعاني من الطعن والضرب، والنزف! الحرية اليوم
مذبوحة من الوريد إلى الوريد .. ونحن نتغزل بشعرها وجمالها،
ومفاتها، ولكن من دون أن يكون لها وجود وحضور بيننا ... نحن
عاشقون للحرية .. وكلنا يفتش عنها في أركان البلاد .. ولكننا حين
نصل إليها .. نجدها منحورة، فنقف نتفرج عليها وهي تتزف من النحر.
إنها كناقية مذبوحة، يسيل دمها من المحيط إلى الخليج. دون أن
نذرف عليها حتى دمة واحدة .

الإيمان والأخلاق = الإنسان العاقل

الأخلاق والإيمان بالنسبة للإنسان، هما أساس شخصيته، لأن فيهما طاقة خلاقية تجعل عمل المرء عملاً صالحاً طيباً. وللتدليل على ذلك نتصور سيارة فخمة ولكن بغير محرك فهل تساوي شيئاً؟ أو قل: سيارة لا ينقصها شيء إلا جهاز السيطرة فهي تتطلق بسرعة ولكن ليس في إمكانك أن تكبح جماحها، وأن توقفها.. فهل تساوي قيمتها فلساً واحداً؟ كلا.

ونفس الشيء يقال في الأخلاق والإرادة التي تكبح جماح الشهوات والنزوات في الإنسان فلو لم يكن للإنسان عقل يفكر وقدرة على ضبط نفسه ولجم شهوته لكان كالحيوان، كما قال المتنبى :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

ومثال آخر يضرب للإنسان الجميل الغني المترف الذي لا أخلاق له ولا دين، أقول: مثال يضرب لهذا اللون من الناس بالقصر الجميل الأنيق الذي يملكه رجل أحمق، أو قل: مهد جميل مجلجل بالديباج والحرير، ولكن، فيه طفل مشلول لا يستطيع أن يتحرك أو أن يسمع المناجاة والمناغاة... فما قيمة هذا المهد؟ لا قيمة له.. لأن المكان بالمكين، وهكذا فإن الإنسان الذي لا يملك إيماناً لا يستحق أن يقال عنه بأنه إنسان لأن الأنسان، حسب نظرية القرآن الكريم، يساوي الإيمان والعمل الصالح.. فإذا جئنا بالإيمان وأضفنا له العمل الصالح، فإن النتيجة لهذه المقدمة هي الإنسان المؤمن الطيب السعيد الذي ينفع

الآخرين قبل أن ينفع نفسه. يحمل الحب للناس جميعاً، ومعلوم أن
حملك الحب للناس يرفعك درجات في معارج السمو والكمال .

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «إن من حق المؤمن على
المؤمن المودة له في صدره، والمواساة له في ماله، والخلف له في أهله،
والنصرة له على من ظلمه»^(١) .

(١) الكافي: ١٧١/٢



حرية الإنسان لا تخرجه عن إرادة الله

جاء في الحديث «أن الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تتافر منها اختلف» فالذي يحب الفضائل يميل قلبه إلى أهل البيت - عليهم السلام - .

يقول القرآن الكريم: ﴿فَجَعَلْ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (١).

وليس كل الناس وإنما بعض الناس لأنه قال أفئدة من الناس ولم يقل: واجعل أفئدة الناس وذلك أن الدعاء الأول يوافق الفطرة التي وجد البشر عليها بينما الثاني فيه تجديف على الفطرة ، فالناس كلهم لا يمكن أن يتوجّهوا مرةً واحدةً إلى الخير .. بل لا بدّ أن ينقسموا قسمًا إلى الخير وآخر إلى الشر ... وهكذا جرت إرادة الله عز وجلّ، فلو شاء الله لجعلهم في طريق واحد، بمعنى أن ينزع عنهم الحرية والاختيار. وماداموا أحراراً مختارين فإن الطرق التي يسلكونها لا بدّ أن تختلف بعضها عن بعض. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

إذاً: فالآية تشير إلى بعض الناس، وليس كلهم لأن ذلك يخالف الواقع والحقيقة التي وجد البشر من أجلها - كما أسلفنا - والحقيقة هي أن البشر لا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم الله .. أي أوجدهم بهذا

(١) إبراهيم/ ٣٧.

(٢) يونس/ ٩٩.

الشكل من التفاوت ليتم الأمر وتجري سنن الله وفقاً لإرادته هو وليس لإرادة أحد غيره. إنما الإنسان مختار في حياته يستطيع أن يسلك طريق الخير، كما يستطيع - بنفس القدر والقوة - أن يسلك طريق الشر، ولكن هذا لا يعني أنه خارج عن إرادة الله أو قل: خارج علي سلطة الحق.. وإنما الصحيح أن الله شاء أن يجعل الإنسان يشاء خيراً أو يشاء شراً.. فإشإءتك هي منحة وعطية من إإشإءات الله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

وما دامت الإإشإءة التي يتمتع بها الإنسان هي عطية منحها له الخالق عز وجل فإن ذلك يعني حرية الإنسان وإختياره في حدود العقيدة والفكر والعمل.. فهو في إمكانه أن يؤمن وفي إمكانه أن يكفر لأنه هكذا جرت خلخته وجاءت فطرته . ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيُكْفُرْ﴾ (٢).

إذا: فالقلوب تميل إلى أهل الحق والعدل والحرية إذا كانت قلوباً سليمة غير ملوثة ولا مضروبة بسهام الشيطان، أما إذا تورمت القلوب بالحق والنفاق فإنها - تنفر من أهل الصلاح وتتجه إلى أهل الفسوق والعصيان.

ويحدث أحياناً أن يظهر المرء حبه لأعداء الله أو لعدو من أعداء الله وهو لا يدري أنه هذا عدو لله فإذا تبين له أنه عدو له فإنه يتبرأ منه في الحال... وهذا كثيراً ما يحدث ويحصل بين الأحاب والأصدقاء.

(١) التكوير/ ٢٩.

(٢) الكهف/ ٢٩.



هذا جانب، وجانب آخر فإنه يتوجب على الواحد منّا أن يتجنب أعداء أهل البيت من الحكّام الخونة والظلمة وأعوان الظلمة. وفي الوقت ذاته، ينشر فكر أهل البيت وتعاليمهم ويحدّث بأخبارهم ومحاسن سيرتهم وكل سيرتهم حسنة طيبة مضيئة، وذلك حتى يتوجه الناس إليهم، لأن الناس إذا عرفوا محاسن حياتهم توجهوا إليهم واقتدوا بهم وساروا على مناهجهم .

يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ما معناه: حدثوا الناس عنا، عن فضائلنا، فإن الناس إذا عرفوا محاسن حديثنا اتبعونا .

وللإمام الرضا عليه السلام حديث يصف فيه كلامهم بأن له نوراً وأن عليه حلاوة، ويريد بالنور الفكر الإسلامي الأصيل، كما يريد بالحلاوة جمال التعبير، وقوة الفصاحة والبلاغة. يقول: «فإن لكلامنا حقيقة وعليه نوراً»^(١) .

وقد تقدم أنه قال: رحم الله عبداً أحيا أمرنا - وكان يتحدث مع راوية اسمه عبدالسلام الهروي فقال له: كيف يحيي أمركم ؟ فقال الإمام عليه السلام: «يتعلم علومنا ، ويعلمها ، ويعلمها الناس فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا» .

(١) الحقائق الناضرة: ١٠/١ .



الفكر الإسلامي والعوالم الأخرى

إن نظرة واحدة نلقيها على الفكر الإسلامي تكفي لإقناعنا أن هناك ألف عالم وعالم في هذا الكون، وليس الخلق كله في الأرض، وإنما نحن في الأرض، وغيرنا في السماء.. ففي القرآن الكريم آية تؤكد ذلك وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (١).

وكذلك قول النبي : «إن خلف أرضكم هذه أرضاً فيها قوم ما عصوا الله طرفة عين» .

وقول علي أمير المؤمنين عليه السلام: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض، مربوطة كل مدينة بعمودين من نور» .

وفي حديث آخر: «إن هذه النجوم مدائن مثل المدائن التي في الأرض، بين مدينة ومدينة عمود من نور طوله ٥٠٠ عام». وهي إشارة إلى سرعة الضوء، لأن قوله: بين مدينة ومدينة عمود من نور طوله خمسمائة عام، يشير إلى سرعة الضوء، وأن المسافة التي تفصل بين مدينة وأخرى يقطعها الضوء في خمسمائة عام .. ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول: إن الإمام علياً أمير المؤمنين عليه السلام هو أول من قاس المسافات الكونية بسرعة الضوء وهذه حقيقة علمية أدهشت العلماء في اكتشافها على يد نيوتن وأنشتين.. ومع الأسف الشديد إننا لم

(١) الشورى / ٢٩.



نتمكن من إيصال هذه الحقائق العلمية إلى العالم ليعرفها .. وإن كان العالم أحياناً يعرفها ويجحدها .. جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم .

يقول الإمام الباقر - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - : «ولعلك ترى أن الله تعالى إنما خلق هذا العالم الواحد، أو ترى أن الله عز وجل لم يخلق بشراً غيركم؟ بلى والله لقد خلق الله تبارك وتعالى ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، وأنتم آخر تلك العوالم... وأولئك الأدميين».



في الغيِّ والرشد

فكرتُ في الآية الكريمة التي تقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (١).

ثم قرأت كلمة للإمام علي عليه السلام يقول فيها: «كفاك من عقلك ما أوضح لك سبل غيِّك من رشدك..» وتأملت الكلمة هذه، فوجدت بينها وبين الآية الكريمة السالفة، ترابطاً فكرياً مدهشاً.. وهذا الترابط يؤدي إلى نتيجة مفادها: إنما يتبين الرشد من الغي، من طريق الرشاد، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. ومن هنا يظهر واضحاً، أن العقل، له وظيفة واحدة، وهي: كشف الحقائق أمام الإنسان. فهو حجة باطنة، كما أن الأنبياء حجة الله الظاهرة على الخلق.

(١) البقرة/ ٢٥٦.

في بيت فاطمة عليها السلام

قبل أربع سنوات كنت في نيجيريا، في أفريقيا، أيام شهر رمضان المبارك، أحيي لياليه، بإلقاء محاضرات، وقراءة القرآن في دور العبادة، وفي الحسينيات والتكايا... وأحياناً كنت أذهب إلى دار الإذاعة والتلفزيون، لإلقاء محاضرات عن الدين والعقيدة، والإسلام، إذ كان وزير الإعلام - يومذاك - متفهماً لمهمة التبليغ، ورسالة الداعية الذي يزور تلکم الديار البعيدة.

وكانت الأمور تجري على سجيتها وبساطتها في كل البلاد، حتى أنني - غالباً ما كنت أذهب لصلاة الجمعة، لإلقاء خطبة فيها، وكانت الحشود أكثر من أن يحصيها قلم أو كتاب، على أن عظمة صلاة الجمعة في نيجيريا معروفة، ومألوفة ومشهورة وذلك لكثرة الحشود التي تتدفق كالشلال على مساجد الصلاة والعبادة.. أقول: هكذا كانت تجري الأمور حتى حدث ما لم يكن في الحسبان - طبعاً بالنسبة لي أنا لا للمواطنين - حدث أن رأيت الجماهير تتدفق في الشوارع ليلة النصف من شهر رمضان حاملة معها القناديل والفوانيس والألوية الخضراء، وهي تردد الأهازيج والأناشيد والفرحة بادية على وجوه الجميع ..

وكم كانت المفاجأة كبيرة وقوية بالنسبة لي عندما سألت الناس عن المناسبة التي دعت الجماهير لأن تخرج بهذه الطريقة المحبوبة فأجابوني: أن المناسبة هي ذكرى مولد الإمام الحسن الزكي سبط



النبي، وابن الزهراء البتول.. الحسن بن علي بن أبي طالب أسد الله
الغالب - عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام - .

أجل كان ذلكم الاحتفال أكبر احتفال أشهده في حياتي بمناسبة
مولد الامام الحسن .

لقد رأيت الشعب كله يخرج في فرحة غامرة تعبر عن مدى
احترامهم لهذه الذكرى العظيمة كانوا يوزعون الحلوى في الشوارع
وينشدون الأناشيد الدينية في المساجد والتكايا وفي البيوت أيضاً .

ورأيت شيخاً عبر شاشة التلفزيون يحدث الناس عن مولد الإمام
الحسن عليه السلام ثم وجهت الدعوة لي شخصياً فذهبت الى دار الإذاعة
والتلفزيون وتحديث مطولاً عن هذه المناسبة الكريمة .

لقد ولد الإمام الحسن في ليلة النصف من رمضان ولدته أمه قبيل
صلاة الفجر فقامت واغتسلت وصلت صلاة الصبح لإنها طاهرة
مطهرة لم تر حمرة دم قط.. فكما ورد في التاريخ والحديث أن اثنين
من النساء عفاهما الله من دم الحيض وهما مريم البتول، وفاطمة
الزهراء .

والسبب في ذلك أن فاطمة معصومة والمعصوم يجب أن يكون على
اتصال دائم مع الله عز وجل بحيث لا ينقطع منه أبداً ودم الحيض
يقطع المرأة عن الصلاة والصيام والعبادة هذا من جانب ومن جانب
آخر فإن فاطمة هي ليلة القدر يجب أن تكون طاهرة مطهرة بعيدة عن
كل ألوان الرجس وأشكاله ولا شك أن دم الحيض يعتبر من ألوان



الرجس.. ولذلك أمرنا الله أن نبتعد عن النساء في أيام الحيض ،
فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا
تَقْرَبُوهُنَّ﴾ (١).

وجاء في كتاب من لا يحضره الفقيه عن النبي أنه قال : إن
فاطمة - صلوات الله عليها - ليست كأحد منكن - وكان يخاطب
مجموعة من النساء جئن إليه لسماع حديثه الشريف - إنها لا ترى دمأ
في حيض ولا نفاس كالحورية (٢) ..

والخلاصة إن في أفريقيا كما في بقاع أخرى من العالم، تقام
حفلات كبيرة بمناسبة مولد الإمام الحسن - عليه أفضل الصلاة
وأزكى السلام - لأنه ابن النبي، وسيد شباب أهل الجنة ، هو وأخوه
الحسين سيذا شباب أهل الجنة .

فكانت الفرحة غامرة في مولده الشريف بخلاف مولد الحسين
حيث تكون الدموع هي الغالبة والحزن هو الحاضر في مكان الاحتفال
لأن مولده أبكى النبي وأبكى أمه البتول فاطمة كما أبكى أباه
علياً والملائكة والأنبياء وذلك حين هبط جبرائيل يخبر الرسول الأعظم
بمصرع ولده الحسين وكان قد حمل معه قبضة من تراب كربلاء كما
تقول الروايات لدى السنة والشيعة .

هذا بالنسبة للإمام الحسين عليه السلام أما حديثنا حول ولادة أخيه

(١) البقرة/ ٢٢٢.

(٢) فاطمة بهجة قلب المصطفى ج ١٩٦ ج ١.



الإمام الحسن الزكي عليه السلام فقد اتفقت الروايات وكتب التاريخ على أن ولادته كانت، في النصف من شهر رمضان، في العام الثالث للهجرة .

وروى أن رسول الله كان قد علق عنه بكبش، وحلق رأسه، وأمر أن يتصدق بزنته فضة. ولما ولد الحسن، أخذ النبي وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وجاءت به أمه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين - سلام الله عليها - إلى رسول الله في اليوم السابع من مولده جاءت به تحمله في قماشة من حرير الجنة نزل بهاجبرائيل إلى رسول الله، فسماه حسناً وعلق عنه كبشاً أي ذبح كبشاً فداء لمولده

ويوم قبض النبي كان له من العمر سبع سنين بينما كان عمر أخيه الحسين ست سنوات يوم وفاة النبي .



فاطمة العلياء والتاريخ

جاء في كتاب العرب والإسلام والخلافة العربية أن يزيد أرسل حملة عسكرية إلى حجاز وكان بين المقاتلين فيها رجال من قبيلة تغلب. وكان قائد هذه الفرقة التغلبية النصرانية، يرفع راية عليها صورة القديس سرجيوس شفيع هذه القبيلة النصرانية - وتداعى أهل المدينة وخرجوا للقاء عدوهم ولكنهم منوا بهزيمة نكراء في موقعة الحرة ..

نشأ يزيد في ظل الحضارة الرومية وكان يستخف بأهل السنة ولم يأبه لتعاليم القرآن - وتأدب على يد الأخطل الشاعر النصراني من قبيلة تغلب وكان يزيد شاعراً وصياداً يشرب الخمر ويزني بالمحارم كما جاء في التاريخ وكانت الطوائف النصرانية - آنذاك - تنعم بظل معاوية ويزيد .

والأمويون من حيث نسبهم ينتمون إلى القيسيين - ولكن لأسباب سياسية وبالنظر إلى توازن القوى في بلاد الشام فإنهم أي الأمويين سعوا إلى الحصول على مساندة الكلبين لهم - وهم قبائل نصرانية - والوقوف إلى جانبهم ولذا تزوج معاوية فتاة من بني كلب اسمها ميسون أم يزيد - فكان زواجاً سياسياً غايته مصاهرة هذه القبيلة، وأصبحت ميسون الزوجة الأثيرة عنده، كذلك يزيد تزوج فتاة من بني كلب أيضاً.

وكانت أفضل الوحدات العسكرية تلك التي تجند من قبائل بني كلب، فقد أمر معاوية برفع مرتباتهم كما أجزل لهم العطاء - وكان

يدعوهم إلى الولائم الخاصة وأوصى ابنه يزيد بهم خيراً .. وكانت الكنائس النصرانية منتعشة في عهد معاوية، ومقربة إلى الحكم الأموي ، فقد استعان معاوية بهم لسحق خصومه .

كان بنو أمية من أغنى الناس فقد جمعوا ثروات كبيرة وكانوا قبل إسلامهم من أشد المعارضين للمسلمين في المدينة واسلامهم المتأخر عاد عليهم بالنفع المادي الكبير ...

عثمان بنى له بيتاً من الحجر الكريم أبوابه من الخشب الثمين وقد اشترى العقارات الكثيرة بما في ذلك البساتين وعيون الماء ودرت عليه البساتين الفاكهة التي يملكها في وادي القري وفي حنين وأمكنة أخرى - دخلاً كبيراً قدر بـ ١٠٠ ألف دينار في السنة - هذا فضلاً عما يملكه من جياذ وإبل وقطعان ماشية وبعد وفاته أحصى ما في خزائنه فكان ١٥٠ ألف دينار ومليون درهم .

كذلك أغدق العطاء على أقربائه فالزبير بن العوام، ابنتى بيوتاً للإيجار في الكوفة والبصرة والفسطاط والاسكندرية وكانت ثروته تقدر بـ ٥٠ ألف دينار وألف جواد وألف عبد وكذلك طلحة والزبير ومروان بأكثر من ١٥٠ مليون دينار من الذهب

هذا الثراء المفاجيء السريع أثار النقمة في النفوس وأبو ذر ينادي :
كان هذا حال طلحة والزبير في حين أن أبا ذر يموت جوعاً بالعراء .



في الظلم والظلمة

كثيراً ما يأتي الظالم بسبب ذنوب الناس. فالذنوب هي التي تساعد على ظهور الظالمين في المجتمع، والمعاصي هي التي تزرع الطفافة والجلادين في صدور الشعوب ...

إن مخالفة قانون من قوانين الله سبحانه تؤدي إلى هذا الدمار فمثلاً مخالفة قانون: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيؤلى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم» تؤدي إلى كارثة فهذا الحديث يكشف لنا عن قانون في علم الاجتماع وهو أن السكوت عن الظلم وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى هذه النتيجة الحتمية وهي نشوء الظالمين في الناس .. فإذا جاء الظالم واستولى على الرقاب بدأ الدعاء والدعاء هنا لا يرفع ولا يستجاب لسبب واحد وهو أن هذه الذنوب ذنوب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد حالت بين الدعاء وبين الاستجابة ..

ونحن نقرأ في دعاء كميل «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء ..» والذنوب التي تحبس الدعاء هي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي السكوت عن الظلم والظالمين ولهذا يقول علي عليه السلام كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً ..

ويقول السجاد عليه السلام: «اللهم إني اعتذر إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره».



* قالوا في الظلم والظلمة :

- وإذا فوجئت بظالم فلا ترتعد فالظلم لا يمكن أن يستمر ولكل ظالم نهاية .

- الظالمون مثل البالون ينتفخون ثم ينتهون بشكة دبوس .

- والقرآن الكريم يرينا مصرع الظالمين كيف يكون شديداً وقوياً لا يخطر على بال ولا يمر بخيال ولم يكن في الحسبان

- وقد رأيتهم بأم عيني رأيت الفرعون وهو يتحول إلى هباء، ورأيت الطاغوت وهو يتحول إلى فأر مذعور ورأيت المستبد الجبار وهو يتلفت حوله في فزع وجزع والغريب أن كل واحد من هؤلاء كان يعتقد أنه باق في مركزه إلى الأبد ولم يتصور أن الله وحده هو الذي يملك الأبد وأن كل ما عداه يتغير ويتحطم ويزول .

إن المنصب يعميهم والكرسي يفقدهم عقولهم والنفوذ والسلطان سد آذانهم فلا يسمعون نقداً ولا يسمعون أنين المظلومين، ولا صراخ المطحونين ولا يحسون بالآم الآخرين ولا بشقاء المعذبين .. وكل ذلك إنما يحدث لأنهم طاغون، غارقون في الذنوب .

- وجاء في مروج الذهب ٣/٣٦٥: إن موكب المعتصم كان يمر فوق أجساد الأطفال والنساء والضعفاء، فخرج الناس لملاقاته وقالوا له: قد أفرط علينا أمر غلمانك، وعمّا أذاهم، فإما أن تمنعهم عنا أو تتقلهم أو نحاربك. فقال: وكيف تحاربونني، وليس معكم سلاح ؟

قالوا: إن لدينا أقوى وأمضى سلاح .

قال: وما هو ؟



قالوا: نحاربك بسهام الليل .

قال: وما سهام الليل ؟

قالوا: ندعو عليك . فقال المعتصم : لا طاقة لي بذلك .

ومما جاء في القرآن الكريم:

- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١).

- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٢).

- ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾.

(الإعصار الشديد الذي يحمل الحصباء) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣).

- ويقول الإمام علي عليه السلام: ولئن أمهل الله الظالم فلن يفوته أخذه وهو له بالمرصاد ...

(١) القصص / ٧٨ .

(٢) القصص / ٨١ .

(٣) العنكبوت / ٤٠ .

مولاتنا الزهراء حبل الاعتصام

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

روى الحافظ الحسكاني (الحنفي) قال: أخبرنا أبو جعفر (بإسناده المذكور) عن جابر بن عبد الله (الأنصاري) قال: قال رسول الله .

إن الله جعل علياً وزوجته وأبناء - حجج الله على خلقه، وهم أبواب العلم في أمتي، من اهتدى بهم^(٢) ﴿هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

وأخرج هذا المعنى بعبارة أخرى الحافظ سليمان (القندوزي) الحنفي في ينابيع المودة أيضاً^(٤)، إلا أنه قال: (من اقتدى بهم) والمعنى واحد.

وظاهر هذا الحديث هو: أن الاقتداء بأهل البيت والاهتداء بهم من شروط الاعتصام بالله، كما أن من شروطه - بل هذا الشرط - هو الاعتراف بالنبوة، وبما أن مولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام من أهل البيت، فتكون الآية المباركة مما نزلت بحققها^(٥).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٦).

(١) آل عمران/ ١٠١.

(٢) شواهد التنزيل ٥٨/١.

(٣) آل عمران/ ١٠١.

(٤) ينابيع المودة ص ٦٣.

(٥) فاطمة الزهراء في القرآن ص ٤٥.

(٦) آل عمران/ ١٠٣.

روى علامة الشوافع أبو بكر الحضرمي في كتابه (رشفة الصادي) بإسناده.. عن جعفر بن محمد - رضي الله عنهما - قال: نحن حبل الله الذي قال الله (عنه) .

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١).

وأخرج ذلك من الإعلام كثيرون (كالشبلنجي)^(٢) الشافعي (والصبان الحنفي)^(٣) وغيرهما أيضاً .

وروى العلامة الشيخ عباس القمي ، عن عالم المعتزلة جاداش الخوارزمي، أنه روى بإسناده عن رسول الله ، أنه قال :

«فاطمة مهجة قلبي، وابناها ثمرة فؤادي، وبعلمها نور بصري، والائمة من ولدها أمناء ربي، حبل ممدود بينه وبين خلقه، من اعتصم بهم نجا، ومن تخلف عنهم هوى»^(٤).

وحيث إن (نحن) في الحديث الشريف الأول، يراد به أهل البيت. وكذا تصريح الرسول في الحديث الثاني باسم (فاطمة) كانت هذه الآية الكريمة مما نزل في فضلها - صلوات الله عليها -^(٥).

(١) رشفة الصادي ص ٧٠.

(٢) نور الأبصار ص ١١٢.

(٣) إسعاف الراغبين ص ١٠٩.

(٤) سفينة البحار ١/ ١٩٣.

(٥) فاطمة الزهراء في القرآن ص ٤٧.

الزهراء صوت العدالة الأول في الإسلام

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

روي الحاكم الحسكاني (الحنفي) قال: أخبرنا أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الحسيني (بإسناده المذكور) عن زيد بن علي، في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾.

قال : نزلت فينا (٢).

قوله (فينا) يعني أهل البيت - عليهم السلام - لمتواتر الروايات بلا إشكال ولا ريب في ذلك ، وفاطمة الزهراء عليها السلام منهم بلا إشكال ولا ريب أيضاً .

فأهل البيت - عليهم السلام - هم البقية القليلة الذين كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، وهم المصداق الأكمل لأولئك وفاطمة الزهراء - سلام الله عليها - هي القائدة والمنادية الأولى للالتزام الكامل بخطى النبي بعد وفاته ﷺ (٣).

(١) هود/ ١١٦.

(٢) شواهد التنزيل ٢٨٤/١.

(٣) فاطمة الزهراء في القرآن ص ١١٠.

عندما يتحول العمالقة إلى أقزام

أين العمالقة وأبناء العمالقة؟ أين الطفلة وأين الجلادون.. أين الظلمة وأعوان الظلمة؟

أين حقدهم الأسود، أين حرابهم، أين سجونهم وجنودهم؟ لقد ذهبوا ولم يعودوا.

ولو قدر للأرض أن تتحدث، وقدر لنا أن نسمع حديثها لأخبرتنا بلسان فصيح، وبصوتٍ يسمعه حتى الموتى: إن أولئك الظالمين الذين عاثوا فساداً على ظهري، أمتهم قسي الفناء بنبال الموت، فمزقتهم شر ممزق، وأصبحوا أحاديث فبعداً للقوم الظالمين.

أجل لقد نبذتهم الأرض التي عاشوا عليها، ومشوا على ترابها، فلم يبق لهم عين ولا أثر. لأن الظلم أساسه الباطل.. والباطل لا يحمل بناء على كتفه، بينما العدل أساسه الحق، والحق ليس فقط يستطيع أن يحمل شيئاً ثقيلاً على ظهره كالبناء مثلاً، بل وأيضاً يتمكن الحق من حمل الكون كله.. وهذا هو الواقع، فالسموات والأرض ومن فيهن وكل شيء في الوجود قائم على الحق، وبالحق.. ولولا الحق ونظامه العادل، لفسدت السموات والأرض، ولانهار البناء الكوني من القواعد والأساس.

والمشكلة دائماً تبدأ من الظالم نفسه، حين يتصور نفسه أنه باق في مركزه وعلى كرسيه إلى الأبد، ولم يتصور أن الله وحده هو الذي يملك



الأبد وأن كرسية وسع السموات والأرض، وأن كل ما عداه يتغير ويتحطم ويزول.

والقرآن الكريم، يرينا كيف تكون مصارع الظالمين، مريرة، وقاسية.. وكيف يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، بشكل قوي وشديد لم يكن في الحساب، ولا خطر على قلب بشر! فمن خلال القصص التي يحكيها القرآن، والصور التي يعكسها لمصارع الظالمين، يستطيع الواحد منا، أن يرى الفرعون وهو يتحول إلى هباء، ويرى الطاغوت وهو يتحول إلى فأر مذعور.. ويرى المستبد الجبار، وهو يتلفت حوله في فزع وجزع.. وقد علمتنا الأيام أن الظلمة وأعوان الظلمة مثل الفقاعات الفارغة، قد تنتفخ بعض الوقت ولكنها سرعان ما تتلاشى وتذوب.. وعلمتنا التجارب التي عشناها طوال السنين الماضية والقرون الخالية، أن الظالمين مثل البالون، ينتفخون ثم ينتهون بشكة دبوس.

فإذا فوجئت بظالم فلا ترتعد، فالظلم لا يدوم، ولا يمكن أن يستمر، ولكل ظالم نهاية مُرّة، ونحن حين نقرأ القرآن الكريم، نجده يحدثنا عن مصارع الظالمين كم كانت قاسية ومفرعة لأن الله سبحانه أخذ كل واحد منهم بذنبه الذي كان يقترفه بحق الناس ويتسلطه على الرقاب.. يقول القرآن: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾.

«وهو الإعصار الشديد الذي يحمل الحصباء فلا يدع شيئاً يأتي عليه إلا ويجعله كالرميم» ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١).

(١) العنكبوت/ ٤٠.

ويتحدث عن الظالم الذي أسكرته شهوة المال واستولت على عقله، فأخذ يقضم مال الله قضمه الإبل نبتة الربيع، ويستعبد الناس بأمواله، وكيف كان مصرعه يهز القلوب، ويوقظ النائمين، والغافلين. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١).

وينتهي به الحال إلى الخسف الكامل به، وبكنوزه وشهواته: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٢).

وهكذا يتساقط الظالمون واحداً تلو الآخر، في مصارع السوء والهوان، ويسحقون تحت الأرجل ثم ترمى جثثهم على المزابل.. ويحاصرهم التاريخ فيحشرهم في زوايا ضيقة تفوح منها رائحة بغيضة تتفر منها الطباع، وتشمئز النفوس.

يقول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «ولئن أمهل الله الظالم، فلن يفوته أخذه، وهو له بالمرصاد» أي أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولكنه لا يهمل أبداً، فمن الممكن أن الله يرخي الحبل للظالم، بغية امتحان الناس، ولكنه لا يلقي الحبل على الغارب أبداً.

وارتخاء الحبل للظالم، سببه المخالفة لقوانين الله من الناس، والمخالفة معانها الخروج على قوانين الله، وتجاوز حدوده، ولكل مقدمة نتيجة توافقها، فإذا عطل العباد قانوناً من القرآن، أصابهم الله

(١) القصص / ٧٨.

(٢) القصص / ٨١.

بعذاب ذلك القانون.. ولكل فعل رد فعل، يساويه في القوة، ويعاكسه في الاتجاه.

على أننا نعرف أن من الذنوب ذنباً تحبس الدعاء، ومن الذنوب ذنباً تدل الأعداء، أي تجعل للأعداء دولة، ومنها ما يقطع الرجاء ويزرع الهم والقلق والفرع في النفوس وفي العيون.. ومن الذنوب ما ينزل البلاء بفعلها.. فمثلاً الذنب الذي يحبس الدعاء، ويحجبه عن الصعود والإجابة، هو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد أوضح الرسول الأعظم محمد ﷺ في حديث رائع - وكل أحاديثه رائعة - يقول فيه: «لا تتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم ثم تدعون، فلا يستجاب لكم».

وفي الحديث مقدمة ونتيجة..: «فالمقدمة هي أن نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا نأمر بعمل جيد، ولا ننهى عن عمل رديء، ولا نأخذ بيد المظلوم فنرفعه من كبوته، ولا نمنع الظالم عن ارتكاب سخطه وحقايقه.. هذه هي المقدمة، والنتيجة التي تجيء في أعقابها مباشرة هي أن يستولي الأشرار على مقاليد الأمور، فتسقط البلاد في أيدي الظالمين.. وذلك أن الظالم ينشأ حين يتخاذل الصالحون عن الحق وينشط المفسدون مع الباطل..».

وقد أشارت سيدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء - صلوات الله وسلامه عليها -.. أشارت إلى هذه الحقيقة حين قالت: «ابشروا بسيف صارم، وسطوة معتد غاشم واستبداد من الظالمين، يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً».



كل ذلك يحدث عندما يتقاعس الناس عن نصرة الحق، فيعمهم البلاء، وبداية البلاء، هو مجيء حكومة ظالمة جائرة يقودها سفاك طاغية يذيق الناس البأس والذل والهوان.. وهو بلاء -في العادة- تطول مدته، ويدوم مقامه، لأنه يحلّ بالجماهير، وينزل بساحتهم نتيجة الإخلال بقوانين الحق، وتعطيل مناهج الله سبحانه وتعالى.. وهنا الدعاء وحده لا يرفع الطاغية وإن كان مفيداً، في بعض الأحيان، ولكن النتيجة الحتمية هي أن هذا الظالم تدول مدته، إلى حد يجعل الناس يظنون أن الله قد غفل عن هذا الظالم.. ولكن المسألة بخلاف ذلك تماماً، فالله سبحانه يملئ للظالمين ليزدادوا إثماً فوق إثم، وعذاباً فوق عذاب.. وفي الوقت ذاته يختبر صبر الناس المؤمنين، ومدى صدقهم، وإخلاصهم في الذب والدفاع عن العقيدة، والعرض والكرامة..

ونلمح ذلك في بعض آيات القرآن الكريم، ففي آية كريمة يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (١).

ونجد في كلمة (غافلاً) انعكاساً رائعاً للصورة التي أراد القرآن أن يعرضها علينا، لتبين لنا أن الظالم إذا تسلط على الرقاب، وجاء يحكم بالحديد والنار، فإنه من الممكن أن يمتد به الأجل وتتراخى له الأيام حتى يظن الناس أن الله في غفلة عن هذا الظالم، وحاشا لله أن يكون في غفلة عن الظالمين.. إنما يؤخرهم ليوم.. لساعة معينة، وعندما يأخذهم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

(١) إبراهيم/ ٤٢-٤٣.



إذاً: فالآية جاءت لتزيل هذا الإشكال من الأذهان، وتقشع الضباب عن الأعين ولهذا يقول الرسول الأعظم محمد ﷺ للإمام علي أمير المؤمنين -عليه الصلاة والسلام- : يا علي إن إزالة الجبال الرواسي، أهون من إزالة ملك مؤجل لا تنقص أيامه» (١).

وهذا يعني أن إزالة جبل من مكانه، أهون من إزالة حاكم جائر لم يأت يومه، وهي إشارة رائعة إلى السنة الكونية الجارية في كل زمان ومكان وهي عندما يترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الأشرار والخونة الفجرة هم الذين يتولون زمام السلطة وسوق البلاد إلى المجازر، والمذابح، وحمامات الدم، حيث الفقر، والحرمان، والذل والهوان.

إذاً: فالذنوب هي التي تنشئ الظالمين، في المجتمع، والمعاصي هي التي تزرع الطفاة والجلادين على صدور الشعوب في الأرض.. فكل مخالفة لله عز وجل، تؤدي إلى دمار شامل عاجلاً أم آجلاً. ولكن هناك حقيقة لا يرقى إليها الشك، وهي أن نهاية الظالم دائماً تأتي مظلمة قاهرة تنزل على الظالم نزول القدر فينطفئ الظالم في لحظة واحدة ويتلاشى ظله.. أما لماذا يصبح الظالمون في لذة من عذاب الأبرياء وقتلهم وسحقهم؟ فالجواب واضح:

إن المنصب يعميهم، والكرسي يفقدهم عقولهم، والنفوذ والسلطان يسدّان آذانهم ويعميان قلوبهم، فلا يسمعون نقداً، ولا يشعرون بأنين المظلومين، ولا صراخ المطحونين، ولا يحسون بآلام الآخرين، ولا بشقاء المعذبين.

(١) كلمة الرسول الأعظم ص ١٥٣.



فالخونة لا أستثني منهم أحداً على الإطلاق.. حتى ولو جاءوا إلى كراسي الحكم بالوعود المعسولة، والكلام المنمق الجميل، وتحت طاقية الإخفاء، فإنهم ما يكادون يلامسون الكراسي بأبدانهم، حتى ينتفضوا كالكلاب المسعورة، والذئاب العاوية، في الفساد والدمار. وبهذا الصدد يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١).

كان عبد الملك بن مروان يقول في خطبة الجمعة: «لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضريت عنقه بسيفي هذا..!». وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد.

وجاء في كتاب أمالي المرتضى (٢) أن عمرو بن عبيد دخل على المنصور، فوقره واحترمه، فلما أراد الانصراف عنه، قال له المنصور: عظني وأوجز!.

قال: إن ما في يدك لست بوارثه عن أحد إنما هو شيء صار إليك، وقد كان في يد غيرك قبلك.. ولو دام لك ل بقي في يد الأول والسلام. فقال له المنصور: زدني.. قال: «إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك، إنما

(١) البقرة/ ٢٠٤-٢٠٦.

(٢) أمالي المرتضى ١/ ١٧٠.

كان في يد من كان قبلك ثم أفضى إليك وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك، وإني أحذرك من ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة»^(١).

وكان المنصور الخليفة العباسي، جالسا ذات صباح فوقعت حزمة من السهام على مقربة منه، فلما أخذها وجد على كل سهم بيتين من الشعر وهما:

هي المقادير تجري في أعنتها فاصبر فليس لها صبر على حال

يوما تريك خسيس القوم ترفعه إلى السماء ويوما تخفض العالي

ويقول الحق عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٢).

وفي مكان آخر يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا^(٣).

أي أن كل شيء خلقه الله على هذه الأرض.. إنما جعله زينة للأرض، والزينة تجلب الناس، وتشد انتباههم، وتثير شهية الفعل والحركة في نفوسهم.. وكل ذلك من أجل الاختبار والامتحان، أي أن الله عز وجل يريد أن يرى وينظر أي الناس أحسن عملا وأكثر جودة في العمل والإتقان.. فقسم شغلتهم هذه الزينة عن ذكر الله فسقطوا في الهاوية.. في حين أن قسما آخر وهم المؤمنون بالله قد أشعلت هذه الزينة في نفوسهم ضياء الإيمان والبصيرة، فراحوا يعملون ليل نهار ويكدحون في مرضاة الله حتى يلاقوه وهو عنهم راض وليس عليهم غضبان.

(١) كتاب أمالي المرتضى ١/ ٢٩٣.

(٢) آل عمران/ ١٤٠.

(٣) الكهف/ ٧-٨.



فالزينة هي نفسها على الأرض لم تتغير منذ أن وجد الإنسان.. ولكن المتلقي وهو الإنسان يتغير ويختلف فيكون تأثير الزينة على قدر حجم المتلقي، إذا كان جيداً وطيباً نقلته إلى رضوان الله، وإذا كان رديئاً وخبيثاً نقلته إلى عذاب الجحيم.. فالمؤثر واحد، ولكن المتأثر يختلف، أشبه شيء بالنفخة التي تنزل على الشمعة فتطفئها وتنزل على الجمرة فتؤججها وتشعلها. أشبه شيء بقطرات المطر.. تنزل في الأصدا ففتتحول إلى درة ثمينة، وتنزل في فم الأفعى فتتحول إلى سم زعاف يقطع الأمعاء، ويشوي البطون.

يقول الشاعر:

أرى الإحسان عند الحردينا وعند العبد منقصة وذما

كقطر صار في الأصدا ف درا وفي بطن الأفاعي صار سما

ولإتمام الفائدة نقرأ هذه الآية الكريمة: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ (١).

فالمطر يهطل على كل الأرض، ولكن الأرض الطيبة تراها هامة فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج وأعطت ألوان النعيم، وصنوف الغلال.. في حين أن الأرض السبخة غير صالحة للزراعة ينزل عليها الماء فلا ترى فيها سعة تهتز ولا ثمرة ترتفع.. بل هي بوار في بوار وسراب بقيعه يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده ووجد عند الله.

(١) الأعراف/ ٥٨.

الظلمة . . وسهام الليل

جاء في تاريخ مروج الذهب للمسعودي في الجزء الثالث صفحة ٤٦٥ .. أن موكب المعتصم العباسي، كان يمر فوق أجساد الأطفال والنساء، والضعفاء فخرج الناس لملاقاته وقالوا له: «قد أفرط علينا أمر غلمانك، وعمنا أذاهم، فإما أن تمنعهم عنا أو تتقلهم أو نحاربك فقال: وكيف تحاربونني وليس معكم سلاح.

قالوا: إن لدينا أقوى وأمضى سلاح.

قال: وما هو؟

قالوا: نحاربك بسهام الليل.

قال: وما سهام الليل؟

قالوا: ندعو عليك، فقال المعتصم: لا طاقة لي بذلك..

ويقول الشاعر:

فالظلم آخره يأتيك بالندم

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً

يدعو عليك وعين الله لم تنم

تنام عيناك والمظلم منتبه

وبمناسبة ذكر سهام الليل، أذكر قصة أبي الأسود الدؤلي عندما نزل

في قرية، وكان أهل تلك القرية يخالفونه في المذهب والعقيدة، فكانوا

يرمونه بالسهام -أثناء الليل- ليغادر القرية، فشكا لهم ذلك.

العقيدة مُصانة في الإسلام

في الإسلام، لا يرفع السلاح بوجه العقيدة، عقيدة أي إنسان، وأياً كان نوع العقيدة .. وإنما يرفع السلاح بوجه الظلم .. والفرق بين العقيدة وبين الظلم واضح جداً فالعقيدة حرة هكذا شاء الله سبحانه أن يجعلها ويخلقها «فلو شاء الله لأرضى من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» إن الله كان في إمكانه أن يجبر الناس ويكره البشر على الإيمان به والعقيدة بدينه، ولكنه رفض هذا الطريق إلى الإيمان، واختار طريق الحرية ، فاعلنها واضحة لا لبس فيها ولا غبار عليها: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ .

هذا في العقيدة، وأما في العدالة ورفع الظلم ومحاربة الظلمة وأعدائهم، فإن للإسلام طريقاً آخر يختلف عن طريق العقيدة ، إن الإسلام يقف بحزم وبقوة ضد كل ظالم، وضد أي ظلم يقع على ابن آدم ، سواء كان ذلك ابن آدم مسلماً أو غير مسلم. إذ لا فرق في الإسلام أن يكون المظلوم مؤمناً أو كافراً، إن المظلوم لا بد من الانتصار له وأخذ حقه من ظالمه دون أن ننظر إلى عقيدته وأخلاقه .

إن الإسلام أباح للناس مسألة الإيمان والعقيدة، ولكنه لم يبح لهم مسألة العدل، وإقامة العدالة في المجتمع .. فالواحد منا في كامل الحرية أن يصلي أو يترك الصلاة، يصوم أو يترك الصيام .. ولكنه ليس حراً في أن يظلم الناس، أو يوقع الأذى بهم .. أبداً .. ليس من حق

أحدٍ أن يستعلي على أحد وليس من حق أحدٍ أن يمارس ضغطاً على أحدٍ مهما كان نوع ذلك الأحد .

والآيات باهرات واضحات ، والدلالات معروفة ظاهرات ليس فيها لبس أو إبهام .

لمن شاء أن يتقدم

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (١).

في الحياة تقدم، وتأخر . والذي يمنع المرء من التقدم في الحياة شيئان هما: انحراف في النفس ، واستبداد في الخارج.. أي خارج النفس الإنسانية .

ففي داخل النفس تسيطر الغرائز والشهوات، وتتحكم الأهواء على العقل والقلب، فيتراجع الإنسان بدل أن يتقدم، ويفرق في الظلام بدل أن يسبح في النور يقول: وحبسني عن نفعي بعد أملي وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بخيانتها، ومطالي يا سيدي. هذا شيء .. والشيء الآخر هو الأغلال في الخارج التي يضعها الظلمة وأعدائهم في رقاب الناس .. ومن هنا فإن ميدان الحرب والجهد يتمثل في داخل النفس، وفي خارجها وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذين العاملين في دعاء الصباح بقوله «وإن خذلني نصرك عند محاربة النفس والشيطان فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب والحرمان» .

وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذين العاملين، فقالت: يضع عنهم إصْرَهُمْ .. وهي تشير إلى موانع النفس الإنسانية مثل: الحسد والحقد والطمع والجن والبخل والنفاق الخ. ثم قالت: والأغلال التي كانت عليهم وهي، إشارة إلى المناهج الكافرة، والقوانين الجائرة الظالمة التي

(١) الأعراف/ ١٥٧.

تتهك الناس. وتمتص طاقاتهم، وتستنزف دماءهم. وهنا نجد وظيفة الأنبياء تتلخص في هذين الشيئين: في تطهير النفوس من الأدران.. وفي تطهير المجتمع من الظلم.. وهنا لا بدّ من ملاحظة. وهي أن الطريقة التي يتبعها الأنبياء، إنما هي طريقة ممارسة التغيير المباشر، لأن النبي ﷺ لا يكتفي بالإرشاد والنصح والموعظة، وإنما يطبق هذا المنهج رأساً وعلى الفور وذلك من خلال تطبيق مناهج الإسلام.. فمثلاً كيف تقضي على هذه الأمراض بالمبادرة لتحريك الناس: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

ثم سيرته السمحاء تلك السيرة التي تؤلف بين القلوب، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بينهم لأن المال لا يؤلف القلوب فهذا الإقبال.. يدوم لك ما دامت عندك أموال فإذا سقطت أموالك، سقطت شخصيتك من الأعين.. ولكن إذا كانت السيرة طيبة فإن الإنسان يعيش مع الناس في قلوبهم. فامض لكل يوم عمله واعط لكل ساعة قسطها واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت، وإن كانت كلها لله إذا صحّت نيّتك. ويجب أن نعلم أن الإسلام أعطى حرية الدين للناس فقال: لا إكراه في الدين والرسول ﷺ لم يجبر أحداً على دين. مثل أساري بدر وأهل مكة وأهل الطائف، وعمله حجة، كما أن علياً لم يجبر أحداً أن يعتنق الإسلام بالقوة مع كثرة الوثنيين الذين كانوا تحت حكمه.

(٢) التوبة/ ١٠٣.

الخطبة

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١).

إن عدم ذكر الله أدى إلى الرياء والرياء صفة ملازمة للمنافق لأنه إذا رأى أحداً نشط وإذا خلا مع نفسه كسل.... ولذلك ليس عنده قوة تجيش ف أعماقه فتجعله نشيطاً... ولاحظوا الدقة في التعبير إنه هنا يبدو كسلان في أعظم شعائر الله وفي أكبر مولد للنشاط والحيوية.. فالصلاة أعظم الشعائر التي لا مجال للكسل فيها.. ففيها الطهارة والوضوء والوقوف بين يدي الله.. والوقوف مع الناس في صلاة الجماعة وحركات الركوع والسجود وبقية الحركات وهذه كلها تبعث على النشاط. هذا بالإضافة إلى انبعاث النشاط العظيم من قلب المصلي، ولكن مع ذلك نجد المنافق كسلان حتى في هذا المكان، وتصوروا لو أن المنافق كسلان في الصيام أو في اعطاء الزكاة لكان يمكن أن يوجد لها تفسير. ولكن أن يكون كسلان في الصلاة فهذا لا تفسير له. إلا أن النفاق ظلام من فوقه ظلام... إذا دخل النفس لا يمنحها إلا الكسل وفي هذا الظلام تنشأ طفيليات الرياء .

وحين نقرأ تفسير هذه الآية فإننا نكتشف كنوزاً من المعرفة، والعمق. فالآية مثلاً - تتحدث عن الصلاة التي هي مصدر النشاط... في الإنسان، بحيث يصل النشاط الذي تعطيه الصلاة للإنسان المؤمن،

(١) النساء/ ١٤٢.



يصل إلى درجة تحفظ توازن الإنسان، وانضباطه في أشد حالات
الخوف والهلع، والاضطراب .

يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ .

ويقول: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ
الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (١) .

كثير من الآيات التي هي في هذا المجال، وفي هذا الصدد تؤكد هذا
المعنى ولذلك ركز الإمام علي عليه السلام على هذا الجانب وحذر من الوقوع
في الضجر والكسل، لأنهما يولدان من الرياء وينبتان من النفاق .

ونجد الرسول الأعظم ﷺ يوصي علياً عليه السلام أن يكون على حذر من
هاتين الخصلتين، وطبعاً الخطاب من باب: إياك أعني، واسمعي يا
جارية، فالإمام علي عليه السلام، هو قمة الصفاء، والإيمان والإخلاص، وإنما
الكلام موجه إلينا من خلال علي أمير المؤمنين، وذلك لأمانة النقل، لأنه
ثمة فرق كبير بين أن تأخذ الحديث من أبي هريرة، الذي لم يصحب
النبي إلا أياماً معدودة كان فيها من الغافلين، وبين أن تأخذ الحديث، من
علي أمير المؤمنين عليه السلام، الذي هو باب مدينة علم الرسول .

أجل ... قال له: يا علي إياك وخصلتين: الضجر ... والكسل ... ثم
يكشف عن سر هذا التحذير، فيقول: فإنك إن ضجرت، لم تصبر على
حق وإن كسلت لم تؤد حقاً .

ثم نقرأ حديثاً آخر، يبين لنا فلسفة هذا التحذير، فيقول: «الكسل
يفسد الأخوة» أي أن الكسول، لا يحفظ المودة، ولا يرضى الوفاء، ولا يهتم

(١) المعارج / ١٩-٢٢ .

بالأخوة، فيفسدها لأنه كسول، والحفاظ عليها يحتاج الى النشاط،
والحركة.

ثم يبين الإمام علي عليه السلام طريقة الخلاص والتعافي من هذه الخصلة
الرديئة، فيقول: "عليك بإدمان العمل، في النشاط والكسل .

وهذا- لعمري- أعظم معالجة ودواء لهذا الداء الذي هو الكسل، لأن
الكسل، لا يحتاج الي أكثر من حركة واحدة فإذا تحرك الإنسان، فإنه
سرعان ما يجد نفسه، منطلقا، متدفقا، بالحيوية والأريحية والنشاط.

وهذه من صفات الزهراء، فاطمة البتول، حيث كانت كتله ملتهبه
بالنشاط والحيوية لا تعرف السأم ولا الملل، كانت ترعي أبناءها في
البيت، كما ترعي أباهما النبي وبعلهما الوصي، في الوقت الذي لا تغفل
فيه، عن مداراة الناس، خصوصا، مداراة الجيران، من الفقراء،
والضعفاء. وهذا إن دل علي شئ، فإنما يدل علي استيعابها الكامل،
لمعني الصلاة، وللدين والإيمان.

على أننا نقول مثل هذا الكلام، جريا علي الظاهر، واصطلاح
التعبير، والإ فإن فاطمة الزهراء-سلام الله عليها- إنما هي تجسيد
للإسلام، وللصلاة، وللإيمان بل إنها انعكاس لرضا الله، وغضب السماء
لأنها كفو لعلي أمير المؤمنين عليه السلام وإذا كان الإمام علي عليه السلام هخو
الإيمان كله، فإن فاطمة هي الإيمان كله.. يقول الحق: ومن يكفر
بالإيمان فقد حبط عمله ...

وهنا نستفيد أن الذي يكفر بعلي، وفاطمة، إنما يكفر بالإيمان، لأن
كل واحد منهما، يمثل الإيمان بكل أبعاده، بل أكثر من ذلك، فلا يكتمل
الإيمان إلا بحب علي وفاطمة، وهذا هو الإسلام والإيمان.



الخوف من المستقبل

مشكلة الناس اليوم، أنهم يخافون من المجهول، والمستقبل مجهول إذا: فهم يخافون من المستقبل.

والخوف من المستقبل المجهول؛ يؤدي إلى القلق والاضطراب والتشنج وضيق الحياة.. فكيف عالج الإسلام هذا الموضوع؟ للإجابة عن هذا السؤال نقول: نحن نجلس في عربة زمنية اسمها الحاضر، يقودها حصانان هما الليل والنهار، كما قال الإمام علي عليه السلام: ومن كان مطيته الليل والنهار يسار به وإن كان واقفا.. هذه العربة تقع بين زمن اسمه الماضي وبين زمن اسمه المستقبل..

الماضي لا نملكه ولا نسمح له أن يعكر صفوة اللحظة الراهنة، وأما المستقبل فهو في رحم الغيب حيث إننا لا نملكه أيضا.

حياتنا هي هذه اللحظة الهاربة من الماضي، كالسهم إلى المستقبل، والسؤال هو: هل نحن في حالة تراجع إلى الوراء أم انطلاق إلى المستقبل، أم ركود في الحاضر؟... لأن الفرد شأنه شأن المجتمع لا يخلو من واحدة من ثلاث: تقدم.. تراجع.. ركود.. للانطلاق علامة، وهي الاستفادة الكاملة من اللحظة الراهنة، أي أنك تستفيد أقصى ما يمكن من اليوم الذي تعيش فيه، فإذا كان يومك حافلا بالنشاط، والعطاء، فأنت في حالة انطلاق وليس في حالة ركود، ولا تراجع.. أما إذا كنت متواكلا على "سوف" أي أنك تقول سوف أعمل، سوف أقوم بهذا العمل.. سوف أكتب.. سوف أصنع من نفسي إنسانا عظيما



أقول إذا كنت متواكلاً على التسويف، فإنك لا تحصد من (سوف) إلا الندم والحرمان والتراجع إلى الوراء في كل شؤون حياتك..

ومن هذا المنطلق نجد الرسول الأعظم محمد ﷺ يوجه تحذيراً قوياً للمسلمين في رسالة عاجلة يبعثها من خلال الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري يحذرهم فيها من مغبة الخمول والكسل. حيث يقول " يا أبا ذر أياك والتسويف بأملك، فإنك بيومك ولست بما بعده، فإن يكن غد لك فكن في الغد كما كنت في اليوم، إن لم يكن غد لك لم تتدم على ما فرطت في اليوم". ثم يضيف قائلاً: "يا أبا ذر كم من المستقبل يوما لا يستكمله، ومنتظر غدا لا يبلغه" أي أن بعض الناس يستقبل يومه مع طلوع الشمس، ولكن قبل الغروب يكون في عداد الموتى، وقسم من الناس ينتظر الغد ببالغ الشوق ولكنه في أثناء الليل يرحل عن الحياة، فتطلع الشمس عليه وهو جثة هامدة بلا حراك.

من هنا كانت إضاعة الفرصة غصّة، على حد قول الإمام علي عليه السلام وأي غصّة أوجع للقلب من أن يضيع الإنسان عمره، ويقطع نهاره في كيت وكيت لا ينفع ولا ينتفع .. لا ينفع الناس، ولا ينتفع لنفسه .. فإذا آوى إلى فراشه عند هبوط الظلام، يكون قد ترك طعم الرماد في فمه من ذلك اليوم الذي عاشه في فراغ وأحرق ساعاته في أمور تافهة، بين قيل وقال..

وقد ورد في الحديث: "لا طلعت علي شمس في يوم لا أزداد فيه خيراً". إذن: فالذي يحدد نوع الحالة التي نعيشها هل هي ركود أم تراجع، أم انطلاق وتقدم .. أقول الذي يحدد هذه الحالة هو مدى استفادتنا من العمر، وبالتحديد من اليوم الذي نعيش فيه، فالناجحون

هم الذين لا يتركون لحظة تهرب من بين أيديهم دون أن يملأوها نشاطاً ويعبئوها عملاً مثمراً فيه نفع وفائدة وخير للناس؛ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

وأما الذين يعيشون في خمول وكسل .. فهؤلاء هم الفاشلون في كل زمان ومكان... ومن صفات أحدهم أنك تراه يلقي باللوم على الآخرين، وعلى الزمن وعلي الحياة، ولا يسلم من لومه حتى السمك في البحر..
والشيء اللافت للنظر، هو أن الإسلام في كل مناهجه يطالب بالنشاط والحيوية، فالقرآن الكريم، كتاب حافل بالآيات التي تدعو الناس إلى التحرك السريع، والمسابقة الحثيثة في كل ميادين النشاط والحيوية :

- ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (١).
 - ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ (٢).
 - ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (٣).
 - ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٤).
 - ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٥).
- وفي الحديث : ساع سريع نجا.

(١) مريم/ ١٢.

(٢) البقرة/ ٦٣.

(٣) الأنفال/ ٦٠.

(٤) الحديد/ ٢١.

(٥) آل عمران/ ١٣٣.

وكان الإمام الصادق - سلام الله عليه - يقول ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الدين.

ويقول: "إذا قمت إلى الصلاة فاصفق وجهك بماء الوضوء" وتأمل معي عبارة: "فاصفق وجهك بماء الوضوء" تجد أنها عبارة قوية التأثير على الإنسان، مشتعلة كالجمرة، بحيث تنزل على وجهه، فيطير النوم من عينيه، ويحترق الكسل، وينطفئ الخمول.

وإذا بقي الواحد منا يترنح في أجواء الخمول والكسل، نزلت عليه أسياط الإمام الصادق تفقّهه في الدين، وتوقظه وتعلمه كيف يكون قمة في النشاط والحيوية... قمة في العمل الدؤوب الذي لا يعرف الملل ولا الكسل ولا الخمول بل يسحقها تحت أقدامه، وينطلق نحو البناء والمستقبل والحرية في رحلة كادحة: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (١).

رحلة ولكنها رحلة هادفة وليست غوغائية، إنها رحلة ذات هدف ومغزي، وهدفها أن تكون مرضية عند الله راضية بما قسم الله لها من رزق وأعطائها من ثواب. على أن لكل واحد من هذه الحالات الثلاث التي مرت بنا، وهي التقدم والتراجع والركود.. أقول لكل واحد صفة ونظرة إسلامية كاملة حولها.. فحالة التقدم يعتبرها الإسلام قمة في النجاح والإيمان والانطلاق، حيث يقول الرسول الأعظم ﷺ: "الكيس من كان يومه خيراً من أمسه". والكيس هو الإنسان الفطن الناجح كما ورد في الحديث "إن الله يحب المؤمن الفطن".

(١) الانشقاق / ٦.



أما الحالة الثانية وهي حالة الوقوف والركود، حالة تساوي الأيام والليالي لدى الإنسان بحيث تتحول الحياة إلى رتابة مملة لا تثير اهتماماً، ولا تشكل تقدماً، فيصفها الإسلام بالغبن- ويصف صاحبها بأنه إنسان مغبون إذ يقول: "من تساوى يوماء فهو مغبون".

أما الحالة الثالثة والأخيرة وهي حالة التراجع فيعتبرها الإسلام محطة لنزول اللعنة على صاحبها فيقول الرسول الأعظم ﷺ: "من كان شراً من أمسه فهو ملعون" إي والله أجل، إن الذي يكون يومه أكثر شراً من أمسه وتكون حياته الحاضرة أكثر تراجعاً من حياته السالفة وأيامه المنصرمة ولياليه الفاتئة فإنه ملعون لأنه يواصل الخروج من رحمة الله. أعاذنا الله وأياكم أن نكون ممن تنزل عليه اللعنة بسبب تراجعهم وتأخرهم وجموده.

وذلك إن الإنسان المؤمن دائماً منطلق إلى الأمام ودائماً في تقدم وتكامل وصعود.

واجبات العالم

والنفس الأمارة بالسوء

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (١).

هذا بالنسبة لمن شاء أن يستقم في حياته، وفي عمله.. أما بالنسبة للذين أعرضوا عن هذا النور، وراحوا يتخبطون في الظلام، فنقرأ الآيات التالية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (٢).

وآية الثانية تقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكَهُ يَلْهَثْ﴾ (٣).

(١) فصلت/ ٣٠-٣١.

(٢) الحج/ ١١.

(٣) الأعراف/ ١٧٥-١٧٦.

ونجد في الآية الأولى صورة الرجل الذي يتعامل مع الله وفقاً لبورصة الأسهم وليس حسب ما يمليه عليه الضمير والوجدان، فتراه يعبد الله على جانب واحد في الحياة وهو مصالحته الشخصية، فما دامت الدنيا مقبلة عليه فالإسلام في خير والدين نعم الدين، فإذا أدبرت عنه الدنيا اختل توازنه وسقط علي وجهه يلعن الدين والعقيدة والأخلاق، وما أكثر الناس الذين هم نسخة مكررة لهذا الشخص الذي يزن الإيمان بمقدار ما تدر عليه الدنيا من أرباح.

وما أعظم سيد الشهداء الإمام الحسين أبا الأحرار حين يصور لنا هذا اللون من البشر فيقول: "الناس عبيد الدنيا والدين لعق علي أسنتهم يحوطونه ما درت معاشهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون" ثم تطالعنا الآية بصورة دقيقة رسمتها ريشة السماء بعناية فائقة للعالم الذي آتاه الله العلم والجاه، والعزة والكرامة، ولكنه لم يعرف قدر هذه العطية فداسها تحت قدميه وسار في ركاب الظالمين لا يلوي على شيء بما أن زلة العالم جسيمة وخطيرة فقد شن القرآن الكريم على هذا اللون من العلماء حرباً شعواء لا هوادة فيها، لأن انكسار العالم في المجتمع يشبه إلى حد كبير انكسار السفينة في البحر حيث إنها تفرق وتفرق من فيها.. فلو كان الأمر مقصوراً على غرق السفينة وحدها لهان الخطب، ولكنها إذا غرقت لا تفرق وحدها، وإنما تفرق من فيها أيضاً.

ولذلك نقرأ الآية الكريمة فتجدها تصور العالم المنحرف الضال المضل أبشع تصوير.. إنا مثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. والسبب في ذلك أنه اندفع مع الشيطان فأخذته تيارات الغواية



والضلال والتصق بالتراب بدل أن يخلق في الفضاء.. بدل السمو
انحط إلى تحت الأقدام، وهذا شأن كل عالم آتاه الله عطاء وعلماً فلم
ينتفع بعلمه.. إنه أشبه بمن يحمل نورا ولكنه يعيش في الظلام، أو كما
قال الشاعر:

كالعيس في البیداء یقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول
وملخص القصة التي تتطوي عليها الآية الكريمة، هو أن عالماً من
بني إسرائيل كان مع موسى في البداية وقد آتاه الله الاسم الأعظم،
فما عرف قدر هذا العطاء، ولا عرف قدر النبي موسى -سلام الله
عليه - فثار ضد موسى، ووقف مع الظالمين ضد المظلومين.. ومع
الجلاد ضد الضحية.. وبدل أن يمسح دموع المحرومين من عيونهم..
راح يضربهم بالسياط على رؤوسهم.

أجل.. إنها النفس الأماره بالسوء، التي لا يأمن شرها عاقل ولا فطن
أبداً.



من روائع الإمام الحسين عليه السلام

في واحدة من روائعه يقدم الإمام الحسين عليه السلام نموذجا طيبا للإنسان الأصيل حيث يطلب منا ومن الجميع المحافظة عليه والتمسك به إذا وجدناه. وملخص هذه الرائعة أن الحسين وقع نظره - ذات يوم - على غلام أسود يعمل في بستان، وكان الغلام يقدم طعامه لكلب أسود كان على مقربة منه، فسأله الإمام الحسين عن تقديمه طعامه للكلب بينما ظل هو جائعاً؟ فقال: سيدي، إن هذا الكلب غريب وليس من هذه المنطقة رأيت أنه قد أجهد السفر وهو جائع فما أحببت أن أفضل نفسي عليه بحيث أتمتع بالطعام بينما يظل الكلب جائعاً، لذلك أثرته على نفسي وقدمت طعامي له! وهنا أراد الإمام الحسين أن يحفظ هذا الصنيع الجميل للغلام وأن يعمق هذا السلوك في نفسه وأعماقه، فسأله عن صاحب البستان، ولما عرف الإمام الحسين أن هذا الغلام عبد مملوك لسيده ذهب إليه واشتري منه العبد والبستان معا، ثم رجع من فوره إلى الغلام فأخبره أنه اشتراه من سيده ثم أعتقه في الحال، ووهب له البستان فصيره حراً بعد أن كان عبداً، وأغناه بعد أن كان فقيراً..

والحسين بعمله هذا إنما أراد أن يعمق الخصال الطيبة في النفوس، وأن يسقي شجرة الأخلاق في النفس الكريمة ومعاهدتها ورعايتها لئلا تذبل ويصيبها اليبس.



تربية وأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (١)

قال الشيخ البهائي: إني في عنفوان الشباب، رأيت فيما يري النائم: أن القيامة قد قامت، وقد دار في خلدي: أن الله لو خاطبني بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ فماذا أجيبه وماذا أقول له.. ثم ألهمني الله عز وجل، في المنام أن أقول "غرنى كرمك يا رب" ثم إني وجدت شاهد هذا المعنى في التفسير (٢) ..

يقول الإمام السجاد عليه السلام: (وغرنى سترك المرخي علي، فأنا الآن من عذابك من يستقذني).

(١) الانفطار/ ٦.

(٢) كشكول البهائي ٢/ ٣١٦-٣٢٨.



أحاديث في الأخلاق والحضارة

قال الإمام علي عليه السلام: من لم يتغافل، ولا يَغُضُّ عن كثير من الأمور تتفصت عليه عيشته^(١).

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: ألزم العلم لك، ما ذلك على صلاح قلبك، وأظهر لك فسادك^(٢).

وقال الإمام علي عليه السلام: مغلوب الشهوة أذل من مملوك الرق^(٣).

وقال أيضا: رأس الإيمان حسن الخلق والتحلي بالصدق^(٤).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق، كما يعطي المجاهد في سبيل الله، يغدو عليه ويروح^(٥).

وقال أيضا إن أجلت في عمرك يومين.. فاجعل أحدهما لأدبك، لتستعين به على يوم موتك^(٦).

(١) كتاب أخلاق الفلاسفي ص ٤٣٥.

(٢) نقلاً عن المستدرک، ٢/٣٥٥.

(٣) نقلاً عن المستدرک، ص ٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٧.

(٥) نقلاً عن الكافي ٢/١٠١.

(٦) نقلاً عن روضة الكافي ص ١٥٠، ص ٧.



وقال الرسول ﷺ : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق^(١).

وعن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: إنك امرؤ قد أحسن الله خلقك فأحسن خلقك^(٢).

وجاء في لسان العرب: الخلق صورة الإنسان الباطنية - أي النفس - والخلق صورته الظاهرية - أي البدن^(٣). وقال الإمام علي عليه السلام: حسن الخلق للنفس وحسن الخلق للبدن.

وقال الله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٤).

أي أن أحسن صورتك الظاهرية، وأراد منك أن تقوم أنت بتحسين صورتك الباطنية. وقال النبي ﷺ: العلماء رجالان: رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج.. وعالم تارك لعلمه فهذا هالك^(٥).

وقال الإمام علي عليه السلام: «رب عالم قد قتله جهله.. وعلمه معه لا ينفعه»^(٦).

وقال أيضاً: وكم من عقل أسير، عند هوى أمير^(٧).

وقال: «العدل أنك إذا ظلمت، أنصفت، والفضل أنك إذا قدرت عفوت»^(٨).

(١) نقلاً عن مستدرک الوسائل ٢/٢٨٢، ص ٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٦.

(٣) ص ١٦.

(٤) التين/ ٤.

(٥) نقلاً عن البحار ١/٩٧.

(٦) نقلاً عن البحار ١/٩٩.

(٧) نهج البلاغة، ص ٢٧.

(٨) المصدر السابق ص ٣٠.



وقال: من شرفت نفسه، نزهها عن ذلة المطالب^(١).

وقال: الكرم حُسن السجية، واجتناب الدنية.

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: من كرمت عليه نفسه، هانت عليه الدنيا..

وقال الإمام علي عليه السلام: من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته.

وقال أيضاً: من كرمت عليه نفسه، لم يهنها بالمعصية.

وقال أبو الحسن الثالث عليه السلام: «من هانت عليه نفسه فلا تأمن شره»^(٢).

وقال الإمام علي عليه السلام: الكريم يرى مكارم أفعاله ديناً عليه يقضيه^(٣).

وقال أيضاً: النفس الدنية، لا تتفك عن الدناءات.

وقال: ... فالصورة صورة إنسان.. والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتبعه.. ولا باب العمى فيصد عنه، فذلك ميت الأحياء^(٤).

وقال الرسول الأعظم ﷺ: من السعادة الرجل حسن الخلق، ومن شقاوته سوء الخلق^(٥).

(١) المصدر نفسه ص ٣٧.

(٢) عن البحار ١٧ / ٢١٤.

(٣) نقلاً عن غرر الحكم ص ٩٠.

(٤) عن النهج رقم الخطبة (٨٦).

(٥) نقلاً عن المستدرک ٨٣ / ٢.

وقال ﷺ: "إن الخلق الحسن يذيب الذنوب كما تذيب الشمس (الجمد) الجليد - وإن الخلق السيء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل.." (١).

وقال الإمام السجاد: قال رسول الله ﷺ: "بعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها" (٢).

وقال الإمام علي عليه السلام: «ذلّلوا أخلاقكم بالمحاسن وقودوها إلى المكارم» (٣).

وقال أيضاً: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق (٤).

وقال الإمام علي عليه السلام: لا عيش أغني من حسن الخلق.

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: رب عزيز أذله خلقه، ورب ذليل أعزه خلقه (٥).

وقال الرسول ﷺ: عليكم بمكارم الأخلاق، فإن الله عز وجل بعثني بها (٦) ..

وقال الصادق عليه السلام: "اعمل واحمل على رأسك.. واستغن عن الناس" (٧).

(١) عن مشكاة الأنوار، ص ٢٢١.

(٢) عن مشكاة الأنوار، ص ٢٤٣.

(٣) نقلاً عن تحف العقول ص ٢٢٤.

(٤) بحار ١٣٠/١٧.

(٥) عن سفينة البحار، ص ٤١١.

(٦) عن المستدرک ٢/٢٨٣.

(٧) نقلاً عن المحجة البيضاء ٣/١٤٣.

وفي البحار أن رجلاً تكلم كلاماً لا يليق بحضرة الإمام علي عليه السلام: وكان الإمام قد رجع إلى المجلس، وصعد المنبر وقال: "أين المتكلم آنفاً، فلم يستطع الإنكار فقال: ها أنذا يا أمير المؤمنين، فقال: أما أني لو أشاء لقلت، فقال: أو تعفو وتصفح فأنت أهل لذلك .. فقال: عفوت وصفححت" (١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: الخلق الحسن جمال في الدنيا ونزهة في الآخرة، وبه كمال الدين، والقربة إلى الله تعالى.

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس إني أعلم أنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن بالطلاقة، وحسن الخلق...

وقال الصادق عليه السلام: حسن الخلق يزيد في الرزق.

وقال الإمام السجاد عليه السلام: "القول الحسن يثري المال، وينمي الرزق، وينشئ في الأجل، ويحبب إلى أهل ويدخل الجنة" (٢).

* اللهم أنت السلام، ومنك السلام... وإليك يعود السلام.. ودارك دار السلام (٣).

وقال الإمام علي - سلام الله عليه-: "النية أساس العمل".

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: من بات وفي قلبه غش لأخيه المسلم.. بات في سخط الله وأصبح كذلك حتى يتوب (٤).

(١) نقلاً عن البحار المجلد التاسع ص ٥٣٩ الطبعة القديمة.

(٢) عن أمالي الصدوق ص ١٠٨ - ٢.

(٣) في أعمال مسجد الكوفة - في مفاتيح الجنان.

(٤) عن أمالي الصدوق، ص ٢٥٧.

وقال الإمام علي- سلام الله عليه- إن العاقل يتعظ بالأدب،
والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب.

وفي القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ
الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (١).

وفي المستدرک ٢/ ٢٨٤: في قصة سفانہ بنت حاتم .. يقول الرسول
ﷺ: خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق.

وقال الرسول ﷺ: السلام عليكم يا أهل الدار- إن هذه الجارية
أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها. فقالوا هي حرة لمشاك يا رسول الله...
وقال النبي ﷺ: لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق....

وقال النبي ﷺ من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم.. ومن
سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم.

وقال أيضاً: ليس بمؤمن من بات شبعاناً وجاره طاوياً.
وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (٢).

وقال علي بن الحسين السجاد عليه السلام: "وإذا شتمك رجل عن يمينك ثم
تحول إلى يسارك فاعتذر إليك فاقبل عذره" (٣).

وفي القرآن الكريم: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

(١) الأنعام/ ٨٢.

(٢) الرعد/ ١١.

(٣) عن مشكاة الأنوار، ص ٢٢٩.

* اعلم أن منشأ مرض الفكر هو الأخلاق الفاسدة، والصفات الرديئة، ومنشأ أمراض البدن، اختلال التوازن الفسيولوجي..

وخطورة مرض البدن، مقصورة على صاحبها.. في حين أن مرض الفكر يدمر المجتمع. أي أن مرض القلب يدمر الشخصية والمجتمع، في حين مرض البدن يدمر الشخص.

قال النبي ﷺ : إذا أراد الله بعبد خيراً، فقهه في الدين .. وزهده في الدنيا، وبصره عيوبه..

وعن الإمام علي عليه السلام: "أبصرُ الناس من أبصر عيوبه، وأقلع عن ذنوبه..".

وعنه عليه السلام من أشد عيوب المرء، أن تخفي عليه عيوبه.

وعنه عليه السلام: جهل المرء بعيوبه من أكبر ذنوبه.

عن الإمام الصادق عليه السلام: إن الله فوض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوض إليه أن يذل نفسه.

وعن الإمام علي عليه السلام: ساعة ذل تفي بعز الدهر^(١).

وفي حياة الحيوان ١٥٥/٢: قصة الذبائح التي أمر علي عليه السلام بإلقائها في كناسة الكوفة^(٢) فراجعها.

قال رجل للنبي ﷺ : يا رسول الله مرني بعمل وأقل: قال: لا تغضب، وكررها ثلاث مرات، فقال: لا تغضب^(٣).

(١) عن غرر الحكم، ص ٤٣٤.

(٢) وفي حياة الحيوان ١٥٥/٢.

(٣) ص ٢٠٧.



وعن الإمام الصادق عليه السلام: أحب إخواني إلي من أهدى إلي عيوبي^(١).

وعن الإمام علي عليه السلام: شر إخوانك من داهنك، في نفسك وساترك عيبك .

وعنه أيضا: إنما سمي العدو، عدواً لأنه يعدو عليك فمن داهنك في معاييك فهو العدو^(٢).

وعنه: أعداء الرجل قد يكونون أنفع من إخوانه لأنهم يهدون إليه عيوبه^(٣).

وعنه: "يا كميل : المؤمن مرآة المؤمنين لأنه يتأمله، فيسد فاقتة ويجمل حاله"^(٤).

وعنه: أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله فإنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل^(٥).

وعنه: الكذب زوال المنطق الإلهي^(٦).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: لا يكذب الكاذب إلا من مهانة نفسه^(٧).

(١) ص ٢١٠.

(٢) ص ٢١٣.

(٣) شرح النهج ٢٠/٢٧١.

(٤) شرح النهج ص ٢١٧.

(٥) ص ٢٤٣.

(٦) ص ٢٥٤.

(٧) المستدرک ٢/١٠٠.



وعن الإمام الصادق عليه السلام: ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه^(١)....

وقيل: اعرف المرض أولاً ثم احضر العلاج..

وعن الإمام السجاد عليه السلام: من لم يعرف داءه، أفسد دواءه^(٢)...

وقال رجل للنبي ﷺ: أوصني فقال ﷺ: احفظ لسانك . قالها ثلاث مرات ويحك وهل يكب الناس علي مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم^(٣).

وعن الإمام علي عليه السلام: لسانك يستدعيك ما عودته ونفسك تقتضيك ما ألفتها.. ألفتها^(٤).

وعن الإمام السجاد عليه السلام: وأما حق ولدك فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره، وشره وأنت مسؤول عما وُلِّيَتْهُ^(٥).

وعن الإمام علي عليه السلام: إياك ومصاحبة الفساق فإن الشر بالشر ملحق..

وعنه عليه السلام: صحبة الأشرار تكسب الشر كالريح إذا مرت بالنتن حملت نتناً^(٦).

(١) الكافي ٢/٣١٢.

(٢) عن بلاغة علي بن الحسين ص ١٠٨ - ٢٤٩.

(٣) عن تحف العقول، ص ٥٦.

(٤) تحف العقول ص ٢٢٨.

(٥) ص ٢٣٣.

(٦) ص ٢٣٥.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: من خالط الأندال حُقِّرَ (أو حَقَّرَ) ^(١).

* انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً.. قال : أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً.. قال: كفه عن الظلم ^(٢).

* المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

وعن الإمام علي عليه السلام: من كمال السعادة السعي في إصلاح الجمهور ^(٣).

* وفي تفسير قوله قوا أنفسكم، سأل أبو بصير الصادق عليه السلام: هذه نفسي أقيها فكيف أقي أهلي؟ قال: تأمرهم بما أمرهم الله، وتنهاهم عما نهاهم الله عنه ^(٤).

* وجاء في سيرة فاطمة الزهراء عليها السلام أنها كانت تخصص الساعة الأخيرة من نهار الجمعة للدعاء، وأنها في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك كانت لا تنام (تتجافى عن النوم) وتحرض جميع من في بيتها لإحياء الليل بالعبادة والدعاء. وكانت تشكو من تورم في قدميها لكثرة وقوفها بين يدي ربها خاشعة ومتهجدة ^(٥).

* وعن علي عليه السلام: شيئان لا يعرف فضلهما إلا من فقدهما: الشباب والعافية ^(٦).

(١) ٢٣٦.

(٢) ٢٤٣.

(٣) ٢٤٤.

(٤) عن تفسير نور الثقلين ٣٧٢/٥.

(٥) من كتاب وتر في غمد.

(٦) ميزان الحكمة، ٦/٥.

* " وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته" (١).

وعن الصادق لأحد أصحابه : " أتيت البصرة؟ قال: نعم قال عليه السلام: كيف رأيت مسارعة الناس في هذا الأمر ودخولهم فيه؟ فقال: والله إنهم لقليل، ولقد فعلوا ذلك وإن ذلك لقليل، فقال: عليك بالأحداث، فإنهم أسرع إلى كل خير" (٢).

وعن نبي الله أيوب عليه السلام: " أن الله يزرع الحكمة في قلب الصغير والكبير فإذا جعل الله العبد حكيماً في الصبا لم يضع منزلته عند الحكماء حداثة سنه، وهم يرون عليه من نور الله وكرامته" (٣).

وعن الصادق عليه السلام: لست أحب أن أرى الشاب منكم إلا غادياً في حالين: إما عالماً أو متعلماً، فإن لم يفعل فرط، فإن فرط ضيع فإن ضيع أثم وإن أثم سكن النار والذي بعث محمداً بالحق" (٤).

وعنه أنه قال: ليت الشياطين على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا، وعن الباقر عليه السلام: "لو أتيت بشاب من شباب الشيعة لا يتفقه لأدبته" (٥).

وعن الرسول ﷺ: "إن الله يحب الشاب التائب".

(١) المصدر نفسه ص ٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٧.

(٤) المصدر نفسه ص ٨.

(٥) المصدر نفسه ص ٨.

* ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب.. وما من شيء أبغض إلى الله تعالى من شيخ مقيم على معاصيه.

* "إن الله تعالى، يباهي بالشاب العابد، الملائكة، يقول: انظروا إلى عبدي! ترك شهوته من أجلي"^(١).

* سبعة في ظل عرش الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل."

* إن الله يحب الشاب الذي يفني شبابه في طاعة الله^(٢).

* من الفتى:

عن الصادق لبعض أصحابه: "من الفتى؟ قال: جعلت فداك الفتى عندك الشاب، قال أما علمت أن أصحاب الكهف كانوا كلهم كهولاً فسماهم الله فتية بإيمانهم.. من آمن بالله واتقى فهو الفتى"^(٣).

(١) المصدر نفسه ص ٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٨.

(٣) المصدر نفسه ص ١٠.



المدامومة على العمل شرط نجاحه

المدامومة على العمل شرط أساسي في نجاحه، وليس شيء أضرّ على العمل من الانقطاع والكسل الذي يصيب العاملين في حقل العمل.

يقول الرسول الأعظم محمد ﷺ: «إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل أدومها، وإن قلّ فعليكم من الأعمال بما تطيقون»^(١) يقول سبحانه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾^(٢).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ بِوَكِيلٍ﴾^(٣).

ونقرأ هذا الحديث لنكون أكثر حماساً للعمل الصالح قال رسول الله ﷺ: يا معشر المسلمين، شمروا، فإن الأمر جد، وتأهبوا فإن الرحيل قريب، وتزودوا فإن السفر بعيد وخففوا أثقالكم فإن وراءكم عقبة كئودا لا يقطعها إلا المخففون.. أيها الناس إن بين يدي الساعة أموراً شداداً، وأهوالاً عظاماً وزماناً صعباً، يملك فيه الظلمة ويتصدر فيه الفسقة... ويضام فيه الأمرون بالمعروف، ويضطهد فيه الناهون عن المنكر، فأعدوا لذلك الإيمان، وعضوا عليه بالنواجذ، والجاؤا إلى العمل الصالح، واکرهوا عليه النفوس، تفضوا إلى النعيم الدائم.

(١) أمالي المرتضى ١/ ٥٥.

(٢) الأعراف/ ١٧٨ - ١٧٩.

(٣) الزمر/ ٤١.

فاطمة الكادحة

في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (١).

أخرج علامة الأحناف الحافظ الحاكم الحسكاني (بسنده المذكور)
عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال :

دخل النبي ﷺ على فاطمة وعليها كساء من جلد الإبل، وهي
تطحن، فدمعت عيناه فقال: يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا لحلاوة
الآخرة .

قال: فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٢).

(١) الضحى/ ٥.

(٢) شواهد التنزيل ٢/٣٤٢. وقرأ فاطمة الزهراء في القرآن ص ٣٣٤.

خير الناس من عمل بعلمه

قال رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفاري رضوان الله عليه : « يا أبا ذر جلوس ساعة عند مذاكرة العلم، أحب إلى الله تعالى، من قيام ألف ليلة يصلي في كل ليلة ألف ركعة»^(١) .

ويقول النبي الكريم: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم»^(٢) .
وواضح جداً أن الممارسة دائماً تفتح أفقاً جديدة من العلم. فالباب الواحد من العلم إذا طرقته انفتح لك على أبواب وأبواب جديدة. يقول الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام «ليس العلم بكثرة التعلم، وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء» وتفسيره: أن من أحب عباد الله إليه، عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن ، وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه .

على أن هذه الحالة، حالة الخشوع والتوجه الكامل إلى العلم والعمل به، أقول : هذه الحالة لا يمكن تحقيقها إلا بالثابرة، والعمل الدائم المتواصل الذي لا يعرف الانقطاع. فالدنيا دائماً لمن يعمل، ومن دون عمل لا يحصل التقدم في الحياة. والمسألة ليست مسألة أمنية شائق يتمنى .. يقول سبحانه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾^(٣) .

(١) كتاب الفضيلة الإسلامية ص ١٦ . للإمام الشيرازي.

(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

(٣) النساء / ١٢٣ .

وجاء في وصية الإمام موسى بن جعفر - عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - لهشام بن الحكم وهو واحد من كبار تلامذة الإمام وأصحابه، قال له: «يا هشام إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١).

يا هشام ثم بين أن العقل مع العلم، فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٢).

يا هشام ثم ذم الذين لا يعقلون فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤).

(١) الزمر/١٧-١٨.

(٢) العنكبوت/ ٤٣.

(٣) البقرة/ ١٧٠.

(٤) الأنفال/ ٢٢.

تحريك المشاعر . . .

من أجل العمل الصالح

قالوا: إن العقل بمنزلة النور، والمصباح في الإنسان وهو الذي يقود الإنسان، غير أن هذا الرأي ليس دقيقاً ولا صائباً بالكامل .

صحيح أن العقل بمنزلة النور أو المصباح الذي ينير الطريق أمامنا، ويكشف لنا عن الحق والباطل، وعن الصلاح والفساد ويحفظ الإنسان من السقوط والضياع هذا صحيح ولكن الصحيح أيضاً هو أن الذي يحرك الإنسان في الحياة هو العواطف والمشاعر والأحاسيس فالعواطف هي التي تحرك الناس في الجوانب المادية والمعنوية ولذلك نجد الأنبياء أثبتوا العقيدة والإيمان بالعقل والطرق العقلية ولكن في أداء الواجبات واجتتاب المحرمات وحركة الإنسان نجد الأنبياء قد استخدموا العواطف والمشاعر وأثاروها كما أثاروا دفائن العقول في البشر فمثلاً الحب في عالم الموجودات له تأثير كبير ولذلك نجد الأنبياء قد حركوا هذا الجانب في الناس .

فالكائن الحي بفعل حب الذات يدافع عن نفسه والأم بحبها لولدها تدافع عنه وتتحمل متاعب أطفالها وحب المال والجاه والمنزلة هو الذي يحرك أسواق العالم ويجعل الحركة مستمرة الخ. وفي تعاليم الإسلام نجد أنه من أجل أداء الفرائض وترك المحرمات، نجد الإسلام

يستخدم قوة الحب وغريزة الحب في النفس فيقول: «وَهَلْ الدِّينُ إِلَّا
الْحُبُّ».

ويقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ﴾ (١).

يقول النبي ﷺ: «حَسِينٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حَسِينٍ أَحَبُّ إِلَهِ مِنْ أَحَبِّ
حَسِيناً» .

وهكذا نجد الإسلام قد ركز تركيزاً بالغاً على هذا الجانب بالذات،
جانب تحريك المشاعر والعواطف للاندفاع في ساحات العمل والبناء .

(١) آل عمران/ ٣١.



مُتْ وَأَنْتَ فِي أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ

كتب الصادق إلى بعض الناس يقول: «إن أردت أن يختم بخير عملك حتى تقبض وأنت في أفضل الأعمال، فعظم لله حقه أن تبذل نعماءه في معاصيه وأن تغتر بحمله عنك وأكرم كل من وجدته يذكرنا أو ينتحل مودتنا، ثم ليس عليك كان أو كاذباً، إنما لك نيتك وعليه كذبه»^(١).

(١) كتاب عارف وصوفي جي ميکويند ص ١٤٢.



العاقبة من نوع العمل

النتائج - دائماً - مرتبطة بالمقدمات .. فالإسراف مثلاً ، يعتبر مقدمة للفقر، وبذلك نجد الفقر دائماً مرتبطاً بالإسراف، والذل مرتبطاً بالجبن وزوال السلطان مرتبطاً بالظلم ، فكل نتيجة مقدمة، والمقدمات دائماً لها نتائج ..

وعلى سبيل المثال، نأخذ الذنوب، فنجد لكل ذنب نتيجة والنتيجة هي صدى الذنب ولا يمكن أن يمر ذنب من دون صدى.. ولكل عمل عاقبة حلوة، أو مرّة. لأن الحلاوة والمرارة تابعة لنوع العمل، فإذا كان العمل صالحاً وحسناً كانت العاقبة حلوة وحسنة، وإذا كان العمل فاسداً وشريراً، كانت العاقبة مشوهة ومرّة. وإذا كانت المقدمة فاسدة كانت النتيجة فاسدة، والسبب الأول في الفساد هو انحراف الإنسان عن خط السماء وابتعاده عن مناهج الفطرة .

ويحدث دائماً أن يعطل الإنسان كل وظائفه الجسدية والنفسية ، فتكون النتيجة عذاباً وحرماناً وتمزقاً - وذلك أن الناس عطّلوا وظائف أنفسهم فهم يملكون قلوباً ولكنهم لا يحركونها بالإيمان والعمل ويملكون عيوناً وآذاناً ولكنهم لا يسمعون بها ويبصرون.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١).

(١) الأعراف/ ١٧٩.

ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (١).

وللنجاح والظفر، وأن تريح الحياة يقول الحق: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٢) وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢).

وفي آية أخرى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَّلًا مِّنْ غُفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (٣).

ونقرأ في سورة يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (٤).

واقروا إذا شئتم قصة الرجلين، المؤمن والكافر في سورة الكهف رقم الآية ٣٢ وهي في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِنْ جَنَّاتٍ جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

فإن في هذه القصة درساً لتقويم نفوسنا.

(١) الحج/ ٤٦.

(٢) هود/ ١١٢-١١٥.

(٣) فصلت/ ٣٠-٣٢.

(٤) يوسف/ ١٠١.

النية ملاك العمل

يقول الرسول الأعظم ﷺ «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى».

النية معناها أن تتوي بقلبك أن تصنع شيئاً ما، أو تقوم بعمل ما، ثم تحدد هدفك من وراء العمل.. فمثلاً أنت تريد أن تطعم الجائعين. هذا عمل، ولكن يظل الهدف وتظل الغاية من وراء عملك هذا هي المسيطرة على سير العمل وعلى جوهره بل الغاية من العمل هي تعطيه لونها وتصبغه بصبغتها.. فهل أطعمت الفقراء ، ليقال فلان كريم..؟ أم أنك أطعمتهم لوجه الله لا تريد منهم جزاءً ولا شكوراً ؟

هذا هو السؤال ؟ .. هل العمل لله أم لغير الله ؟ إن النية هي الملاك فيها يصبح العمل مقبولاً عند الله .. وبالنية أيضاً يصبح العمل مرفوضاً من عند الله سبحانه فالنية الصالحة تجعل العمل جوهرة ثمينة، والنية الرديئة تجعله ذرة تافهة. لونحن نعرف أن الرياء إذا دخل في عمل أفسده. ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١).

ولذلك كانت نية الإنسان هي المدار، وهي الملاك.. حتى قيل «نية المرء خير من عمله» .

(١) الكهف/ ١١٠.



ويقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

ولهذا السبب أيضاً، نجد الله سبحانه لا يتقبل عملاً من كافر قط.
﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ (٢) ..

أما العمل الذي فيه الإيمان بالله وفيه الخير للناس، وفيه الروح الطيبة، فإنه يترك صبغته على جو العمل. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (٣).

أي أن اللون هو لون الإخلاص في العمل، وليس لون الرياء. إن الإخلاص يرفع العمل إلى درجات عالية، بينما الرياء يهوي به في مكان سحيق .

ومن هنا كان الطعام الذي أطعمه أهل البيت مسكيناً ويتيماً وأسيراً، كان عظيماً ومقبولاً عند الله سبحانه وتعالى، وذلك لسببين اثنين: هما: عظمة النفس التي أطعمت الطعام، فنفسهم كانت في قمة العظمة والسمو، وإذا كانت النفوس كباراً كبرت وعظمت الأعمال التي تقوم بها تلك النفوس، حتى تكون ضربة علي عليه السلام يوم الخندق أعظم وأفضل من عبادة الثقلين إلى يوم القيامة، ويكون إطعام خمسة أرغفة من خبز الشعير للمسكين واليتيم والأسير، عملاً عظيماً يقتضي نزول سورة الدهر التي تتحدث عن رحلة الإنسان في الأرض منذ أن كان ذرة

(١) المائدة / ٢٧ .

(٢) إبراهيم / ١٨ .

(٣) البقرة / ١٢٨ .

في عالم الذر وإلى أن تنتهي رحلته في الأرض، ويفادها في طريق العودة إلى الله سبحانه وتعالى .

أما السبب الثاني، فهو الإخلاص في العمل، لله وحده لا شريك له . ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۖ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۖ (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۖ (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۖ (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (١) .

(١) الإنسان / ٨-١٢ .

قادم من كوكب آخر

* من قصص البرزخ:

في البرزخ قصص وحكايات رائعة، ومؤثرة إلى أبعد الحدود، في التكامل النفسي، والبناء التربوي، وذلك أن النفوس تبقى في عطش، وظماً دائم لمعرفة البرزخ، وما يجري فيه على أهله، من نعيم أو عذاب.

إن البرزخ هو العالم الذي يفصل بيننا وبين يوم القيامة، وفي اللغة كل شيء يفصل بين شيئين فهو برزخ بينهما، يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (١).

والبرزخ هنا هو الفاصل بين البحرين، إلى آخر ما جاء في القرآن واللغة بخصوص شرح البرزخ. والذي يهمنا، هنا، هو نقل قصة حدثت في عالم البرزخ، فيها كثير من التوجه إلى ذلك اليوم، بالإضافة إلى أنها تعطي صورة حقيقية لما يجري للإنسان بعد الموت. على أنني ما قرأت ولا سمعت قصة أحسن ولا أجمل من هذه القصة في إبراز معالم البرزخ، وتصوير الحقائق البرزخية تصويراً علمياً، يوافق مناهج الفكر الإسلامي، ومعالم القرآن الكريم في هذا المجال، أي في نظرية الإسلام لعالم البرزخ، الفترة التي تفصل بين الحياة والقيامة. وإليك القصة الآتية: كان أحد العلماء يقال له: عبدالله الزاهد، وكان هذا العالم يسكن النجف الأشرف قبل أكثر من مائة عام وهو أحد الأولياء

(١) الرحمن / ١٩-٢٠.

الصالحين الذين كانوا يطلبون العلم بجوار الإمام علي أمير المؤمنين، -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- وكان عبدالله الزاهد، زاهداً، بالفعل وناسكاً وولياً من الصالحين، من الذين يسارعون في الخيرات، وفي العمل الصالح، حتى أصبح الإيمان مخالطاً لحمه وبدنه وقلبه، وذات يوم قرر الذهاب إلى الجبانه -المقبرة- بوادي السلام في النجف الأشرف قرب مرقد الإمام علي عليه السلام كعادته حيث اعتاد زيارة المقابر للترويح عن نفسه، في استحباب زيارة القبور.

ذهب عبدالله الزاهد، إلى وادي السلام لزيارة المقابر، وقراءة الفاتحة على أرواح الأموات، فوقع بصره على شاهد قبر مكتوب عليه: هذا قبر الشيخ علي الحسيني المتوفي في سنة كذا....، وحين رأى التاريخ، أعني تاريخ وفاة الرجل صاحب القبر، وجده قد مات من سبعمائة سنة.. وهنا بدأ يفكر هذا الشيخ الزاهد بهذا العدد من سنين، وكيف أمضاها صاحب القبر في البرزخ، وأين هو الآن، وبينما هو يقلب طرفه في شاهد القبر لاحت له فكرة اللقاء بصاحب القبر ولكن أنى له هذا وهو في الدنيا، وذاك في البرزخ قال: ولكن لا بأس سأصلي ركعتين وأسأل الله أن يجمعني بصاحب القبر في الدنيا لأسأله عن حياته، وأين هو.. هكذا فكر عبدالله الزاهد وما كاد يتم تفكيره، حتى وقف بين يدي الله يصلي ويدعو الله بقلب خاشع خاضع، وعيون فائضة بالدموع، ثم فرغ من صلاته، وقرأ سورة الفاتحة لصاحب القبر وسار ميمماً وجهه شطر المدرسة العلمية الدينية التي كان يقطنها، وكانت المدرسه تقع على مقربة من الصحن، الحيدري الذي يحتضن مرقد الإمام علي أمير المؤمنين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام-.

رجع عبدالله بن الزاهد إلى حجرته في المدرسة. في ليلة من ليالي الشتاء البارد ودخل حجرته، التي كانت تتألف من ثلاث حجر أو غرف متداخل بعضها مع بعض، على طريقة البناء القديم، دلف في الغرفة، وكان قد أعد كانونا من الجمر وضعه أمامه للتدفئة، وكانت أمامه شمعة يستعين بضوئها الضعيف على القراءة والمطالعة في الليل ثم تناول.. كتابا كان في متناول يده وراح يقرأ في هذا الكتاب، غير أنه لم يكد يقلب الصفحة الأولى حتى أحس بدخول رجل في غرفته.. ولكن كيف يدخل أحد والأبواب مقفلة؟ المهم رفع رأسه وإذا به يرى شاباً وسيماً جميلاً يقف بين يديه كأنه خرج للتو من حجرة العروس لشدة جماله وتأنقه، فأوجس الشيخ خيفة منه ولكنه ما لبث أن استعاد هدوءه وشجاعته والتفت إلى الشاب يسأله:

من أنت أيها الشاب؟

أنا صاحب القبر.

وكانت المفاجأة قوية لدى الشيخ عبدالله بن الزاهد لأنه نسى طلبه ومراده.. وظل صامتاً يفكر في الأمر... ولكن الشاب لم يمهل قليلاً حتى قطع عليه صمته وحيرته بقوله:

شيخنا أنت طلبت حضوري إلى هنا، وأحببت أن نلتقي أليس كذلك؟

نعم .. نعم يا ولدي.. آه قل لي بحق الله... كم لك في هذا العالم؟ أعني كم صار لك من الوقت وأنت ميت نائم في القبر...؟ قال الشاب: يا سيدي أنا لست نائماً في القبر وإنما أعيش في قصري وبستاني وأمارس حياتي الخاصة على شكل أفضل وأجمل مما كنت أمارسها بدار الدنيا.. (ثم أردف يقول) على أنني لم يمض علي وقت طويل وأنا



مقيم بهذه الحياة الجديدة وإنما أنا قد فارقت الدنيا منذ ساعات وليس أكثر من ذلك.

وإذا أحببت أقص عليك حكايتي بسرعه لتدرك ما أقول..

ثم تابع يسرد حكايته على الشيخ وأنه كان طالب علم يدرس في إحدى المدارس الدينية في مدينة الحلة، لأن الحلة كانت يومذاك هي مدينة العلم تضاهي النجف وقم في سعتها وقدرتها العلمية وتخرج منها العلامة الحلي وابن فهد وأمثالهما من الأبطال.

فقال الشاب: ومرت أيام وأنا أواصل دراستي للدين والشريعة.. حتى أملت بي نازلة مرض وعادية دهر فوقعت طريح الفراش أعاني من الآلام والتعب والحرمان.. ولطول فترة المرض الذي أصابني، فقد هجرني الناس جميعاً، كل الأصدقاء والأخوة تركوني، فلم أر أحداً منهم لقد تركني الأقربون والأبعدون، وصرت أدعو الله أن يعجل وفاتي سريعاً حتى أتخلص من هذا البلاء.. وذات صباح وفيما أنا أتقلب على بساط الألم في حجرتي إذ دخل علي شاب حسن الطلعة وحسن الصورة وله هيبة ووقار- كما دخلت أنا عليك الآن، فسألني عن ألمي فأخبرته، فصار يمسح بيديه على بدني بدءاً من قصاص شعري إلى أطراف أصابع قدمي، وكلما مرت يده على جزء من بدني شعرت بالراحة، وأحسست بارتفاع الألم. وهكذا فما كادت يده تصل إلى أطراف أصابع قدمي حتى شعرت بارتفاع الألم بالكامل... غير أنني وجدت نفسي اثنين وليس واحداً.. وجدت نفسي: أنا عبد الله الزاهد... وبدني مطروحا أمامي فشعرت بالخجل والإحراج إذ كيف يمكنني أن أقابل الناس في المدرسة وأنا اثنين.. على أنني لم أدرك أن هذا الذي حصل إنما هو الموت وأن هذا الزائر الذي زارني إنما هو

ملك الموت جاء لقبض روعي لم أكن أدرك شيئاً من هذا المعنى على الإطلاق .. وجاء الناس فحملوا بدني وأنا معهم لا أفارقهم في المغتسل وفي الجبانة وعند نزولي في القبر .. إلا أن الشاب الذي كان معي وبصحبتني قد تركني بمجرد أن أنزلوني في القبر تركني وخرج والناس يهيلون علي التراب وأنا أصرخ وأنادي والله إنني سأختنق .. ارحموني لا تسدوا منافذ الهواء عني ولكن دون أن أرى من مجيب .. لقد أطبق علي ظلام القبر الثقيل .. ولا أخفي عليك يا سيدي أنه ظلام ليس كما تعرفون من ظلام الدنيا، إن ظلمة القبر شيء آخر .. وذلك لأن ظلام الدنيا فيه سماء ونجوم ولكن ظلمة القبر لا مثيل لها ولا نظير أنه ظلام أسود يرخي عليك سدوله فيطبق عليك فلا تكاد ترى شيئاً لا من خلفك ولا من حولك .. ولهذا كان الإمام السجاد عليه السلام يبكي حينما يذكر ظلام القبر وسؤال منكر ونكير فيقول: "أبكي ومالي لا أبكي! أبكي لظلمة قبري .. أبكي لضيق لحدي .. أبكي لسؤال منكر ونكير في القبر أيأي .. وهذه- والكلام مازال للشاب صاحب القبر الذي جاء من البرزخ لزيارة هذه العالم الجليل في حجرته في المدرسة الدينية - حقيقة لا يعرفها إلا الذي ينزل في القبر ويرى بعينه؛ فقد كنت في غاية الخوف والفرع.

وبينما أنا على هذه الحالة إذا انفتح لي ضوء أضواء القبر ثم اتسع القبر فتحول إلى شيء آخر أكبر وأسع من القبر الذي أنا فيه .. وإذا أنا بالملائكة قد أقبلوا لحسابي ومن بينهم رأيت ملكين اثنين يختلفان بكل المواصفات عن بقية الملائكة ثم بعد ذلك علمت بأن هذين الملكين هما إلا منكر ونكير جاءا يحملان بأيديهما سجلاً كبيراً هو عبارة

عن كتاب قد دونت فيه كل أعمالي وأقوالي وحركاتي في الدنيا ... ثم بدأ على الفور يوجهان لي السؤال تلو السؤال، وأنا أتلعثم في رد الجواب ولا أقوى على ذلك بشكل كامل .. فما مرت إلا لحظات وإذا بالإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام قد أقبل وما إن وقع بصر الملائكة عليه حتى ابتعدوا عني قليلاً ووقفوا مصطفين احتراماً للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام فقال: ما عندكم من فلان ثم تناول الكتاب من أيديهم وأخرج قلمه ووقع فيه بخط يده إنني من أهل الجنة .. وكان في القبر نافذتان: واحدة عن اليمين وأخرى عن الشمال فأشار علي بيده لنافذة الشمال فأغلقت ثم أشار إلى نافذة اليمين فانفتحت وإذا أنا أجد نفسي في بستان عظيم لم أر أحسن ولا أحلى ولا أجمل منه في الدنيا قط، فدخلت فيه وإذا أنا بمدينة مطردة الأنهار كثيرة الأشجار ورأيت فتاة بارعة في الجمال تتخطى بين الخمائل والأغصان ووالله لو أنها أطلت علي أهل الدنيا وأرتهم ضفيرة واحدة من شعرها لمات الناس من الدهشة لجمالها .. أما أنا فأطرقت برأسي إلى الأرض لئلا يقع بصري عليها .. وإذا بها تتادي باسمي: يا فلان أنا زوجتك وهذا قصرك وبستانك .. ثم هرولت نحوي فعانقتها وكان علي جيدها قرط طويل من اللؤلؤ لم أر مثله طوال حياتي، ولشدة العناق الحار الذي كان بيني وبينها انقطع القرط وانفرطت حبات اللؤلؤ على الأرض، فانحنيت معها نلتقط حب اللؤلؤ فجمعت سبع حبات منه في كفي وإذا ملك من الملائكة يناديني ويقول: إن الشيخ فلان يدعوك ويطلب حضورك ... فحضرت عندك وهذه الحبات لا زالت بيدي وزوجتي في انتظاري وأنا استودعك الله وأذهب. فقال له الشيخ: لا ... لا ... أرجوك ابق معي

لحظات أريد أن أستوضح منك عن أشياء كثيرة. إنك تقول: جمعت سبع حبات بينما صار لك سبعمائة سنة على وفاتك... وهذا يعني أن كل حبة أخذتها من الأرض استغرقت مائة كاملة من السنوات والأعوام وهل شعرت أنت بذلك؟

قال الشاب: كلا وألف كلا فأنا لم أنفق من الوقت على كل حبة سوى لحظات واحدة كما كنت أفعل في الدنيا... وإني والله أستغرب منك هذا الكلام...

فقال له الشيخ: لا تستغرب يا بني فإن الوقت يختلف عندكم كما أن عندنا هنا في الحياة نجد الزمن يختلف باختلاف المواطن والأمكنة... فيوم واحد جاء في القرآن الكريم وقدره الله عز وجل بخمسين ألف سنة مما تعدون.. ويوم آخر كانت مساحته الزمنية تساوي وتعادل ألف سنة وهذه كلها أيام لا نشعر بها.. كما أنه قد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المجال قوله: "إن قبلة الحوارء في الجنة تستغرق مائة عام" وليس معنى ذلك - بالضرورة - أن يظل الواحد منا مكباً على الحوارء في قبلة طويلة تستغرق عشرات من السنين أبداً.. وإنما معناه أن القبلة الواحدة للحوورية والتي لا تستغرق سوى لحظات من زمن الجنة إذا وزنت بميزان أهل الأرض الزمني لساوت مائة عام من السنين.. وفي هذه إشارة رائعة إلى تفاهة الدنيا.. وعظمة الآخرة، والخاسر هو الذي يشغل نفسه بتفاهات هذه الدنيا، ويخسر هذا النعيم المقيم.. ثم ودعه وخرج .

أقول: إن هذه القصة هي من أروع ما قرأت وسمعت في هذا المسعى لأنها تعكس أصدق صورة عن عالم البرزخ الذي نجهله نحن... أما مسألة اختلاف الوقت فهي من المسائل العلمية المطروحة في العلم

الفيزياء... وقد تطرق أنشتاين العالم الفيزيائي الكبير إلى هذا البحث في مجال البعد الرابع من النظرية النسبية على أنني لست في حاجة إلى استعراض نظرية أنشتاين في هذه العجالة السريعة .. وسأنقل مقاطع من هذه النظرية المذكورة في مواطن أخرى من هذا الكتاب إن شاء الله.





التربية في مدرسة الزهراء عليها السلام

غريزة حب الذات وغريزة حب الغير

إن الطفل، هذا الكائن الصغير، طوفان من الغرائز والتيارات النفسية والعقلية والفكرية. وغرائز الطفل قسمان، قسم مشترك بين الإنسان والحيوان، وقسم مختص بالإنسان. وعلى سبيل المثال لا الحصر، من الغرائز المختصة بالإنسان؛ غريزة النطق، غريزة حب الغير. وتقابل غريزة حب الغير وتتاقضها غريزة حب الذات وهي الأساس في نظريات وآراء فرويد.

إن غريزة حب الذات مشتركة بين الإنسان والحيوان. أما غريزة حب الغير فهي، كما سبق وقلنا، مختصة بالإنسان. فمثلاً، كثيراً ما نشعر، عندما نجلس إلى الطعام، برغبة شديدة في ضيف أو زائر يشاركنا فيه. وبالمقابل لو وضعت قطعة من اللحم أمام قطعة، ثم أتيت بقطعة أخرى، ووضعتها مقابل القطعة الأولى، فإن معركة حامية تتشب بين القطعتين، لأن كل واحدة منهما تحاول الاستئثار بقطعة اللحم، وذلك لأن غريزة حب الغير منعدمة عند الحيوان. أما رغبة الإنسان في من يشاركه طعامه فتعبير عن غريزة حب الغير. وغريزة حب الغير، شأنها شأن سائر الغرائز، بحاجة إلى تربية وتوجيه. وهي كغريزة خيرة بحاجة إلى إثارة وتحريض وبينما تكاد هذه الغريزة تنعدم في المجتمعات غير الإسلامية، حيث تجد غريزة حب الذات هي الطاغية، فكل واحد يجر النار إلى قرصه. فإن الإسلام يركز عليها أشد التركيز. قال الرسول ﷺ: «من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس

بمسلم، وقال: «أحبب لنفسك ما تحب لغيرك». وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام «بني، اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لهم ما تحب لنفسك واکره ما تکره لها». وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «من سمع رجلا ينادي: يا للمسلمين فلم يجبه، خرج من الإسلام». تأملوا روعة هذا التعبير. إن الإمام موسى عليه السلام لم يقل من سمع مؤمنا، أو من سمع مسلما.. أو من سمع عربيا... بل قال: من سمع «رجلا» أي رجل بغض النظر عن دينه أو قوميته أو لونه. وكلمة «رجل» هنا تعني النوع الإنساني سواء كان ذكرا أم أنثى. وقال الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام: «من الخير كله أن تحمل الخير لجميع الناس أجمعين». مقابل كل هذا التركيز الإسلامي على إيقاظ وحض غريزة الغير على العمل، لا نجد في أوروبا وأميركا إلا برامج علمية خاصة وتقنيات حياتية محدودة تولي بعض الاهتمام لغريزة حب الغير.

إن غريزة حب الغير هي التي تقول لك على لسان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «إذا ذهبت إلى السوق واشتريت فاكهة لأطفالك، فاشتر فاكهة لأطفال جيرانك...». وماذا يا رسول الله إذا كان أحدنا لا يقدر ماليا أن يشتري فاكهة لأطفال جيرانه؟ يجيب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله بالقول: «في هذه الحال لا تدعوا أطفالكم يخرجون إلى الشارع وهم يحملون بأيديهم من الفاكهة التي اشترتموها لهم». لماذا يا رسول الله؟ يقول صلى الله عليه وآله: «كي لا يراهم أطفال الجيران فيشتهون الفاكهة، ولكن الأطفال لا يقدرون ذلك فيلحون على والديهم كي يشتريا لهم فاكهة. ويهرعون إلى أهلهم الذين قد يكونون غير قادرين على شراء الفاكهة وهكذا فإن خروج أولادكم بالفاكهة إلى الشارع قد سبب الأذى للجيران ولأولادهم».

هذه هي تعاليم الإسلام، وهذا هو موقف الإسلام من غريزة حب الغير. والمسلم الحق هو الذي يعيش هذه التعاليم عمليا. المسلم الحق هو الذي يلتزم بقول بطل الإسلام الإمام علي عليه السلام: «أو أبيت مبطنا وحوالي بطون غرثي؟ وأكباد حرى؟» يا الله ما أروع هذا الكلام وما أبلغه. فالبطون الغرثي هي البطون الخالية، والأكباد الحرى هي أكباد الأهل الذين تحولوا إلى نار ملتهبة لأنهم لا يستطيعون أن يوفروا أطفالهم طعاما يملأ بطونهم الغرثي.

أو كما قال الشاعر:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحوالك أكباد تحن إلى القد

من كل ذلك يتضح لنا أن غريزة حب الغير بحاجة إلى تربية وتعليم وبرمجة. وقد نحا علم النفس الغربي، في هذا المجال، منحى ماديا صرفا.

وكما أن غريزة حب الغير مختصة بالإنسان دون الحيوان، فإن غريزة النطق مختصة بالإنسان وحده. فالطفل يولد مزودا بغريزة النطق، قابلية النطق عنده غريزية. يقول علماء النفس التربوي، لو أخذنا طفلا ودفعناه إلى معلم أصم أخرس ليربيه. ثم تحرينا عن أمر هذا الطفل بعد أربعين سنة، لوجدنا أن اللغة التي يمتلكها هي اللغة العالمية، لغة الصم والبكم، لغة الإشارة وهي لغة مفهومة في جميع أنحاء العالم. ولكن لغة الإشارة هذه تؤثر على ذكاء الطفل كما أنها تؤثر على نموه العقلي بنسبة ٨٥٪. وبعض الأطفال يموتون في هذه الحال، ونحصل على نفس النتيجة إذا أخذنا طفلا وتركناه في الغابة.



وثمة غرائز في الإنسان تتعرض للفساد والتشويه بسبب بعض الجوانب السلبية فيها. فغريزة الطموح والتقدم هي أساس الحضارة والرقى. يفسدها وقد يقتلها الإعجاب الذاتي. والإعجاب ككل ليس غريزة، إنما هو ترسبات نزوية تشكلها بعض الغرائز وبالأخص غريزة حب الذات. والإعجاب يكون إيجابيا عندما يوجه توجيهها صحيحا كأن يعجب المرء بالإسلام، بقدرة الله، بالقرآن بالأخلاق الإسلامية. أما أن يتحول إلى إعجاب بالذات فتلك هي الكارثة الكبرى. فعاطفة الإعجاب الذاتي، إن دلت على شيء، فإنها دليل على ضعف العقل. يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إعجاب المرء بنفسه يدل على ضعف عقله». فضعيف العقل يملكه الفرور فيتخيل أنه فريد زمانه في كل شيء، وهكذا يتفوق في ذاته، فتجمد حركته نحو التقدم والترقى.

إذن لا بد من توجيه الغرائز وتربيتها، -وهذا لا ينفيها كون بعضها لا يحتاج إلى تربية وتعليم كغريزة الجوع مثلا.

أما غريزة الجنس، فهي كالبركان، لها ثورة، ولها هدوء. وهي تبدأ مع الطفل منذ اليوم الأول من ولادته. حيث يظهر في تصرفاته بعض أوجه النشاط الجنسي. وهذا النشاط يتوقف في السنة السادسة من عمر الطفل وحتى السنة الثانية عشرة، وذلك لاستكمال البناء العقلي لدى الطفل. لأن الإفراط في النشاط الجنسي يؤدي إلى ضعف العقل. إنها حقيقة علمية ثابتة بالأرقام، وقد ذكرها أليكس كارليل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول». كأنما يحتاج النشاط العقلي إلى صوم. فعليك أن تدرك أن النشاط الجنسي المفرط يعني هدر طاقة هائلة مما يؤدي إلى ضعف الجسد والعقل.



إذن، ومن أجل البناء العقلي السليم يجب عدم إثارة الطفل جنسيا في السنوات الست الأولى من عمره. دخلت طفلة جميلة مع أبيها إلى مجلس الإمام علي الرضا عليه السلام. فقام أحد الحاضرين وقبل الطفلة. التفت إليه الإمام عليه السلام وقال له: «لا يجوز تقبيل فتاة في مثل هذا السن». وكأنه يقول: لا تثر شهوتها، فهي في مرحلة البناء العقلي. لذلك يقول الإسلام: مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء ست - سبع سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع. لا تجعل أولادك ينامون في غرفة واحدة. فإذا لم يتيسر لك ذلك، فلا يجوز أن يناموا في فراش واحد بحال من الأحوال. هذه أمور في غاية الدقة، ولذلك يوليها الإسلام عناية قصوى.

إن التربية الإسلامية تتعدى الطفل إلى الأم مركزة على الجوانب النفسية والمادية. فالإسلام يرى أن حالة الأم الحامل تنعكس على الطفل، فإذا كانت الأم أثناء الحمل منشرحة الصدر مطمئنة النفس، ولد الطفل متكامل الأعضاء نشيطا ذكيا مستبشرا بالحياة. أما إذا كانت غاضبة أو خائفة. فإن ذلك ينعكس سلبا على الجنين لأنه جزء من جسدها. وقد ثبت علميا أن الضجيج يؤثر سلبا على الجنين. والمشاجرات والمشاحنات الحادة لا تؤثر على التكوين الجسدي للطفل فقط، وإنما تؤثر على تكوينه العقلي. وقبل أن يتوصل العلماء إلى هذه الحقيقة بألف ومئتي عام قال الإمام الجواد عليه السلام: «لا يخيفن أحدكم زوجته ولا يضرينها، فإن ذلك مفسدة للجنين».

ألا تلاحظون أننا لا نبالغ إذا قلنا خذوا الإسلام من تراث أهل البيت - عليهم السلام - 9.



إننا ومع الأسف الشديد، بعيدون عن الإسلام ومناهجه التربوية. فالجامعات والمدارس الإسلامية لا تقارب هذه المناهج ولا توليها العناية التي تستحق. فهي مهتمة بأفكار وآراء ونظريات فرويد وأدler وماركس وأنجلز ودوركهيم وغيرهم من المفكرين اليهود الذين خططوا لتدمير الأسر وتمزيق المجتمعات تمهيدا وتسهيلا لسيطرة الصهيونية عليها. إننا بإهمالنا لبرامج الترية الإسلامية ولل فكر الإسلامي بوجه عام نسهم عن غير وعي في إنجاح مخططات اليهودية الصهيونية، ولم نفعل ذلك؟ هل نحن فقراء فكريا؟ وكيف نكون كذلك وعندنا القرآن وسنة الرسول ﷺ وتراث أهل البيت - عليهم السلام -، وهي ينابيع ثرة لا تنضب، فهي فياضة دائما وأبدا بالفكر والمعرفة على مختلف الأصعدة؟.

تصوروا أن شابا مسلما يريد أن يدرس في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية يسألني قائلا: شيخنا المحترم، هل في الإسلام منهج اقتصادي؟ يا الله!!!، الإسلام أبو الاقتصاد يا بني. إن الإسلام أبو المناهج الاقتصادية. إن في كتاب واحد للفقهاء.. مثلا في كتاب «الشرائع في الإسلام»، أو كتاب «الحدائق» أو كتاب «من لا يحضره الفقيه» وسائر كتب الفقه الإسلامي، أكثر من ألف قانون في الاقتصاد الإسلامي. مع ذلك فإننا ندرس الاقتصاد الماركسي والاقتصاد الرأسمالي. عجباً أين الاقتصاد الإسلامي؟ أليس عند محمد ﷺ، الذي غير مجرى التاريخ ووجه العالم، برنامج اقتصادي؟ إن المسؤولية في هذا التقصير وسوء التقدير تقع علينا جميعا رعية وحكاما ووزراء وأمراء وأساتذة جامعات وطلابا. فكلنا مسلمون ومسؤولون عن هذا التقصير أمام الله وأمام الأجيال.



علم النفس التربوي
ومنهج التوبة في الإسلام

علم النفس التربوي . .

ومنهج التوبة في الإسلام

قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١).

* المدخل:

من العلوم التي تلعب دوراً كبيراً ومهماً في حياة الإنسان هو علم النفس نظراً لأن هذا العلم يتناول النفس البشرية موضوعاً له، فيرصد حركاتها وانفعالاتها والعواطف الكامنة فيها، ويحاول أن يحللها ويشرحها لكي يضع الحلول والعلاج لأمراضها وميولها وعقلها على قاعدة بناء الإنسان بناءً صحيحاً ومتكاملاً.

وهذا ما يبدو على الأقل من خلال المنهج الذي يزعمه علماء النفس. ولكن علم النفس في الإسلام يختلف كل الاختلاف عن علم النفس في الحضارة المعاصرة. وهذا الاختلاف يعود في الأساس إلى كون هذه الحضارة قد عجزت عن فهم النفس البشرية فهماً صحيحاً. ومعرفة دقيقة وبالتالي خانها الحظ في وصف العلاج الشافي لها، بالرغم من أن هذه الحضارة تدّعي لنفسها أنها استطاعت أن تقطع شوطاً بعيداً في هذا المضمار.

(١) الشمس/ ٧-١٠.

لكن الإسلام جعلنا نتعرف إلى النفس معرفة كاملة عندما وضع يده على الجرح فجعل الخطوة الأولى لمعرفة الله سبحانه وتعالى هي معرفة النفس «من عرف نفسه فقد عرف ربه» لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقها، ولذلك هو أدري بها ويعلاجها. وهذا يبرر وجوه الخلاف بين الإسلام والحضارة المعاصرة في هذا المجال، لأن الخلاف في الأصل يتناول المنطلقات والأهداف. وقد قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (١).

فهو سبحانه خالق الصورتين النفسية والبدنية. ويمكن لهذه الآية الكريمة أن تسلمنا طرف الخيط في بحثنا هذا.

إن القرآن الكريم باعتباره كلام الله سبحانه، فهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لذلك فهو يوافق فطرة الإنسان بمعنى أن كل ما فيه من أحكام ليس غريباً علينا نحن البشر لأنه يوافق فطرتنا التي فطرنا الله سبحانه وتعالى عليها. لذلك عندما يذكرنا القرآن بالحلال والحرام لا يقول شيئاً خارجاً عن دائرة الفطرة فينا، ومن هنا يكون دور الرسول ﷺ، والأئمة -عليهم السلام- في تذكيرنا بهذه الأحكام القرآنية ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

ذلك أن أحكام القرآن وسننه وقوانينه تتناول مسائل موجودة في نفس الإنسان يحسّها ويشعر بها. وغاية ما في الأمر أن المؤمن الفطن والواعي يكشف الله عن بصره وبصيرته فيرى الحقيقة ويلمسها لمس اليد في حين أن بعض الناس يبقون نائمين: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

(١) الانقطار / ٨.

(٢) الذاريات / ٥٥.

* المثال القرآني:

لكن هؤلاء النيام حسب المنهج التربوي في علم النفس القرآني، لا يتركهم القرآن ولا يهملهم، بل يحاول أن يذكرهم ويوقظهم عن طريق الأحلام أو عن طريق الأمثال يضربها لهم لعلهم يتذكرون. وهو عندما يضرب لهم الأمثالا أو يثير في نومهم الأحلام تجد العاقل منهم يثار بها فيتفكر فيما حوله، علماً أن التفكير هذا هو لون من ألوان العبادة. وقد ورد في القرآن الكريم قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١). وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ (٢).

على أن الأمثال التي يضربها القرآن الكريم تحتاج إلى تفسير، والأحلام التي ترد في المنام تحتاج إلى تعبير، فهي عن طريقها يصور لنا الحقائق بهدف الهداية: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ (٣).

إذا كان الله سبحانه يريد أن يهدينا سواء السبيل لكي ينقذنا من النار فهو من خلال الأمثال والأحلام يصور لنا الحقيقة المعنوية بصورة مادية وإطار مادي بهدف إيصال الفكرة أو المعنى المطلوب إلى أذهاننا.

والقرآن الكريم عندما يضرب الأمثلة هذه فهو ينوع فيها بدءاً بعظيمها حتى أحقر المخلوقات. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ (٤).

(١) الحشر/ ٢١.

(٢) العنكبوت/ ٤٣.

(٣) يوسف/ ٤٤.

(٤) النور/ ٣٥.

ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (١).

وبهذا المنظار أيضاً ننظر إلى الأحلام، فقد ترى حلماً في منامك دون أن تدري له تأويلاً، ولعله يصور لك حقيقة في نفسك ويريدك أن تعرفها لكي تلزمها أو تبتعد عنها. وأنت في هذه الحالة بحاجة إلى تأويل هذا الحلم.

* ابن سيرين وتأويل الأحلام:

لكن هذا النوع من الأحلام التي نحن بصددتها، أي التي يكون لها دلالة ما في حياة الإنسان، والتي يريد الله سبحانه وتعالى من خلالها أن يثير في نفس الإنسان وعقله بعض الحقائق التي تتصل بوجوده وتحتاج إليها حركته الحياتية، إن هذا النوع من الأحلام يحتاج إلى من يملك سر تأويله، إذ ليس كل الناس بقادرين على ذلك وليس كلهم يمتلكون مثل هذه الملكة والخاصة.

ولعل ابن سيرين، محمداً الأنصاري، الذي كان معاصراً للحسن البصري، والمتوفي سنة ٧٢٨م، من الذين كانت لهم مثل هذه الملكة. فقد اشتهر بالورع وكان حجة في تعبير الرؤيا وله فيه كتاب. وعنه أخذ الكثيرون، منهم النابلسي من كبار العلماء الصوفيين المتأخرين في القرن الثامن عشر.

ومما يروى من نوادره وعلمه في هذا المجال، أنه قد جاءه رجل وقال له: رأيت فيما يرى النائم أنني أختتم على أفواه الرجال وعلى الفروج.

(٥) البقرة/ ٢٦.



فقال له ابن سيرين: أنت مؤذن، تؤذن في شهر رمضان عند طلوع الفجر فيمسك الناس عن الطعام وعن الشراب وعن النساء. قال صدقت فأنا مؤذن.

وجاءه أحدهم فقال له: يا ابن سيرين رأيت نفسي في المنام أني أصبُّ الزيت على الزيتون. فقال له: إن كان تحتك جارية قد اشتريتها وتزوجتها ففتش عنها، فإنها أمك. وبحث الرجل فإذا بالجارية أمه. كانت قد ولدته وتركته طفلاً صغيراً ثم وقعت في السبي فبيعت سبيّة، فاشتراها وتزوجها وهو لا يعلم.

ويروى عنه أيضاً أن رجلاً قد جاءه قائلاً: رأيت في المنام أني أضع قلائد الدرّ بأعناق الخنازير. فقال له: أنت إذاً تلقي الحكمة على غير أهلها فاتركهم. قال: إي والله أنا ألقى الحكمة على أناس يهزأون بي ويسخرون مني. فقال: اتركهم، لأنهم أناس ليسوا أهلاً لذلك.

إن هذه النوادر الثلاثة، وغيرها كثير، تضعنا أمام بعض الحقائق والمسائل التي يجب أن نشير إليها. والحقيقة الأولى هي أن ليس كل الناس قادرين على تعبير الرؤيا والأحلام كما أشارت إلى ذلك سابقاً، وإنما هم قلائل ممن يمتلكون القدرة والوعي والورع مما يؤهلهم لهذه المرتبة كابن سيرين هذا.

أما الحقيقة الثانية فإن الله سبحانه قد يثير لدى بعض الناس حقائق غائبة عنهم وهو يريد من خلال الأحلام أن يعظّم لعلمهم يرون الحقيقة ماثلة أمامهم بشكل مادي ملموس، أو أن ينقذ بعضهم مما هم فيه من وضع شاذ قد يؤثر عليهم إن هم استمروا فيه.



والحقيقة الثالثة هي أن الإنسان الواعي هو من يصغي إلى مثل هذه الأصوات والمؤشرات والدلالات، فيعطيها أذناً صاغية وعقلاً منفتحاً، سواء أتته في المنام على شكل أحلام، أم أتته في اليقظة على شكل موعظة أو تحذير أو تنبيه، لكي يتلمس الطريق السوي الذي يأخذ به إلى مرضاة رب العالمين، ويتجنب حبائل الشيطان الذي يمكر به فيأخذ به إلى غضب الجبار حيث السقوط والخسران المبين.

ولعل في المثال الأول ما يشير إلى هذا المؤذن أن يثابر على المضي في طريقه التي اختارها فيزداد إيماناً وتعلقاً برب العالمين، من خلال ما يؤديه من مهمة لا سيما في شهر رمضان المبارك. وفي المثال الثاني أراد الله سبحانه وتعالى لهذا الرجل المتزوج من أمه وهو لا يدري أن يصح وضعه الشاذ الذي إن استمر عليه قد يؤدي إلى أوخم العواقب، لا سيما إذا أصبح له أولاد منها. أما في المثال الثالث ففيه درس لهذا الرجل الذي يلقي الحكمة والموعظة في غير مكانها، أن يقلع عن ذلك وأن ينصرف عن هؤلاء الناس الذين أوصدوا قلوبهم قبل آذانهم دون صوت الحكمة، ويبحث عن غيرهم ممن يمكن أن تكون أرضهم صالحة لكي تثبت فيها الحكمة وتؤتي ثمارها.

وأخيراً وليس آخراً، إنما يستدل من خلال هذه الأمثلة الثلاثة على براعة ابن سيرين وقدرته على التعبير بالأحلام، إذ ربط بين ختم الأفواه والامتناع عن الطعام والشراب، وربط بين ختم الفروج والامتناع عن النساء. وذلك مما لا يكون إلا في شهر رمضان المبارك، كما تظهر براعته وثقافته وعلمه في إقامة العلاقة بين الزيت والزيتون من جهة وبين الولد وأمّه من جهة أخرى، فالزيت من الزيتون والولد من الأم.



فضلاً عن تأويل الدر بالحكمة والخنازير بأولئك الأشرار الذين يستخفون بصاحب الحكمة وهو يلقيها عليهم.

* بين الجبر والاختيار:

بعد هذه الجولة في عالم المثال القرآني، وبعد هذه الرحلة مع ابن سيرين وتعبيره للأحلام، أريد أن أعود بكم أيها الأحبة إلى الآيات التي انطلقنا من خلالها في هذا البحث لكي نعيش في ظلالها، ونتنسم أجواءها العابقة بالحقائق الإلهية التي لا نجدتها في علم النفس المعاصر الذي ما زال يجهل النفس البشرية لأنه عاجز عن ذلك بسبب جهله للمنطلقات والأسباب. يقول الله تبارك وتعالى، الخالق المبدع الذي خلق النفس وهندسها، والذي هو أعلم بما خلق، جلّت قدرته وعلت مشيئته: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (١).

عز من خالق مدبر، وصدق من قائل عليم حكيم.

يلاحظ في هاتين الآيتين الكريمتين أن النفس البشرية التي أبدعها رب العالمين، هي عرضة للصراع بين التقوى التي يدعمها العقل والفطرة، والفجور الذي تدعمه الشياطين والأبالسة من الجن والبشر. إن هذا الصراع يشكل حقيقة قائمة مستمرة ولكن الحق هو المنتصر في النهاية إذا كان الإنسان قد تسليح بسلاح الانتصار عندما يطهر هذه النفس ويزكيها، في حين أن النصر سوف يكون للباطل إذا دنس الإنسان النفس عندها يسلم زمام أمره وأمرها إلى الشيطان الذي

(١) الشمس/ ٧-٨.



يصطاده بشباكه وحبائله الماكرة. لذلك يقول رب العالمين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١).

على أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل الشقاء حتماً علينا عندما خلقنا. إنما جعل فينا قوة القدرة على الاختيار بين السعادة والشقاء. وبتعبير آخر، فإن الله تبارك وتعالى لم يخلقنا مقيدين مسيرين كما يتوهم البعض بل خلق لنا العقل القادر على التمييز بين طريق الشر والخير وترك لنا حرية الاختيار. لذلك فنحن الذين نختار لأنفسنا أحد الطريقين.

وفي هذا المجال لا عبرة في قول القائل أو السائل: بما أن الله سبحانه يعلم مسبقاً أن فلاناً من الناس سوف يكون ظالماً. فلماذا خلقه؟ والجواب على هذا التساؤل تجدونه عند الإمام علي -سلام الله عليه-. فقد ورد عن عبدالله بن أبي رافع قال: حضرت أمير المؤمنين عليه السلام وقد وجهه أبا موسى الأشعري فقال له: احكم بكتاب الله ولا تتجاوزوه. فلما أدبر قال عليه السلام: وكأنني به وقد خُذع. قلت: يا أمير المؤمنين فلم توجهه وأنت تعلم أنه مخدوع؟ فقال عليه السلام: يا بني لو عمل الله في خلقه بعلمه ما احتج عليهم بالرسول.

إن هذا المنطق يتردد كثيراً عند بعض الناس. كأن يقول لك: لو كان الله يريدني أن أصلي لصليت وأن أدفع الحقوق لدفعت. فإذا كان الله لا يريدني أن أفعل ذلك فلماذا يحاسبني؟

(١) الشمس/ ٩-١٠.

إنه منطق تبريري لا يصمد أمام الحقيقة والبحث الدقيق. فهو مجرد تلاعب في الألفاظ أمام غياب كامل للحقيقة الدامغة التي غابت عن أذهان هؤلاء الناس القائلين بمثل هذا المنطق. لذلك يجب أن يعلم هذا الهارب من الحقيقة أن الإنسان مخير فقد زوده الله سبحانه وتعالى بأداة الاختيار. فهو الذي يختار أفعاله من عبادات وغيرها. وإذا لم يكن الأمر كذلك لما كان له فضل في عمل الخير. فأني فضل له في عمل الخير إذا كان مسيراً؟

إن بإمكان هذا الإنسان أن يختار بين أن يحضر مجلس الحسين عليه السلام أو أن يذهب إلى ملهى ليلي، وبإمكانه أن يصلي أو أن يمارس المعصية والعياذ بالله. وبإمكانه أن يصوم شهر رمضان أو أن يفطر. وأنا أسأل ما الذي يمنع الصائم العطشان من الماء والماء البارد مبذول أمامه يستطيع أن يتناوله من البراد؟ لو كان المانع هو الله سبحانه يمسك يديه ويكبلهما فأني فضل له في هذا الصيام؟ إن هذا الصائم حر بين أن يمسك يده أو أن يطلقها باتجاه البراد. وهو حر أيضاً بهذه اليد أن يجعلها تحرك القلم في مجال الخير أو في مجال الشر. وحر أيضاً أن يجعلها تمتد إلى رأس يتيم تمسحها وتكفكف الدموع عن خديه أو تمتد إلى وجه هذا الطفل اليتيم فتصفعه.

إذاً الإنسان حر ومخير بين أن يختار أفعال الخير أو أفعال الشر. وأداة الاختيار متوفرة لديه. فهو يملك عقلاً وذكاءً وفطنة مما يوفر للإنسان القدرة على الاختيار. وفاقداً العقل وحده هو العاجز عن الاختيار لأنه فقد الأداة، لذلك تجد مسلكه في الحياة لا يخضع لأي قانون أو منهج، فَقَدْ فَقَدَ القدرة على التمييز بين ما هو صحيح وبين ما هو خاطيء.

* البهلول الكوفي وسفيان الثوري:

في معرض الكلام على الجبر والاختيار، لا بأس من أن أسوق لكم هذه النادرة التي جرت بين البهلول وسفيان الثوري. فبهلول هذا هو أحد عقلاء المجانين عاش على عهد هارون الرشيد وكان يعظه وقد توفي حوالي سنة ٧٩٩م، أما سفيان الثوري المتوفي سنة ٧٧٨م فقد كان محدثاً ومن علماء الكلام الصوفيين في العراق ويزعم أنه عالم بالحلال والحرام، وله مؤلفات كثيرة.

اعتلى سفيان الثوري المنبر ذات يوم وراح يخطب في الناس مفنداً آراء الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه وعلى أبيه وأجداده -أطيب الصلاة وأزكى السلام-. ومما جاء في كلامه أن الصادق يقول بالتخير بينما هو -أي الثوري- يقول بالتسيير والجبر. وأن الصادق يقول: إن الخير من الله والشر من الإنسان وسفيان يقول: إن الخير والشر من الله. وأن الصادق يقول بعدم رؤية الله وسفيان يقول بالرؤية. وأردف سفيان الثوري بمسألة أخرى يزعم فيها أن إبليس من نار فكيف تحرقه النار؟

وقبل أن أسرد لكم كيف كان رد بهلول، أريد أن أشير إلى مقالة القائلين: إن الخير والشر من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وكبرت كلمة نطقت بها أفواههم. إنها الجبرية التي تجعل الإنسان غير مسؤول عن أعماله الشريرة. وهي نعمة كان وراءها بنو أمية الذين أرادوا أن يخدروا عقول الناس ليقولوا لهم إن الله سبحانه قد أراد لكم أن تكون حكاماً عليكم وما ذلك إلا بقضاء الله وقدره. لذلك على الناس أن يذعنوا وأن يرضخوا لذلك دون أية معارضة. وعلى هذا

تكون الجبرية بدعة سياسية من تدبير الأمويين الذين اشتروا بعض العلماء بالمال والضغط، فصاغوا من أجلهم هذه المقالة.

المهم أن البهلول هذا كان يستمع إلى ترهات سفيان الثوري يلقي بها من على المنبر على أولئك الناس الذين كانوا مبهورين بعلمه الزائف ومنطقه المزيف. والبهلول في الواقع لم يكن مجنوناً بالفعل بل كان عالماً، ولكنه قد اختار لنفسه مسلك المجانين لكي يقول الحقيقة دون أن يجد من يسوقه إلى السجن والاعتقال على أساس أنه مجنون. والدليل على ذلك ردة فعله على سفيان الثوري، وكونه كان يعظ هارون الرشيد في كثير من المناسبات.

وكانت ردة فعل البهلول أن التقط حجراً وقذف به رأس سفيان فأصابه وشج له رأسه فسالت الدماء. فأمر رجاله الإمساك بالبهلول فأمسكوه. عند ذلك سأله سفيان:

- لماذا ضربتني؟

- فأجابه: أنا ما ضربتك. فأنت كنت تقول منذ ساعة: إن الخير والشر من الله. لذلك وجدت نفسي أنحني إلى الأرض وألتقط الحجر وأضربك. وعلى هذا فإن الله ضربك فاقبله حجراً من رب العالمين.

وقلت أيضاً: إن الإنسان مسير وليس بمخير في أفعاله. وعلى ذلك فأنا كنت مسيراً في ضربك بالحجر لأنني وجدت نفسي مرغماً على التقاط الحجر وبالتالي على ضربك به.

ومما قلته أيضاً: إن إبليس من نار فكيف تحرقه النار. وأنا لا أدري كيف جرحك الطين وأنت مخلوق من الطين. وفي هذا الوقت كان

سفيان يصرخ متألماً من رأسه. فقال له بهلول: أنت كاذب إذ ليس هناك ألم في رأسك فأنا لا أراه. فلو كنت صادقاً في ألمك لجعلتني أرى الألم. فقال له سفيان: ولكن الألم لا يُرى. فقال البهلول: إذا كنت عاجزاً عن رؤية الألم مع أنه موجود فكيف تريد أن ترى الله لأنه موجود، علماً أن الله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ (١).

فهل الله جسم حتى تراه، وهل عينك قادرة على رؤية الله الذي جعلته مقدوراً؟

ثم قال له: ألم تسمع قول الإمام الحسين عليه السلام يا سفيان؟

- فقال: ماذا يقول الحسين؟

- قال: الإمام الحسين يقول: «عميت عين لا تراك فمتى غبت حتى تحتاج إلى دليل وكيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك. فسكت سفيان.

* الجبرية سلبية وهروب:

وهكذا نخلص إلى القول: إن الله سبحانه قد خلق نفس الإنسان عرضة للصراع بين التقوى والفجور بعد أن أعطى الإنسان عقلاً يميز ما بين المسألتين لكي يختار لنفسه الأفضل والأحسن. وبناء على هذا الاختيار إما أن يكون الفلاح إلى جانبه إذا اختار سبيل التقوى فظهر نفسه من كل شر واستعداد للمعصية مما يجعله قريباً من رب العالمين جديراً بمرضاته، وإما أن يفشل ويسقط في التجربة إذا أساء الاختيار.

(١) الأنعام/ ١٠٣.

إن مثل هذا الصراع قد لا تجده عند الملائكة لأنهم لا يعصون رب العالمين بسبب تركيبهم من عقل فقط دون غريزة، ولا تجده عند البهائم والحيوانات لأنها مركبة من غريزة فقط دون عقل، في حين أنه سبحانه وتعالى قد جعل في الإنسان عقلاً وشهوة مما يحتم عليه الصراع الدائم بينهما. ولا يمكن أن تتأكد إنسانية الإنسان إلا من خلال هذا الصراع الذي إما أن يجعله أفضل من الملائكة إذا غلب العقل على الشهوة، وإما أن يكون دون الحيوانات مرتبة إذا كان عبداً لشهوته دون عقله.

على أن الذي يستسلم لمبدأ الجبرية ويركن إليه، إنما هو إنسان ضعيف الإرادة بل فاقدها. وهذا الموقف منه هو تعبير عن سلبية ذميمة وهروب جبان من مواجهة الحقيقة عندما يكون الأمر متعلقاً بعلاقته مع الله سبحانه وتعالى. أما إذا كان الأمر يتعلق بشؤون حياته المادية فإنك تجده يختار أفعاله بدقة.

لذلك نحن نقول لمن يزعم أنه لو شاء الله لأيقظني لصلاة الصبح، هل تتأخر عن مواعيد تتعلق بشؤون حياتك الأخرى، كما لو كان لديك موعد سفر بطائرة تطلع في الساعة الرابعة صباحاً؟ أو إذا كان عليك أن تستقبل زعيماً أو حاكماً باعتبارك موظفاً مطلوباً منك أن تمارس وظيفتك بدقة؟ إنك في مثل هذه الحالة سوف تستيقظ قبل موعد الطائرة بكثير، وسوف تكون في استقبال الزعيم قبل أن يصل بوقت طويل. فلماذا يختلف الأمر إذا كان موعدك مع رب العالمين في صلاة الصبح لكي تستقبل نهارك بشكل منفتح على الله سبحانه؟

لماذا تكون ممن يختارون أفعالهم في شؤون حياتك المادية في حين أنت جبري في تخلفك عن صلاة الصبح مثلاً أو صيام شهر رمضان المبارك. لماذا هذه الازدواجية لدى مثل هذا الإنسان وغيره من الناس الذين يحترمون التوقيت الدقيق بالنسبة لحركتهم الحياتية المادية، في حين أنهم بالنسبة للعبادات تجدهم يفلسفون الأمور على هواهم. إنه منطق تبريري عجيب يعبر عن ضعفهم وضعف إرادتهم في المواجهة.

وما يجب أن نفهمه هو أن الأوامر والنواهي الموجودة في القرآن الكريم هي دليل على قدرة الإنسان على الاختيار ودليل على أنه مخير وليس مسيراً. فلو كان الإنسان مسيراً لما كانت هناك حاجة إلى الأنبياء يرسلهم رب العالمين ولما كانت هناك حاجة إلى القرآن الكريم. علماً أن علم الله سبحانه وتعالى بالأمور لا يغير في مسألة الاختيار شيئاً كما أشرنا إلى هذه المسألة آنفاً. على أن الاختيار يجعلك مسؤولاً عن عملك. ومن هنا كان الثواب والعقاب. ومن هنا كان قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١). وقوله: ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(٢).

إن العقاب والثواب مسألة تجعلنا بين حالتي الخوف والرجاء. الخوف من عذاب الله والرجاء في عفو وغفرانه مما يقودنا إلى حالتي التولي والتبرؤ، نتولى الله والأنبياء والأوصياء ونتبرأ من أعدائهم. لأنه في كل زمان ومكان هناك من يمثل الحق والعدالة

(١) الرعد / ٣٩.

(٢) الصافات / ٢٤.

والمساواة وعلينا أن نكون معه، وهناك من يمثل الباطل والظلم وعلينا أن نكون ضده وهذا ما حدده الإمام عليّ لولديه -عليهم السلام-: «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً».

* تزكية النفس وتطهيرها:

وهنا تكمن تزكية النفس وتطهيرها من الذنوب حيث نكون مؤهلين لرضوان الله سبحانه وتعالى. لأن العبد عندما تتراكم عليه الذنوب قد يُحرم من بعض العبادات كصلاة الليل مثلاً. فقد يكذب في النهار كذبة واحدة أو يجرح شعور إنسان أو يسرق فلا يوفق لصلاة الليل فضلاً عن صلاة الصبح. والذي تركه نائماً في هذه الحالة هو ذنبه لا ربه.

لذلك على الإنسان أن يتجنب كل ما يدنس نفسه من ذنوب، وليكن قول الباقر عليه السلام ماثلاً أمامنا: «والله لا ينجو من الذنب إلا من أقرَّ به ويكون الإقرار بالذنب بيننا وبين رب العالمين» لا سيما في هذه الليالي الرمضانية المباركة حيث أبواب الرحمة والغفران مفتحة وأيدي الشياطين مغلولة. يجب أن نتخلص من الذنوب فنرمي بها في وجه الشيطان وألا نقرب الفواحش، وسلاحنا في ذلك الصلاة وقراءة القرآن والدعاء، لا سيما أن هناك وعداً ووعداً من رب العالمين، والوعد أمل ورجاء والوعد خوف من عذاب الله سبحانه وتعالى.

على أن الوعد والوعد، مبدأ تربوي رائع في الإسلام. فالوعد هو الذي جعل بلالاً الحبشي وصهيباً الرومي وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري وخباب بن الأثرث يصبرون على عذاب قريش وأذاهم والوعد

هو الذي كان يجعل بعض الناس يأتون رسول الله ﷺ أو الإمام علياً عليه السلام طالبين أن يتطهروا من ذنوبهم معترفين بها، علماً أنه لا اعتراف في الإسلام لشخص مهما علت منزلته حاكماً كان أم عالماً، إلا أمام رب العالمين.

* التوبة علاج نفسي ومبدأ تربوي:

جاء رجل إلى الإمام علي عليه السلام قال: يا أمير المؤمنين طهرني. قال الإمام: وممّ أطهرك؟ قال: إني زنيت. فتشاغل عنه الإمام وهو يتحدث إلى أصحابه والرجل ينتظر. التفت الإمام إلى أصحابه قائلاً: «أعجز أحدكم إذا قارف ذنباً أن يستر على نفسه كما ستر الله عليه ويتوب؟». وفي هذا الجواب تظهر عظمة الإسلام لا سيما إذا أخذت إسلامك من فم علي بن أبي طالب. فأمرك بينك وبين رب رحيم، تتوب إليه توبة نصوحاً فهو التواب الرحيم، يغفر لك ذنوبك مهما بلغت. ألم يقل رب العالمين في كتابه الكريم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (١).

بلى والله، قالها. فلماذا القنوط واليأس من رحمته التي وسعت كل شيء، لا سيما ونحن في شهر رمضان، شهر الرحمة والمغفرة، فما أجدرنا بالتوبة إلى الله في هذا الشهر لأنه من حرم التوبة فيه فلا علاج له إلا جهنم وساءت مصيراً.

(١) الزمر/ ٥٣.



إذ يُروى أن رجلاً حبشياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني رجل اقتترف الفواحش. فهل ترى لي من توبة؟ قال: نعم. فقال: إني تبت إلى الله. قال الرسول: هذا كلامك وأنت تائب فليس عليك ذنب فقد عدت كيوم ولدتك أمك. فانصرف الرجل. ولكنه ما كاد يبتعد خطوات حتى رجع والدموع في عينيه. قال: يا رسول الله أكان يراني الله عندما كنت أقترف الفواحش؟ قال: نعم كان يراك. فصرخ الحبشي صرخة خرجت معها روحه فوقع على الأرض ميتاً.

ويروى أيضاً أن رجلاً من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام واسمه همام، قال للإمام: يا أمير المؤمنين، صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم. فتثاقل الإمام برهة لأنه يعرف خشوع همام ومدى إيمانه، ثم صعد المنبر فقال:

«أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه». إلى أن قال: «المتقون فيها هم أهل الفضائل، منطلقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيتهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. نُزِلَتْ أنفُسُهُم منهم في البلاء كالتِي نُزِلَتْ في الرخاء. فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون. وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون. أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن، يرتلون ترتيلاً، يُحزنون به أنفسهم، إذا مرت بهم آية فيها وعد ووعد ردّوها بانتحاب وعويل...».



وعندما كان الإمام عليه السلام يصف المتقين، إذا بهما قد صُنع فوقه إلى الأرض. فحركوه وإذا به كالخشبة اليابسة. فقال أمير المؤمنين هكذا تصنع المواعظ بأهلها.

ويُروى أيضاً عن السيدة نفيسة وهي من أحفاد الإمام الحسن الزكي عليه السلام، وزوجها إسحاق هو حفيد الإمام جعفر الصادق عليه السلام وقبرها موجود في القاهرة، يروى عنها أنها كانت قد حُفرت لها قبراً وكانت تجلس على شفير القبر تقرأ القرآن في الليل وتبكي ما شاء لها البكاء. فإذا وصلت إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ (١).

نزلت في القبر ثم تخرج قائلة: ها قد أذن الله لي بالرجوع فرجعت. فانظري يا نفيسة ماذا تعملين وماذا تصنعين؟

إنها مثال للمرأة المسلمة المؤمنة. فأين منها بعض نساء اللواتي يرفضن الحجاب، وبعضهن تقول لك: إني حتى الآن غير مقتنعة به. وكأن المسألة قناعة لا مسألة إيمان وعقيدة. فأنت أيتها المسلمة عندما تشهدت الشهادتين بايعت رسول الله ﷺ على الإسلام والإيمان والامتنال لأوامر الله ونواهيه فكيف تتقضين العهد والبيعة وأنت تنتمين إلى الإسلام. فلماذا لا تتأسيين ببعض النساء المسلمات المؤمنات اللاتي صنعن التاريخ؟ لا سيما أن في الإسلام امرأة كالزهراء -سلام الله عليها- التي كانت تقوم الليل وهي تصلي إلى الصباح تدعو لجيرانها وتتورم قدمها.

(١) المؤمنون / ٩٩-١٠٠.

* علم النفس الحقيقي:

وهكذا نجد أيها الأحبة أنه ليس كالتوبة ما يمكن أن يصلح من نفس الإنسان، فهي تطهرها وتهذبها وتزكيها من كل الأدران والشوائب. إن في التوبة ومنهجها مدرسة في التربية وعلاجاً لكل الأمراض النفسية. وفيه يكمن علم النفس الحقيقي الأصل الذي لا تجده إلا في الإسلام ولدى الإمام زين العابدين في صحيفته السجادية التي يجب أن تدرس في الجامعات والمعاهد، فدع عنك فرويد وآدلر ومن لف لفهما ونهج منهجهما.

يقول الإمام السجاد: «إلهي ما لي كلما قلت قد صلحت سريرتي، وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بلية أزالتي قدمي وحالت بيني وبين خدمتك سيدي، لعلك عن بابك طردتني وعن خدمتك نحيتني، أو لعلك رأيتني مستخفاً بحقك فأقصيتني، أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني أو لعلك وجدتني في مقام الكذابين فرفضتني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني، إلهي ما عيتك إذ عصيتك وأنا لنكالك جاحد ولا لربوبيتك متعرض ولكن سولت لي نفسي وغرّني سترك المرخي عليّ» فهو عليه السلام يشير بالستر المرخي إلى الآية الكريم: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (١).

هذا هو علم النفس الأصل تأخذه من منابعه. إذ إن المعصية تؤدي إلى الخذلان، والاستخفاف بحقوق الله إلى زلل الأقدام وكذلك ترك

(١) هود/ ١١٤.



مجالس العلماء والتواجد في مجالس البطالين حيث اللهو والقمار وسائر الموبقات والفواحش. إن النفس الإسلامية لا تعالج بالمهدئات ولا بالعقاقير. فهذا هو علاجها ودواؤها الذي أشار إليه عالم النفس الإسلامي العظيم زين العابدين وسيد السجادين سلام الله عليه وعلى آبائه وذريته الطيبين الطاهرين.

* التوبة تصنع المعجزات:

يقول رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له». قيل: كيف يا رسول الله؟ قال: إن الله يوحى إلى الكاتبين فيمحيان ما كتبوا عليه. كما يشير النبي ﷺ إلى أن الله سبحانه وتعالى في بعض الأحيان يستر عن الكاتبين عمل الإنسان ثم يوحى إلى بقاع الأرض التي عصيت الله فيها أن أنسى فينسيها لأنها تشهد عليه أينما يكون، فيحشر العبد التائب إلى ربه وليس عليه ذنب أبداً. وعندما سئل النبي ﷺ: ومتى التوبة، قبل موته بسنة؟ قال رسول الله: والسنة لكثير. قبل موته بشهر؟ قال: لكثير. قبل موته بيوم؟ قال لكثير.

وأنا هنا لا أريد أن أشجع العصاة، ولكنني في الوقت نفسه لا أريد أن أقنطهم: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾^(١).

ولكن متى تنقطع التوبة؟ إنه لا توبة إذا رأى الإنسان ملك الموت. وإذا التوبة مفتوحة أمام الإنسان فما عليه إلا أن ينتهز الفرصة المتاحة لكي يتخلص من كل ذنوبه دفعة واحدة فيتوب إلى ربه توبة نصوحاً.

(١) يوسف/ ٨٧.



وإذا كان رسول الله (ص) يستغفر الله في اليوم واللييلة خمسمائة مرة وهو نبي الله الطاهر من أي ذنب فكيف نحن العصاة حيث تجللنا الذنوب وتملاً أعطاقتنا. لذلك يجب ألا نفرنا صلاتنا ولا يخذعنا دعاؤنا. فلربما نظرة واحدة منا إلى محرم تهوي بنا إلى نار جهنم، وربما كلمة واحدة من غيبة أو نميمة تلقي بنا إلى الهلاك والخسران المبين.

وتبياناً لما يمكن أن تجترحه التوبة من معجزات تعالوا معي لنستمع إلى حكاية بشر الحافي. هذا الرجل كان له بيت يقيم فيه حفلات الخمر والسكر والعريضة والرقص والغناء مما جعل جيرانه يذهبون إلى الإمام موسى الكاظم -سلام الله عليه- فيشكون أمره إليه لما يسببه من فساد وإفساد لشبابهم وبناتهم. فمر الإمام بباب بشر فسمع أصوات الموسيقى والغناء تنبعث من داره. وفي تلك اللحظة خرجت جارية تحمل طبقاً عليه فضلات الطعام.

فسألها الإمام: لمن هذه الدار؟ قالت: لسيدي بشر. قال: سيدك حر أم عبد؟ قالت: لا بل حر. قال: صدقت، لو كان عبداً لله لخاف واستحى من الله. فرجعت وهي ترتجف فأخبرت بشراً. فخرج فوراً يركض خلف الإمام لأنه كان قد طلب إلى الجارية أن تصفه له. فقالت: أسمر طويل، له ثفنات في جبهته من أثر السجود، فقال: هذا هو موسى بن جعفر. لذلك خرج يهرول خلفه، إلى أن أدركه.

- قال: سيدي صحيح أنا لا أخشى الله؟

- قال: يا بشر لو خفت الله لما عصيته، يا بشر لو استحييت من الله لأطعته.



- قال: سيدي أنا تائب هل ترى لي من توبة؟

- قال: نعم. إن تبت تاب الله عليك.

- قال: سيدي وحق أمك فاطمة أدركتك حافياً وسأبقى حافياً إلى

يوم وفاتي.

وعاد بشر إلى داره على التو فأخرج المغنين وكسر أواني الخمرة وطهر بيته تائباً إلى الله عز وجل. وقد بلغ من توبته أنه صار يصعد سطح داره رافعاً صوته بالأذان، فلا يسمعه أحد إلا ويبكي بتأثير صوته. وله في بغداد قبر ومزار يقال له قبر الشيخ بشار. وتجدر الإشارة في مجال توبته إلى أنه سئل كيف بلغ هذه الدرجة من التوبة فقال: خرجت ذات يوم من بيتي فشاهدت في طريقي ورقة من القرآن الكريم ملقاة مع القمامة فأخذتها وغسلتها بمياه دجلة ثم أخرجت طيباً فطيبتها. وعندما نمت وهي في جيبتي سمعت هاتفاً ينادي: يا بشر.. يا بشر.. فانتبهت. فسمعت صوتاً يقول: يا بشر، طيبت اسمي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة. وأنا ما كنت أعرف كيف يطيب الله اسمي إلى أن هياً لي الإمام موسى بن جعفر باب الحوائج -سلام الله عليه- فكانت توبتي إلى الله سبحانه على يديه.

* العبادة وسيلة وعلاج:

أجل، إنها التوبة. تصنع المعجزات، ومهما كان الإنسان غارقاً في الذنوب، فإن التوبة تطهر نفسه وتزكيها فيغدو مقبولاً من رب العالمين، يفتح له ذراعيه لكي يحتضنه ويأخذ به إلى رحابه الفسيحة فيمارس



العبادة بأبهى صورها، وهي خير وسيلة لرضا الله سبحانه، وأفضل علاج لأمراض النفس وأدرانها. وقد ورد في خطاب الله عز وجل لنبيه موسى عليه السلام: «إني لأستحي من عبدي أن أرد يده خالية» كما ورد في خطابه سبحانه لنبيه داود عليه السلام: «يا داود إذا وقف العبد في جوف الليل وسألني فأني أخجل أن أرد، إني أباهي به الملائكة وأقول: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي، الناس نيام وهو جالس يناجيني».

كما أن الإمام موسى بن جعفر -سلام الله عليه- ينقل عن موسى بن عمران في المناجاة أن الله سبحانه تعالى يقول له: يا ابن عمران كذب من زعم أنه يحبني، فإذا جنَّ الليل عليه نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه؟».

إن صلاة الليل أيها الأحبة هي شرف المؤمن، وقد جعل الله لصاحبها الثواب العظيم، يدعو الله ويستمد منه الطاقة والقوة. وقد كان كل واحد من الأئمة الميامين ولا سيما أمير المؤمنين، كان إذا جنَّ عليه الليل ينادي ربه ويناجيه باكياً حتى تغسل الدموع وجهه ونحره:

وفدت على الكريم بغير زادٍ من الحسنات والقلب السليم

وهو الذي يقول: «آه.. من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق»، والله سبحانه يقول في كتابه الكريم: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾^(١).

فهيا إلى خير الزاد أيها الأحبة.

(١) البقرة/ ١٩٧.

* المعذب في السجون:

إن الإمام موسى بن جعفر -سلام الله عليه- هو باب الحوائج إلى الله سبحانه وتعالى، قد أمضى قرابة عشرين عاماً في السجون، وقد ورد في زيارته: «السلام على المعذب في قعر السجون وظلم المطامير، السلام على ذي الساق المرضوض بحلق القيود».

لقد أمضى عشرين عاماً وهو بعيد عن أطفاله وعائلته، أمضاها في السرايب المظلمة والسجون تحت الأرض. ويروى أن المهدي العباسي قد أرسل وزيره الربيع ليطلق سراحه وكان -سلام الله عليه- قد قرأ دعاء الفرج، فقال المهدي للربيع: اذهب إلى موسى بن جعفر وأطلقه من السجن، فقال الربيع مستغرباً: أطلقه من السجن؟ قال: نعم. أطلقه وخيره بين المقام عندنا أو الرحيل إلى أهله، يقول الربيع: فتحت أقفال السجن نصف الليل فسمعت مناجاة الإمام موسى بن جعفر، يقول: وقع بصره عليّ، فقال: من هذا لاربيع؟ قلت: بلى.

- قال: ما الذي جاء بك؟

- قلت: أمرت بإطلاق سراحك.

- قال: إن كنت مأموراً بغير هذا فأنا أسلم أمري إلى الله.

- قلت: لا، سيدي. أمرت بإطلاق سراحك وأنا أخيرك بين المقام عندنا أو الرحيل إلى المدينة.

- قال: لا يا ربيع، دعني أذهب إلى أهلي فلقد استوحشوا لفراقي.

ويروي علي بن سويد فيقول: توصلت إلى سيدي موسى بن جعفر وهو في السجن، قلت: سيدي متى يكون الفرج، لقد ضاقت صدورنا،

قال لي: يا ابن سويد إن الفرج قريب، قلت: متى؟ قال: انتظروني يوم الجمعة القادم على الجسر ببغداد.

وضعوا على جسر الرصافة نعشه وعليه نادى بالهوان منادي

يقول علي بن سويد: لما جاءوا بالإمام موسى بن جعفر إلى الجسر، وكانت لي صحبة مع طبيب نصراني، فقلت له: بحق المسيح عليك إلا ما كشفت لي عن هذا المسجّي، بأي مرض مات؟ يقول: أخذ بكف الإمام فتطلع به ثم تركني ولم يجبني بكلمة، فلحقته قائلاً: يا أخا النصاري، أقسمت بالمسيح عليك إلا ما أخبرتني، فعاد والانكسار بادٍ على وجهه، قلت: ما الخبر؟ قال لي: يا ابن سويد، أما لهذا الرجل من عشيرة؟ قلت: ما تصنع بعشيرته؟ قال: يا ابن سويد، إن كان للرجل عشيرة فليطالبوا بدمه، فإنه مسموم، والسم قد قطع نياط قلبه.

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولسوف يعلم الذين ظلموا آل بيت محمد أي منقلب ينقلبون.



في مشاكل
الشباب والمرأهقة

كيف ننقذ الشباب من خضم الضياع ؟

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١) .

إنه حوار ساخن بين أبوين مؤمنين وولدهما، وهو شاب غير مؤمن . إن الولد يتجراً على مقام الوالدين فيقول لهما: أف بل يذهب إلى أبعد من ذلك فينكر البعث والنشور، ويزعم أن ذلك من أساطير الأولين. أما الوالدان فيطلبان الغوث والرحمة من الله ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ .

ولكن إذا كانت النفوس غير قابلة للهداية، فكيف لرب العالمين أن يهديها؟ .

ولنطرح هذا السؤال على أنفسنا. كيف يمكننا إنقاذ شبابنا من الضياع والانفلات، والتمزق والدمار؟ .

كل واحد منا يهمله هذا الأمر، رجلاً كان أو امرأة، صغيراً أو كبيراً. فالشباب أولادنا وإخوتنا وفلذات أكبادنا. وكل منا يهمله أن يرى أولاده صالحين وعلى صراط مستقيم. ولا أعتقد أن أحداً يطيب له أن يرى ولده منحرفاً وبعيداً عن الحق. فكيف نخلص شبابنا من الضياع؟ ازرعوا هذا السؤال في أذهانكم ثم تعالوا معي للإجابة عليه.

(١) الأحقاف/ ١٧ .

كل شيء في هذا الكون، إذا أردت أن تدركه وتستوعبه، لابد لك من معرفته أولاً. فالطبيب لا يحدد الدواء قبل أن يشخص الداء. والمهندس لا يقيم البناء إلا بعد أن يعرف طاقة الأرض على تحمل البناء. والفلاح لا يحرق الأرض ويزرعها قبل أن يعرف هل هي أرض طيبة تنبت زرعاً مختلفة ألوانها، أم أنها أرض سبخة لا تنبت إلا نكداً. وقل ذلك بالنسبة لعالم الاجتماع الذي يتصدى لحل مشكلة اجتماعية، لا بد له أن يدرس هذه المشكلة ليدرك ماهيتها .

إن الطبيب الذي يصف الدواء قبل أن يشخص الداء جاهل قد يقتل المريض بجهله. والمهندس الذي يقيم البناء دون أن يدرس طاقة الأرض التي ينوي إقامة البناء عليها، يقيم بناء واهياً لا يلبث أن يتداعى على سكانه فيقتلهم، وبذلك يتحول المهندس الذي صمم لهذا البناء إلى قاتل والفلاح الذي يحرق الأرض ويزرعها وهو لا يعرفها طيبة أم خبيثة، قد يبدد رزقه ويندم حيث لا ينفع الندم. وعالم الاجتماع الذي يتناطح لحل المشاكل الاجتماعية دون أن يحللها ويدرك ماهيتها، فيخبط في حلولة خبط عشواء ويزيد من تعقيد المشاكل وتفاقم خطرهما بدلاً من أن يحلها.

قال الإمام علي عليه السلام لكميل بن زياد: ما من حركة إلا ولك فيها معرفة. ما أروع هذا القول وما أعظمه، كل حركة لابد فيها من معرفة، فالإسلام لا يقيم شيئاً إلا على علم وعلى معرفة. إذا طرقت عليك الباب ليلاً، فهل تفتح الباب قبل أن تعرف الطارق؟ لا أعتقد أن عاقلاً يفعل ذلك. إذا سافرت إلى بلاد، هل تسافر قبل أن تعد العدة للسفر؟ وهذا يقتضيك معرفة طبيعة وطقس البلاد التي تعتزم السفر إليها لتصطحب اللباس المناسب للجو المناسب.

إذا عازمت على حضور احتفال. لا بد لك أن تعرف مسبقا هل هو احتفال فرح « أم احتفال عزاء». تصور أنك دخلت على قوم يحتفلون بعرس. وما إن جلست حتى فتحت كفيك وقلت : رحم الله من قرأ الفاتحة. سيندهش القوم ويرثون لك . عليك أن تقول في مقام كهذا: «اقرأوا سورة الحمد تيمنا بهذا الزواج المبارك إن شاء الله». وحينئذ يعرف الحاضرون أنك لا تلقي الكلام اعتباطا وأنت تزن الكلمة قبل أن تخرج من فيك. إذ جرى الاصطلاح على أن الفاتحة تقرأ على الأموات، وللسورة نفسها تسمية أخرى هي سورة الحمد، ويشار إليها بهذه التسمية إذا قرئت تيمنا.

إنه مبدأ عام وقاعدة أساسية، لا يمكن وصف وتحديد الدواء قبل تشخيص وتحديد الداء. في العالم الإسلامي، من أقصاه إلى أقصاه شباب يتخبط في خضم الضياع ودياجيره. كيف تنقذ هذا الشباب تلك هي المسألة. إنها مسؤوليتنا أمام الله تعالى ورسوله الأعظم وأهل البيت الطاهرين - عليهم السلام - كلهم يسألوننا عما فعلنا ونفعل لإنقاذ الشباب من الضياع. إن عليا الأكبر يسألني ويقول لي: إنك تتحدث عني، فهلا تذكر مشاكل الشباب؟ لقد قتلت لأحفظ شباب الأمة الإسلامية في طريق الحق والهدى والخير.

فكيف نخلص الشباب أيها الأحبة ؟ ماذا نقدم للجائع المريض؟ هل نقدم له الطعام قبل أن نعرف نوع جوعه وماهية مرضه؟ الأمر في منتهى الدقة ولذلك فإنه يتطلب منتهى الدراية. تصور مريضا يعاني من الضغط الدموي، ماذا يصيب هذا المريض الجائع إذا قدمت له طعاما مملحا؟ فإذا تناول هذا الطعام تفاقم الضغط الدموي عليه

وقتله. وهل الشباب الضائع جائع إلى الطعام بالمعنى الوضعي للكلمة ؟ أم أنه بحاجة إلى طعام يغذي عقله ونفسه؟ إذ الرسائل لا تتفك تردني ومن مختلف المناطق في العالم مطالبة إياي بإلقاء المحاضرات وإقامة المجالس لإرساء قواعد الإسلام وإعلاء كلمة الحق وإيصال صوت الرسول ﷺ إلى الناس أجمعين. وكثيرا ما يكون المرسل في بحبوة من العيش المادي حيث توافر له كل ما يقتضيه هذا العيش من طعام لذيذ وألبسة ومساكن وسيارات فخمة. ومع ذلك كله يبادرني بالقول إنه لا يجد طعاما للحياة ولا فائدة من استمراريتها، لذلك يريد أن ينتحر. إن الرفاه المادي متوافر للشباب في السويد والولايات المتحدة ومع ذلك فإن معدل الانتحار فيهما هو أعلى معدل في العالم، إذن المسألة ليست مسألة طعام وسيارة وإشباع غريزة جنسية المسألة أكبر وأخطر. فالشباب يعاني من جوع روحي، إنه بحاجة إلى طعام يغذي روحه وعقله ونفسه. فإذا تم له ذلك، اشتدت علاقته بالله تعالى، وأدرك أن الله لم يخلق الحياة عبثا، بل خلقها لهدف سام ، ومتى أدرك ذلك عاش سعيدا مطمئنا بغض النظر عن مسكنه وملبسه ومأكله.

نعود إلى الشاب الذي بدأنا الحديث به وقد عرض لنا القرآن الكريم حالته. إنه في حال رهيب من الضياع، إنه يتأفف من والديه. وينكر البعث والنشور زاعما أنهما من أساطير الأولين. فما هو علاجه وعلاج أمثاله أيها الإخوة ؟ .

ليس هناك أعظم من العلاج الإسلامي لإنقاذ الشباب من التخبیط والضياع. إن المشاكل التي تؤرق الشباب وتقض مضاجعهم تنبع من غريزتين اثنتين، هما غريزة الجنس، وغريزة الغضب. فما أن يدخل

الإنسان في طور المراهقة حتى تشتعل غرائزه ويضطرم أوارها. والغريزة الجنسية أقوى وأدهى الغرائز وأمرها، وهي بحر تتلاطم تياراته في جسم ونفس الشاب. لقد رأى علماء الغرب أن حل مشكلة الشباب يتخلص في تديرين، أولهما إطلاق العنان للغرائز، وثانيهما سيطرة العقل عليها. وهذا كما هو واضح كلام متناقض وبعيد عن الواقع.

أما الذين قالوا بإطلاق العنان للغرائز فيأتي على رأسهم فرويد وهو يهودي حاقد على البشرية. لا يفكر إلا بدمار الشعوب وتمزيقها ليسهل لليهود قيادها واستعبادها. وقد نسج على منواله آخرون من أمثال سارتر وأدلر. قال هؤلاء: إذا أردتم حل مشاكل الشباب فأطلقوا لهم العنان في إشباع عن غرائزهم وشهواتهم. هكذا أعلنوا الإباحة الجنسية وبالمفهوم الحيواني الذي يدمر الأسر ويمزق المجتمعات. لم الزواج ولم الأسرة ؟ فكل النساء مشاع لكل الرجال. وقد كرس هذا التوجه بروفيسور يهودي أمريكي هو كارن بنيامين. فألف كتابا جعله أساس التربية في العائلة الأمريكية. ولأن آراء بنيامين هذا امتداد وشرح لأفكار فرويد، فإنه بمجمله دعوة صريحة للشباب والشابات. إلى ممارسة الجنس بحرية مطلقة ودون أي ضوابط من الخجل والأخلاق والدين.

فماذا كانت النتيجة ؟

لقد اكتشفت أوروبا وأميركا أن هذا اليهودي الحاقد خطط لتمزيق الأسرة والمجتمع، فقلما تجد أسرة متماسكة ترعى أولادها وتسهر على تربيتهم. بل أنى توجهت في أوروبا وأميركا، صادفت أسرا مشتتة

مهلهلة وأطفالا مشردين في الشوارع ودهاليز الرذيلة من دعارة ومخدرات وجريمة. كما تعصف بالمجتمع أمراض استعصت وضربت الكبار والصغار، النساء والرجال فالهربز يفتك بالبعض ويتكفل الايدز كما يسمونه في أمريكا والد سيدا كما يسمونه في أوروبا بالقضاء علي الباقي والايدز يعني شل جهاز المناعة في الجسم والتسمية كلمه مركبة من أربعة حروف كل حرف مأخوذ من أول كلمات التسمية الإنكليزية لمرض شل جهاز المناعة في الجسم Acquired immuno deficiency Syrdrome .

فمن الواضح أن جمع الحروف الأوائل من الكلمات الأربع يعطي كلمة (ظاهرة نقص المناعة المكتسبة) من عجيب صنع الله تعالى، أن زود كل إنسان بجهاز في بدنه، هو جهاز المناعة. فما أن تهاجم الجراثيم والميكروبات الكريات الحمراء في الدم وهي الكريات التي تحمل الغذاء إلى أنحاء الجسم، حتى تستتفر الكريات البيضاء وهي في الدم أيضا وتتصدى لزحف الجراثيم والميكروبات، وتتشب معركة ضارية بين الكريات البيضاء التي هي بمثابة الجيش المدافع عن البدن وما فيه من كريات حمراء هي بمثابة قوافل التموين في الجيوش، وبين الجراثيم والميكروبات التي هي بمثابة جيش عدواني يزحف ليدمر البدن ويقضي على معالم الحياة فيه. فإذا أصيب البدن بداء الإيدز أنشلت فيه الطاقة الدفاعية وأصبح عاجزا عن رد عدوان الميكروبات والجراثيم عليه. وقد أكد العلماء أن الإباحة الجنسية هي أبرز أسباب الإيدز. وبكل وضوح قال الله تعالى في كتابه الكريم: وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (١) ..

(١) الإسراء/ ٣٢.

إن الإباحة الجنسية التي نادى بها فرويد وأضرابه كانت وبالا على المجتمعات التي صمت آذانها عن قول الله وأصفت إلى أضاليل ومزاعم فرويد وأضرابه .

أما قولهم بأن حل مشكلات الشباب تكون في سيطرة العقل على الغرائز، بعد قولهم بحرية إشباع الغرائز، فهو قول متهافت مناقض لقولهم الأول فضلاً عن بعده عن الواقع. لنتصور ثلاثة شباب يمثلون ثلاث غرائز هي الغريزة الجنسية. وغريزة الغضب، وغريزة حب الذات . فالعقل حيال هؤلاء الشباب الذين تفجرت غرائزهم، شيخ طاعن في السن يحاول أن يكبح جماح أولئك الشباب بالنصيحة والإرشاد إلى ما هو خطأ وما هو صواب ودون أي فرض أو إلزام، لأن سيطرة ذلك الشيخ على أولئك الشباب ضعيفة إن لم نقل معدومة. إذن كيف يوفر السيطرة على الغرائز؟ إن تلك السيطرة هي الكابح الحقيقي للغرائز. وهي لا تتوافر إلا بالعودة إلى منهج الأنبياء، والإنصات في خشوع إلى الرسول الأعظم ﷺ وحينئذ نفهم كيف نكبح فلتان الغرائز والشهوات. ولا بد للعقل من مدد حتى يعرف هذه الحقيقة، والمدد هو الوحي ، هو القرآن الكريم الذي يصور هذه المشكلة خير تصوير ويعالجها خير علاج وذلك في سورة يوسف عليه السلام .

يوسف الصديق في أوج شبابه وجماله ، يعيش مكرماً في بيت عزيز مصر فتفتن به زليخة زوجة العزيز - وزليخة هذه موجودة بين الناس وبالملايين وما أكثر الزليخات اللواتي توظفن الصهيونية لإفساد الأخلاق وتدمير الأسر والمجتمعات - تغلق زليخة الأبواب وتراود يوسف

عن نفسه. ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ﴾ (١).

وفي قراءة ثانية «هيأت لك» ماذا تريد يا يوسف؟ إنني شابة جميلة وأنت شاب جميل، هلم فارتو واروا! إن في رأس زليخة عقل ولكن ليس في قلبها إيمان. أما يوسف الصديق ففي رأسه عقل وفي قلبه إيمان. فلمن ستكون الغلبة؟ هل ستكون للعقل المأسور للغريزة، أم للعقل المستتير بالإيمان؟ رد يوسف على إغراءات زليخة قائلاً: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢).

وتابعت زليخة إغراءاتها، وأصر يوسف على الرفض تنزيها لنفسه عن الفحشاء وعرفانا بإحسان العزيز إليه. فانتقلت زليخة من الإغراء إلى التهديد، فلوحت ليوسف بأنها ستتهمه بتهمة تودي به إلى السجن. فأزداد يوسف إصرارا على الرفض وقال ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ (٣).

﴿السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ (٤).

ثم اتجه إلى باب الغرفة ليخرج منها، فلحقت به. هو يركض بدينه وإيمانه وهي تركض وراءه بشهوتها وشيطانها. وشتان بين الراكضين والمتحركين، فركضه وتحركه ينتهي به إلى الجنة، أما ركضها وتحركها فينتهي بها إلى النار.

واستبقا الباب فأدرسته وقدت قميصه من دبر، وألفيا العزيز لدى

(١) يوسف / ٢٣.

(٢) يوسف / ٢٣.

(٣) الشعراء / ٦٢.

(٤) يوسف / ٣٣.



الباب. فقالت زليخة: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

لقد اتهمت يوسف بأنه راودها عن نفسها، فالتفت العزيز إلى يوسف: قال: ما تقول يا يوسف؟ قال يوسف: «هي التي راودتني عن نفسي». قال العزيز: ومن يشهد بأنها راودتك عن نفسك؟ فأشار يوسف إلى ابن أخت زليخة الذي كان معهما في الغرفة، وهو طفل له من العمر ستة أشهر وقال: سل هذا الطفل يخبرك بحقيقة ما جرى. وبقدرة الله نطق الطفل، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (٢).

قال الطفل: انظروا إلى قميص يوسف ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ فهي صادقة، لأن يوسف هم بها فدافعت عن نفسها ومزقت صدر قميصه. أما إذا كان قميصه قد من دبر أي من الخلف فقد ﴿فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣).

فلما رأى العزيز أن قميص يوسف قد مزق من الظهر أدرك أن يوسف هو الصادق فقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ﴾ (٤).

قد يقول قائل: إن قول العزيز في كيد النساء إساءة إلى المرأة لأن هذا القول أدعى إلى سوء الظن بها. نرد على هذا القول بأن قول

(١) يوسف / ٢٥.

(٢) يوسف / ٢٦.

(٣) يوسف / ٢٧.

(٤) يوسف / ٢٨.

العزیز إنما یصح فی النساء المنحرفات الکافرات. أما المرأة المؤمنة فإن القرآن الکریم یقول فیها: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ (١).
ویقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (٢).

لاحظوا أن یوسف جابه المحنة بالتوکل علی الله من قوله «معاذ الله» إلى قوله: ﴿إِن مَّعِيَ رَبِّي﴾.

ومن یتوکل علی الله لا یخیب. إن الله یحول الظروف إلى صالح من یتوکل علیه بعد أن تعد لهلاکة. لقد تأمر إخوة یوسف علیه وألقوه فی غیابة الجب، فأخرجه الله تعالى من الجب إلى القصر، ثم افتری علیه المفترون، ألقوه فی السجن، فأخرجه الله من السجن إلى العرش، إن القميص الذی کان سبباً فی عمی یعقوب، هو ذاته، بمشیئة الله صار سبباً فی إعادة البصر إلى عینی یعقوب.

إذن، ومن خبر یوسف الصدیق علیه السلام مع زلیخة، نستنتج أن العقل وحده غیر كاف لکبح جماح الغریزة، فلا بد له من مدد هو الإیمان بالله والاتکال علیه.

(١) الفتح / ٢٥.

(٢) التوبة / ٧١.



* النبي وأهل بيته أس الإسلام وحفظته

أيها الإخوة والأبناء :

الشباب طاقة متفجرة، فالشباب إذا توجه اندفع بسرعة، لان همة الشباب تجري في عروقه وتشيع في نفسه، فإذا آمن بأمر اندفع إليه بعزيمة وتصميم.

إن الإنسان في مرحلة الطفولة لا ينفك، وفي كل أموره، يتطلع إلى أبويه، فإذا أصابه أذى أو حل به ضرر استتجد بهما صارخا: أباه.. أماه حتى إذا بلغ الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة من عمره، اعتمد على نفسه في دفع الأذى ليس عن نفسه فحسب، بل عن كل من يحب. وكل ما يعتقد به .

إن الطفل بحاجة إلى مثل أعلى يقتدي به ويتمثل. فإذا لم يتوافر له أبوان يعطيانه المثل الأعلى، فإنه يبحث عن أبوين قد يعطيانه المثل الأدنى.

كلكم مثقفون واعون، تعرفون أن في الشاب غريزة الأسوة والقدوة وخير أسوة والقدوة، نضعهما أمام أنظاركم وفي أنفسكم، هما شخصيات الرسول الأعظم وأهل بيته -عليهم سلام الله أجمعين-. فهؤلاء هم أس الإسلام وحفظته. يجب أن يعرف الولد ومنذ نعومة أظفاره أن الإسلام انتصر بسيف علي بن أبي طالب عليه السلام. وهذا ما شهد به الرسول الأعظم ﷺ ويجب أن يعرف ومنذ نعومة أظفاره جهاد أهل البيت وتضحياتهم بالأموال والأنفس في سبيل الإسلام. وكل منهم مثل أعلى حري بكل مؤمن أن يتخذه قدوة وأسوة. عندنا الحسن



والحسين سيّدا شباب أهل الجنة، وقد عاشا للإسلام. استشهدا في سبيله. عندنا الإمام علي زين العابدين الذي عانى من جامعة الحديد توضع في عنقه من أجل الحق والإيمان والحرية. عندنا الإمام الباقر الذي بقر العلم بقرّاً. عندنا الإمام جعفر بن محمد الصادق الذي أقام جامعة احتوت على أكثر من أربعة آلاف علم. عندنا الإمام موسى بن جعفر الذي قضى في السجون عشرين سنة من أجل الله والمستضعفين، كذلك الإمام علي بن موسى الرضا سلطان أهل البيت عندنا الإمام الجواد وقد أجاب على ثلاثين ألف مسألة ولما يتجاوز التاسعة من عمره. كذلك الإمام الهادي، كذلك الإمام العسكري -عليهم سلام الله أجمعين-.

فإذا أردنا مثلاً أعلى للنساء، فعندنا فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين كانت إذا دخلت على رسول الله ﷺ قام إجلالاً لها وقال: مرحباً بأم أبيها، وهو يشير بهذه الكنية إلى كونها أم الأئمة ومعدن الذرية الطاهرة، إنها الكوثر المتدفق بالعطاء الخير ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) . (١)

يقول الله تعالى لرسوله الأعظم ﷺ: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، والكوثر هي الزهراء الطاهرة وشانئك عدوك اللدود العاص بن وائل السهلي، هو الأبتَر الذي لا ذرية له. أما أنت أيها الرسول فذريتك من فاطمة ستملاً الخافقين حقاً وهدى ومنها الإمام الحجة، المهدي المنتظر (عج) الذي سيملاً الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت جوراً .

(١) سورة الكوثر.

تلك هي مثلنا العليا التي بها نقتدي ومناراتنا المشعة التي بها نهتدي. فعلينا أن نقول لطفلنا، فاطمة الزهراء أمك، خديجة الكبرى أمك، أم سلمه أمك، زينب العقيلة أمك هذه البطلة التي كانت تجمع أطفال أخيها الحسين من تحت سنايك خيول الطفافة غير خائفة ولا واجنة . تلك البطلة التي شهدت استشهاد أخيها الحسين فما اهتز إيمانها بل توجهت إلى الله قائلة ، وقد وضعت يديها تحت الجسد الطاهر الصريع : «اللهم تقبل منا هذا القربان فداء لوجهك الكريم».

أولئك هم خير قدوة وأسوة تضعها، أيها المؤمن، أمام أبنائك وبناتك. فإن أنت لم تفعل توجه أولادك نحو ماركس وانجلز، ولينين وستالين، وفرويد وآدلر وسائر اليهود الحاقدين المضللين الذين يعبثون بالعقائد والأخلاق وجميع المثل العليا .

*** الشباب أرق أفئدة وأسرع إلى الخير:**

أيها الإخوة والأخوات من آباء وأمهات :

لن نستطيع إنقاذ أولادنا من الضياع إلا بتوجيههم نحو الله تعالى هكذا فعل رسول الله ﷺ لقد بدأ بالفتيان، فكان الإمام علي عليه السلام أول فتى أسلم، وقولنا «أسلم» مجرد اصطلاح تاريخي لغوي، فالإمام علي عليه السلام هو الإسلام مذ كان في عالم الذر.

قال الرسول ﷺ متوجها إلى المؤمنين الأوائل: «عليكم بالشباب، فإنهم أرق أفئدة وأسرع إلى الخير» وهذه حقيقة لا جدال فيها، فما أن يدعى الشاب إلى الخير حتى يهرع نحوه، وقد لمست هذا بنفسي وفي

آلاف الحالات. إن شباب المسلمين، كل المسلمين، طيبون محتاجون إلى من يوجههم نحو الله، إنهم درر ثمينة علينا أن نحفظها من السرّاق وقطاع الطرق، علينا أن نصونها من التيارات المشبوهة والعواصف العاتية. علينا أن لا ننسى قول الرسول ﷺ: «استوصوا بالشباب خيراً، الله الله بالشباب» كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى شاباً سلم عليه وسأله عن اسمه فإن كان اسماً لا يبعث الطمأنينة كحرب وصعب وصخر غيره له. وبعد ذلك يسأله عن عمله، فإن كان عاطلاً عن العمل هياً عملاً له. ثم حضه على الزواج. فإذا كان فقيراً ساعده بمال يأخذه من بيت المال .

لقد بعث الرسول ﷺ مصعب بن عمير لهداية الأنصار وتدريسهم القرآن وهو لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره. وعهد بعد فتح مكة إلى الشاب عتاب بن أسيد بأن يصلي في الجماعة بعد خروج الرسول ﷺ منها عائداً إلى المدينة. هذا لا يعني أن الرسول ﷺ لا يثق بالشيوخ، ولكنه أراد أن يعلمنا أن السن ليس مقياساً في التفاضل بين الناس .

يُروى أن وفداً من أهل الحجاز دخل على عمر بن عبد العزيز ليهنئه بالخلافة . فقام من الوفد صبي لا يتجاوز السابعة من عمره. وبدا أنه خطيب الوفد. فقال له عمر بن عبد العزيز: «اجلس أيها الصبي وليقم من هو أكبر منك سناً». فقال الصبي برزانة ووقار: «أصلح الله الأمير، لو كان كبر السن مقياس الكفاءة، لكان في مجلسك هذا من هو أحق بالخلافة منك» فقال عمر بن عبد العزيز: «انطلق يا بني، انطلق على بركة الله، قل ما عندك. قال الصبي: نحن ما جئناك خوفاً منك. بل جئناك لأننا وجدنا أنفسنا منعمن تحت ظل عرشك ورعايتك، ولماذا

نخاف منك فأنت أمير مؤمن عادل، وأنت ملك طيب. وأنت أبونا، فهل نخاف من أيينا؟ ما جئناك طمعا فيك، لأننا وجدنا أنفسنا نرفل في نعم الله سبحانه وتعالى وببركات مناهج الإسلام، إننا لا نخافك ولا نطمع فيك. فاستحسن عمر بن عبد العزيز كلام الصبي وأثنى عليه .

لقد ركز الرسول ﷺ على الشباب لأنه قمة النشاط والحيوية والاندفاع . قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ (١) .

فالطفولة مرحلة ضعف وحاجة إلى الغير، ثم تأتي مرحلة الشباب، هي مرحلة قوة وعطاء ثم ينحدر بعدها الإنسان إلى الضعف والشيخوخة ولسان حاله بقول :

ولي عصا عن طريق الذم أمدحها بها أقدم عن تأخيرها قدمي

كأنها وهي في كفي أهش بها على الثمانين عاما لا على غنمي

كأنني قوس رام وهي لي وتر أرمي عليها زمان الشيب والهرم

أيها الإخوة الآباء والأخوات الأمهات :

إنني أدق أمامكم ناقوس الخطر. إن كارثة تحوم حول أبنائنا ليل نهار في كل مكان، فكيف نتقذهم من أخطار هذه الكارثة ؟

إن إنقاذهم لا يتم إلا بثلاثة هي العلم والعقل والإيمان. العلم يكشف لهم حقائق الكون، والعقل يريهم طريق الخير ويبعدهم عن طريق الشر ومع ذلك، فإن العلم والعقل غير كافيين وحدهما لإصلاح المجتمع

(١) الروم/ ٥٤.

وسعادته فها هو الغرب في ذروة التطور العقلي والتقدم العلمي ومع ذلك فإنه يتخبط في بحور من القلق والضياع واليأس. أما العقل وحده ، ومن دون علم وإيمان، فإنه يثمر عمرو بن العاص ومعاوية وعمر بن سعد وشريحا القاضي وسمرة بن جندب وأمثالهم آلاف مروا في التاريخ، وما زالوا يعيشون بين ظهرانينا .

إن مجتمع الحرية والاستقلال والأمن والنظام والتقدم لا يقوم إلا على العلم والعقل مدعومين وموجهين بالإيمان. هذه الركائز الثلاثة مجتمعة هي الأساس المتين التي يبنى عليها المجتمع السليم. وقد نشط اليهود لتشويه هذه الركائز تمهيدا لتدمير المجتمعات .

*** من أسباب سقوط الأندلس إشاعة الفاحشة :**

لقد فتح المسلمون الأندلس على يد طارق بن زياد، وأقاموا فيها دولة إسلامية ازدهر فيها العلم والعمران أيما ازدهار. فكان طلاب العلم يقصدون جامعات الأندلس وأساتذتها المسلمين ليدرسوا أصول الحضارة وشروطها. وهال اليهود ودهاقنة الاستعمار أن يسيطر المسلمون على أوروبا فأخذوا يخططون لضرب المسلمين وإخراجهم من الأندلس. فرأوا أن إشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي الأندلسي، هي أقصر طريق لإضعافه ومن ثم الانقضاض عليه وتدميره. والتاريخ يشهد بالفظائع التي ارتكبتها اليهود والمستعمرون بحق المسلمين في الأندلس، عودوا إليه أيها الإخوة والأبناء لتعرفوا ما تعرض له أجدادنا في الأندلس من مجازر وهتك أعراض ومقدسات.

ومن أجل إشاعة الفاحشة بين مسلمي الأندلس، أخذت فرنسا تشجعهم على امتلاك كروم العنب بشرط استثمارها في صناعة الخمر. لقد وزعت عليهم الكروم مجاناً وروجت لصناعة الخمر وتعاطيها بين شباب الأندلس. والخمر كما هو معروف تذهب العقل، وأنا أعتبر الحكومات الإسلامية مسؤولة عن حماية الشباب المسلم من شرور الخمر والحشيش وسائر الفواحش والمخدرات.

كانت محاكم التفتيش التي أقامها أعداء الإسلام في الأندلس، تكلف الزبالين بالتجسس على من تبقى في الأندلس من المسلمين. والويل لمن لا يجد الزبال في نفاياته قارورة خمر فارغة. لأن ذلك دليل على عدم تعاطيه الخمر، إذن هو لا يزال محافظاً على إسلامه، فليجر إلى ساحات الإعدام وفي أحسن الحالات إلى أقبية التعذيب. فصار بعضهم يشتري قارورة الخمر فيدلق الخمر في البالوعة، ثم يلقي القارورة فارغة في الزبالة، وذلك حتى يدفع عنه العذاب الذي ينتهي بالموت. والإسلام إذ يحرم الخمر، إنما يحرمها لأنها أم الفواحش. فثمة سبع آيات قرآنية تحرمها. والرسول ﷺ يقول: «شارب الخمر كعابد وثن». ويقول: «وضع الشر في بيت ووضع له قفل مفتاحه شرب الخمر». وأعتقد أنكم جميعاً تعرفون خبر ذلك الرجل الذي خير في ثلاثة أمور لا بد له من القيام بأحدها: أن يزني بأمه، أو يقتل أباه، أو يشرب الخمر. قال الرجل في نفسه كيف لي أن أزني بأمي أو أقتل أبي؟ إن شرب الخمر أهون هذه الشرور. فشرب الخمر فثمل فزنا بأمه وقتل أباه.

بعد إشاعة تعاطي الخمر بين مسلمي الأندلس، خطا اليهود والمستعمرون الخطوة الثانية لتدمير المجتمع الإسلامي في الأندلس فأخذوا يشحنون إليها برأً وبحراً آلاف الغواني الجميلات المبتذلات. وباجتماع الخمر والغانية المبتذلة عمرت مجالس اللهو والمجون. فانصرف الشباب المسلم عن المساجد ومجالس العلم والذكر وهذا هو الهدف الذي خطط له اليهود والمستعمرون لتحقيقه .

ثم كانت الخطوة الرابعة باصطناع علماء ليس لهم من العلم إلا العمامة والجبّة واللحية والسبحة. ولأنهم صنائع الاستعمار فإنهم ينفذون كل ما يأمرهم به. فلا يتورعون عن تحليل الحرام وتحريم الحلال وهم أصلاً لا يميزون بين الحلال والحرام. وقد يتعاطون المحرمات على مرأى من الناس. فينخدع بهم الشباب فينسج علي منوالهم . وقد قال الشاعر في هؤلاء العلماء المزيفين :

ابن أخي علامة الزمان أفتى بأن الصوم ركعتان

فصاحب «الفضيلة» هذا لا يميز بين الصوم من الصلاة.

أما العالم الحق الذي يؤثر في توجيه الجماهير نحو الصلاح والرشد، فانه يصبح عرضة للافتراءات والوشايات والمضايقات. وقد يدفع حياته ثمناً لصدقه في علمه وتصميمه على متابعة رسالته في الهداية والتوجيه. أن يفسد رجل عادي أمر- وأن يفسد عالم أمر آخر. فخطر الأول محدود أما خطر الثاني فغير محدود. قال الإمام علي عليه السلام: العالم انكساره كانكسار السفينة تفرق وتفرق. إن مثل العلماء الذين يحملون علماً من دون إيمان، ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَاراً﴾^(١).

(١) الجمعة/٥.



ماذا يستفيد الحمار من كتب يحملها؟ بل يذهب القرآن إلى أبعد من ذلك في تحقير العالم المنحرف الذي لا يخشى الله ولا يخشى اليوم الآخر، فيقول فيه: ﴿مَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ (١).

لذلك كله، يجب علينا أن ندفع أبناءنا للالتفاف والتعلق حول العلماء المخلصين الذين يشير إليهم الإمام زين العابدين عليه السلام بدعائه الذي يقول فيه: «أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبينني وبينهم خليتني».

أتدرون لماذا هاجم القرآن العلماء المنحرفين ونعتهم تارة بالحمير وأخرى بالكلاب؟ لأن الدين أمضى سلاح في ضرب الدين. فلو سمعت زنديقا سكيما فاسقا يسب ويفتأب عالما فاضلا، ما أبهت له ولافتراءاته وهذيانه. أما إذا بدر ذلك التهجم والافتراء من رجل يتزي بزي الدين، فقد يصدق الناس ويتأثرون بمزاعمه وافتراءاته. هذا عمر بن سعد، يوم عاشوراء، يحض الخيالة على رض صدر الحسين عليه السلام بالقول: «يا خيل، الله أكبر، أبشري بالجنة، دوسي صدر الحسين». قاتلك الله، كيف تبشرها بالجنة وهي تدوس صدر سيد شباب أهل الجنة؟ هكذا يضرب الدين بالدين.

وقبل ذلك، وعلى أرض عاشوراء، يقف عمر بن سعد ليصلي إماما في جماعته، المكبر يكبر، وعمر بن سعد يطلب إلى المصلين أن يسووا صفوفهم. وبالمقابل كان الإمام الحسين عليه السلام يصلي بباب المخيم. بعد

(١) الأعراف/ ١٧٦.



أن انتهت الصلاة صاح مكبر عمر بن سعد قائلاً: يا حسين إنها لا تقبل منك، صلاتك باطلة فيها إشكال شرعي. فتأملوا من يحكم ببطلان صلاة الإمام الحسين عليه السلام ومنذ ذلك اليوم التاريخي تعرض الإسلام للتزوير، وأنا أقولها بصراحة وبصوت عال: هناك إسلام مزيف مزور علينا أن نبتعد عنه ، وأن نفنده للناس حتى يبتعدوا عنه. علينا أن نضع ميزانا للدين الصحيح. إن بعضهم يبرئ ذمته بالقول: «أنا لا أعرف الحق مع من». هذا قول مرفوض، فالحق واضح وضوح الشمس في رابعة النهار. اقرءوا القرآن وعودوا إلى سنة الرسول وأهل بيته تعرفوا الحق مع من.

علينا أن لا نسمح بلعبة ضرب الدين بالدين، إنها مؤامرة خبيثة على الدين الصحيح. الدين واضح له أركانه من صلاة وصوم وزكاة وحج وشهادة، الدين واضح في حرصه على خير وأمن وسلامة وكرامة المسلمين. الدين واضح في إرادة الوحدة والفلاح والسعادة للمسلمين. أما أولئك الذين ينشطون لضرب الدين بالدين، فلا ينفكون عن بث الدسائس والافتراءات التي تمزق وحدة المسلمين وتعكر سلامهم الاجتماعي، فإن الدين بريء منهم براءة الذئب من دم يوسف .

إن أول خطوة قام بها الرسول ﷺ في المدينة أنه آخى بين المهاجرين والأنصار. وإن جيش الإمام الحسين عليه السلام يوم الطف يمثل وحدة المسلمين خير تمثيل. ولم يعرف جيش في التاريخ القديم والحديث، اجتمع فيه الصغار والكبار الرجال والنساء العرب والأعاجم، البيض والسود، كما اجتمعوا في أنصار الحسين يوم الطف. لقد كان فيهم أمثال مسلم بن عوسجه وحبیب بن مظاهر وأنس الكاهلي، وقد أربى



كل منهم على التسعين من عمره. وكان فيهم عبد الله الرضيع الذي لما يتجاوز الشهر السادس من عمره كان فيهم التركي والعجمي والزنجي إلى جانب العربي من أي أرومة انحدر.

لقد قلت للناس في أفريقيا: نحن المسلمين نحب اللون الأسود في كعبتنا الحجر الأسود نتبرك به. وبلال مؤذن الرسول ﷺ زنجي أسود، وقد كان من تلاميذ الرسول وأبطال الإسلام .

وفضة زنجية سوداء وهي تلميذة فاطمة الزهراء عليها السلام وصل بها الأمر، أنها كانت لا تتحدث إلا بالقرآن، ولا غرو في ذلك فهي خريجة جامعة سيدتها الزهراء التي هذبتها وعلمتها وجعلت أعمال البيت مناوبة معها .

فتعالوا أيها الشباب إلى مائدة أهل البيت، تعالوا إلى مائدة علي الأكبر. ذلك الشاب الذي كان شبيها بجده رسول الله ﷺ خلقا وخلقاً ومنطقاً. تعالوا أيها الشباب وأشبعوا نفوسكم وأرواحكم من مائدة علي الأكبر، حيث الإيمان والتقوى والرجولة والإقدام والشهامة والسخاء، فأني غذاء تحتاجون بعد ذلك ؟

كان الإمام الحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء فأخذته غفوة. فرفع رأسه قائلاً: «إنا لله وإنا إليه راجعون». فقال له علي الأكبر: «ماذا في الأمر يا أبتاه». فرد عليه الإمام الحسين قائلاً: «لقد استرجعت يا نور عيني، وجميل أن يقول الإنسان إنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن استرجاعي الآن له مناسبة» قال علي الأكبر عليه السلام: «وما المناسبة يا أبتاه؟» قال الإمام الحسين عليه السلام: «بينما أنا سائر أخذتني غفوة



فسمعت هاتفا يقول: القوم يسIRON والمنايا تسير معهم». فقال علي الأكبر: «أبتاه، يا حسين، أولسنا على الحق؟» فقال الإمام الحسين عليه السلام: «إي، والذي بيده نفوس العباد» قال علي الأكبر عليه السلام: «إذن لا نبالي بالموت». وقد استشهد أطفال علي الأكبر مع جدهم الإمام الحسين عليه السلام.

أليس في هذا الموقف، كما في كل مواقف أهل البيت -عليهم السلام - درس وعظة ؟ .

فهللما أيها الشاب إلى مدرسة أهل البيت، هللما واغترفوا من هذا النبع الثر إيماناً وأخلاقاً وهداية وبطولة .



رسالة عاجلة من فتاة إلى فتاة

في غضون أسبوع، أتقنت «كارمن» -فتاة في باريس- عملها أروع إتقان. مما سبب ازدحام الزبائن، بشكل لم يسبق له مثيل...

فهي فتاة تتقن فن التعامل.. كما تتقن فن الإغراء والإغواء..

عندما كانت في بيت أبيها، لم تكن مهتمة بجمالها، إلى هذا الحد الذي وصلت إليه.. فهي تكره التمثيل والأضواء، كما لا ترغب في الميل إلى أحد..

غير أن الأيام، دارت دورتها، لتفصل الأم عن زوجها إثر مشادة عنيفة. جرت بينهما.. بينما ظلت «كارمن» تعيش وحيدة في بيتها.. فكانت الهواجس تتقاسمها.. وكانت المخاوف تتقاذفها.. فالقلق يمزق صدرها.. والضيق يجرح أنوثتها.

فكرت.. كيف تكون قادرة على الخلاص.. من هذا الواقع اللزج البغيض..

وأخيراً.. قررت أن تسافر إلى باريس لتعمل في بيع وعرض الأزياء.. وهكذا فعلت.

قوامها الرشيق.. خدها المياس، شعرها الخارج على الطبيعة، عيناها المتمردتان.. كل ذلك كان السبب المباشر، في نجاحها الساحق...



ولكن ذلك، لم يستطع التخفيف، من قلقها، على أمها، من جانب،
وعدم اعتناء أبيها، بها من جانب آخر.. فقد مرت فترة طويلة، لم
تتسلم كارمن -خلالها- سوى رسالة واحدة، هي عبارة عن سطرين
فقط..

في السماء نجوم سابحة.. وفي البحر أمواج راقصة وفي القلب
زهرة وردية، اسمها كارمن.. أبوك (عنان).

وفي شقتها المطلة على الساحل، كانت تجلس على كرسيها، متهاوية
منهوكة.. غارقة في أفكارها، لا تدري شيئاً، ولا تقطع أمراً..
غير أن الرسالة، كانت تصب في عروقها، الهدوء، نسبياً...

ولكن حين انقطعت المراسلة بينها وبين أبيها، تحولت حياتها إلى
جحيم وهنا أحسَّت كارمن بالفراغ يقتلها ويدمر كيائها، فألقت بنفسها
في أحضان المخدرات والفلتان الخلقي فكانت نهايتها في هذا الإلقاء..
وهذه القصة تمثل حياة أكثر الشباب الذين أضاعوا حياتهم في ضباب
هذه الحضارة المادية الكثيف حيث لا علاج لهم إلا بالعودة إلى الفطرة
والنور ومن هنا أود أن أحدثك أيتها الفتاة العصرية لكي لا تعثري في
الطريق كما عثرت كارمن تعالي أحدثك، حديث الحرية.. هل صادقة
أنت، في طلبك الحرية..؟

إن الحرية التي، تفتشين عنها، ليست قابعة في زوايا صالات
الرقص.. كما ليست معلقة في ضفائرك الطويلة السوداء.. دعيني
أذكرك أن...



الحرية، ليست في خروجك على جدار العفة، والشرف، إن الحرية..
تعني الالتزام الكامل، بمبادئ الأخلاق.. تعني السعي أمام النور، وليس
وراء الظلام..

الحرية.. تعني تفوقك في الإسراع، إلى رحاب القرآن.. وليس
اعتصامك في قلعة الشيطان.

وأود أن أسألك.. لماذا تقرئين العلوم في حبوب منع الحمل؟ لماذا
تحلين المسائل الرياضية على شفتي حبيبك داخل سيارته؟

ما علاقة طلب العلم، بأعضاء جسمك؟ لماذا كل هذا الاستهتار
بكرامتك؟ ظننتك فتاة مسكونة بالطموح، ولكن تصرفاتك المراهقة،
كسرت أحلامي، وجعلتني أنظر إليك نظر المغشي عليه من الألم.

صدقيني أن الحرية ليست أقلام مساحيق، وأقلام أصباغ للوجه،
وباروكة للرأس، وكعباً عالياً، وبدناً للرقص والهز والتعري في شواطئ
البحار.

صدقيني أن الحرية شيء مقدس.. وثمان.. والحرية لا يعرفها إلا
من تحرر من غرائزه وشهواته، فالحرية مسؤولية ومعاناة، فإما الإيمان
والشرف والكرامة والأخلاق الفاضلة.. وإما الفلتان والضياع، وإليك
الكلمة الفصل.. إليك الاختيار.



فطنة وذكاء!

جاء في الذكاء.. أن أمير المؤمنين عليه السلام هكذا يروى - كان قد ذهب لعيادة واحد من أصحابه في بيته، وحين دخل الدار استقبله صبي في السابعة من العمر، فقرأ علي عليه السلام الذكاء والفطنة في عينيه، ثم أراد أن يعرف درجة الذكاء الذي يحمله هذا الصبي - وأظنه ابن الأصبغ بن نباتة- فوجه الإمام سؤالاً إلى الصبي ليكتشف من خلاله مدى ذكائه ومقدار فطنته، وكان الصبي ينظر إلى خاتم في يد الإمام علي عليه السلام فقال له الإمام:

هل رأيت أحسن من هذا الخاتم يا بني؟..

قال الصبي: اليد التي تحمله يا مولاي.

وسرَّ الإمام بهذا الجواب لأنه كشف عن ذكاء هذا الصبي وفطنته، وسرعة البديهة لديه.. وكان الصبي مشدوداً إلى شخصية أمير المؤمنين ينظر إلى وجهه طوال الوقت الذي استغرقتة الزيارة التي قام بها الإمام لعيادة هذا المريض الذي هو من أصحابه، ومن رواد العلم والفضل والمعرفة ومن فرسان الوغي وأبطال الهيحاء، تعرفه ساحات الجهاد، ولا تجهله محافل العلم، ومجالس الذكر والدعاء.

وحين خرج الإمام وقف بالباب يسأل الصبي مرة ثانية، ولكن هذه المرة السؤال أقوى من الأول لأنه يناسب ذكاءه وفطنته، ويحتاج إلى دقة في الإجابة، وهكذا كان.



قال له الإمام: يا بني أسألك: أيهما أحسن: بيتكم أم بيت أمير المؤمنين ؟

فرد الصبي قائلاً: ما دام أمير المؤمنين في بيتنا فبيتنا أحسن.. وإذا خرج من بيتنا، فبيته أحسن!
فقبله الإمام ودعا له، وانصرف.

وذلك أن المكان بالمكين، .. فممكّن لكوخ بسيط يدخله سيد الخلق، أن يتحول إلى أسمى وأرفع مكان في العالم. ولعروش يجلس عليها الجبابرة، والطفاة، والقتلة والجلادون أن تتحول إلى مزابيل وخرائب.



حديث في الإنفاق

قال رسول الله ﷺ:

«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في عتق رقبة، ودينار أنفقته صدقة، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً -عند الله- (الدينار) الذي أنفقته على أهلك».

وهذا الحديث إن دلَّ على شيء فإنه إنما يدل على مدى اهتمام الإسلام بالأسرة، وبالحرص على سعادتها، وراحة أفرادها.



اقراً واسمع وفكر

* خبر وتعليق:

عمره ٣٢ سنة، ولأنه عاطل عن العمل، فقد أخذ على عاتقه رعاية طفله الصغير، فكان يتولى تربيته بنفسه وكانت الزوجة، السكرتيرة في إحدى المؤسسات، تسمع من الجيران، أن ابنها يبكي كثيراً في غيابها.. وحين سألت زوجها عن سبب بكاء الطفل وعما إذا كان يتعرض لأذى أو كان مصاباً بمرض فأنكر ذلك وأصر على أن الطفل في أحسن حالاته خاصة عندما يكون معه في إشرافه وتحت رعايته، أثناء غياب أمه.

وذات مرة، تركت المرأة عملها وعادت إلى البيت، دون أن تعلمه بذلك فوجدت الوالد قد جلس يعاقر الخمر، ويدخن في حين ترك ابنه الصغير في غسالة الثياب تدور به والطفل الصغير الذي لم يتجاوز السنة الثانية من العمر يصرخ ألماً وخوفاً.

هذا الخبر نقلته ملخصاً عن راديو الكويت حين أذيع في مسلسل أخبار جهيئة بتاريخ التاسع من ذي القعدة سنة ١٤٠٩ هـ.

سكرتيرة تعمل في إحدى المؤسسات، ووالد عاطل من العمل يعاقر الخمر ويهوى الدخان، وطفل صغير يدور في غسالة ثياب!!! إنها حضارة القرن العشرين التي تبدل القلوب فتتزع منها الرحمة والشفقة لتغذيها بالقسوة والغلظة واللامبالاة المستمدة طبعاً من أجواء الحضارة الأجنبية التي أعلنت إفلاسها وتعطل فيها عمل القلب والروح والعقل



والعاطفة، وتفككت فيها لحمة الأسرة وحياة العائلة السعيدة وتبدلت الأدوار فأصبحت الأم للمكاتب والشركات، وأصبح الوالد للبيت والخمرة والميسر، وأصبحنا نعيش حياة الترف والرفاهية التي وفرتها لنا حضارة القرن العشرين بما فيها من تقدم وتكنولوجيا ونتساءل: ماذا ينفع التقدم المادي، إذا كانت القلوب خاوية ومحطمة؟ وما تنفع الإنارة والكهرباء إذا كانت النفوس غارقة في الظلام والجهل؟

أجل.. إن الحل لا يوجد إلا في الإسلام.. في العودة إلى الضمير والوجدان، في العودة إلى تحكيم العقل، والذوق الإنساني السليم، فهذا هو وحده صمّام الأمان الذي يحفظ البشرية من الانزلاق والدمار، إنه العودة إلى الإنبياء، حلم المخلصين المؤمنين، إنه الإسلام.

المنهج الإلهي
طريق الفلاح دينا وآخرته



المنهج الإلهي

طريق الفلاح دنيا وآخره

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (١).

إن كل بحث نسمعه عن الفكر الإسلامي يقتضينا أن نفتح بصائرنا وقلوبنا قبل أن نفتح أسماعنا. وهذه ملاحظة لا بد لي من التأكيد عليها. فعلينا أن نستجمع أفكارنا ونركزها على البحث نستوعبه بشكل صحيح وكامل. وأنا، ألح على هذا الأمر، لأنني أرى المجتمعات الإسلامية تتخبط في دياجير الظلام، فهي بأمس الحاجة إلى النور. وأولى وأهم واجباتنا هي أن نحمل قناديل النور لننور بها مجتمعاتنا. بعد هذه المقدمة ندخل في صميم الموضوع فنطرح السؤال التالي:

* من يحرك الإنسان؟

إن الإنسان يتحرك بدافع من أحد منهجين: المنهج البشري، والمنهج الإلهي. فثمة قانون الأرض، وثمة قانون الله عز وجل. أو بتعبير آخر هناك نوعان من الفكر، الفكر البشري وهو من صنع البشر ولا علاقة

(١) النحل / ٧٢.

له بالله والفكر الإلهي الفكر البشري محدود جدا وغليظ جدا، لو بحثنا فيه لوجدنا أنه يفتقر إلى مناهج تشمل جميع نواحي الحياة الإنسانية. إنه يفتقر إلى مناهج تشبع حاجات النفس الإنسانية، وهي حاجات كثيرة مركبة. فلا بد للإنسان من منهج يرييه ويعلمه كيف يعيش مع ربه ونفسه وأسرته ومجتمعه وجميع إخوته في الإنسانية.

إذا رجعنا إلى الفكر البشري وما انبثق عنه من قوانين لما وجدنا فيه وفي القوانين التي انبعثت عنه أي منهج أو برنامج يحدد علاقة الإنسان بالله. لماذا؟ لأن العقل البشري العاجز يقول: إن الله غير موجود، فلماذا أضع برنامجا أو منهجا يحدد علاقة الإنسان به؟

هذا هو جواب الفكر البشري الذي طغى على كثير من الناس في مشارق الأرض ومغاربها، فمن تأثر بأفكار وسفسطات ماركس ودوركهيم وفرويد وغيرهم من اليهود. نعم وبكل بساطة يقول ماركس: «لا وجود لله». وتقوم على فلسفته سفسطاته أنظمة ودول تصدر المساجد والكنائس فتدمر بعضها وتحول بعضها الآخر إلى متاحف لتاريخ مضى وانقضى. ثم جاء ستالين وخطب في موسكو مؤكدا مقولة ماركس: «الدين أفيون الشعوب» زاعما أن الدين هو نتيجة الخوف. ولأن الإنسان يعيش في خوف دائم فإنه يبحث عن شيء يبدد هذا الخوف فلا يجد إلا الله، فيتعلق به ويتجه إليه. وهذا الكلام يعني أن كل المؤمنين جبنا. وهذا زعم يدحضه تاريخ الإنسانية وحاضرها، فقد كان الإنسان المؤمن وما زال وسيبقى مثالا للشجاعة والإقدام والاستبسال. والتاريخ يعلمنا أن الأنبياء كلهم كانوا قمما في الشجاعة. يقول الإمام علي عليه السلام: «كنا إذا حمي الوطيس (إذا اشتد القتال) نلوذ برسول الله، فلا يكون أحد منا أقرب إلى العدو من رسول الله».

فالعقل البشري، إذن عاجز عن إيجاد منهج أو برنامج يحدد علاقة الإنسان بالله. وهو على صعيد الأسرة والمجتمع أعجز. كلنا نعرف المؤامرة التي تحاك لتفكيك الأسرة وتدميرها. كما نعرف الوهن الذي تعاني منه الروابط الاجتماعية التي باتت أوهى من خيط العنكوت. إن الفكر البشري يقول لك: «أنت الأول والآخر. أشبع غرائزك وشهواتك، اصرخ بأعلى صوتك نفسي، شهواتي، أموالي، بيتي. أما سائر الناس فلا يعنيك أن يعيشوا أو يموتوا. وليكن شعارك: من بعدي الطوفان»...

إن الولايات المتحدة الأميركية التي بنت حضارة مادية متفوقة، فأرسلت سفنها الفضائية إلى القمر والزهرة والمريخ، عاجزة عن بناء أسرة واحدة يعيش أبناؤها بسعادة واطمئنان في ظل أم رءوم وأب رءوف. فما أن تبلغ البنت الثانية عشرة، أو الرابعة عشرة في الأسر التي يسمونها «محافظة»، حتى يفتح الأب الباب ويقول لها: «أنت حرة الآن فاخرجي وافعلي ما تريدين. أنت الآن امرأة ناضجة والقانون يعطيك حرية التصرف بكل ما يخصك». فماذا تكون النتيجة؟ تخرج البنت وهي في عمر الورود، فتلقي بنفسها في خضم مجتمع نخره الفساد. فذئاب الشهوات والغرائز المنحرفة في انتظارها، ولن يقدموا لها رغيف خبز إلا بثمن من عفتها وكرامتها. وبعد سنة أو سنتين من تشردها، تصبح رقما من ملايين الشباب والشابات الذين وقعوا ضحايا للحشيشة والماريجوانا والهيرويين وسائر السموم القاتلة التي تقدمها دهاليز الدعارة ومافيات المخدرات. هذا حال الأبناء، فما هي حال الآباء؟ إنهم في دور العجزة لا حول لهم ولا طول. هذه هي أحوال الأسرة في أميركا وسائر البلدان التي جحدت بالله والدين والأخلاق.

وقد ارتفعت أصوات علماء الاجتماع صارخة: الغوث، الغوث...
ساعدونا في ترميم الأسرة وإعادة بنائها.

* صلة الرحم وعرش الله:

أيها الإخوة والأبناء. الحمد لله على نعمة الإسلام الذي يؤكد على الارتباط الوثيق بين صلة الرحم وعرش الله سبحانه وتعالى. عجباً كيف يمكن للإنسان أن يعيش بلا أسرة؟ كيف له أن يجد السعادة والطمأنينة خارج الأسرة؟ في الأسرة يسكن القلب ويطمئن. وما أجملها تلك اللحظة التي يعود فيها الأب... إلى بيته إلى سكنه حيث يلتقي بزوجته وأولاده، فينسى همومه وأحزانه، ويفرق في جو حميم غني بالعلاقات الإنسانية الصافية. وهذا لا يتوفر إلا في الأسرة الإسلامية التي صح إسلامها. هذه الأسرة التي تهددها مفاهيم الغرب وقوانينه. إنني أدق ناقوس الخطر لأنبه المسلمين إلى البلية السوداء التي ستقع بالأسرة الإسلامية إذا لم يعضوا على تعاليم الدين الإسلامي ومناهجه بالنواجز إن مئات الملايين من المسلمين من نيجيريا إلى باكستان إلى أندونيسيا إلى سائر أرجاء المعمورة يرزحون تحت قوانين لا تمت إلى الإسلام بصلة لا من قريب ولا من بعيد. إنهم لا يعرفون طعم الإسلام ولا سيرة نبيه ولا قدسية قوانينه، فقوانين الإسلام عندهم لا تتخطى أبواب المحاكم الشرعية. زواج وطلاق، هذا كل ما عندهم من الإسلام.

فكيف يكون الخلاص؟

إن الخلاص لا يكون إلا بنبذ المفاهيم والثقافات الغربية والعودة إلى



ينابيع الثقافة والمفاهيم الإسلامية. والأمر لا يحتاج إلى إراقة قطرة واحدة من الدماء. يكفي أن يجتمع عقلاء المسلمين ويقرروا تطبيق قوانين الإسلام وسيادة مفاهيمه وثقافته. بذلك، وبذلك فقط يضمنون السلامة والطمأنينة لأسرهم، كما يوفرّون المهابة والكرامة لكل مسلم. عندما يطبق المسلمون شريعة دينهم وتقوم دولهم على هذا الأساس المكين يعيشون سادة محترمين حكاماً وأفراداً. كيف أكون مسلماً أشهد يومياً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ثم أطبق قانون كارل ماركس أو آدم سميث؟ لماذا؟ أليس القرآن موجوداً؟ أليست سنة رسول الله وأهل البيت - عليهم السلام - موجودة؟

لقد بات واضحاً وواقعاً عجز الفكر البشري عن تقديم منهج يوفر للإنسان سعادته وإنسانيته. ولم يبق أمام الإنسان سوى المنهج الإلهي طريقاً للخلاص مما يتخبط فيه من بؤس وضياح. إن الفكر الإلهي الذي أنزله الله من خلال الأنبياء. ثم أتمه كاملاً متكاملًا برسالة أعظم الأنبياء وخاتمهم محمد بن عبد الله ﷺ. هو المنهج الذي يوفر للإنسان الفلاح دنيا وآخرته ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١).

ثم كانت ولاية الإمام علي عليه السلام وبها تم الإسلام وكمل، قلنا ورأينا بالبرهان أن العقل البشري محدود وجاف وعاجز. أما الفكر الإلهي فلا حدود له طاقة وزماناً ومكاناً، فهو وفي كل زمان ومكان وإلى أن يشاء الله، يعلم الإنسان أن الله تعالى خلقه في أحسن تقويم. وأن حياته ليست محدودة بما يعيشه على الأرض، بل هي ممتدة عبر

(١) المائدة / ٣.



الزمان والمكان. لقد كان لك لقاء مع الله تعالى قبل أن تأتي إلى الأرض حيث كنت في عالم الذر، ومن هنا كان في جبلتك فطرة الاتجاه إلى الله، ومنذ طفولتك تتساءل وتساءل، فلا بد لكل سبب من مسبب، ولكل متحرك من محرك، ولكل مصنوع من صانع، فلا تجد أجوبة إلا في الإيمان بالله تعالى.

قال الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، إلا أن أبويه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه».



مراحل حياة الإنسان

إن حياتك أيها الإنسان تمر بمراحل أولها عالم الذر، ومنها تنتقل إلى مرحلة تكون فيها جنينا في بطن أمك. والله تعالى الذي خلقك خلق الأسباب والسبل التي توفر لك الطعام وأنت لا تزال في رحم أمك، فالفناء ينتقل من جسم أمك إلى جسمك عبر المشيمة التي خلقها الله وسواها بشكل ينقل إليك ما تحتاجه لحياتك ونموك، دون أي زيادة أو نقصان فإذا أنت بحاجة إلى أربع جزيئات من الحديد مثلا، فإن المشيمة تنقل إليك أربع جزيئات فقط، لأنها لو نقلت لك ثلاث جزيئات لما وفرت لك شروط نموك. ولو نقلت إليك خمس جزيئات لقتلتك فسبحان الله الذي خلق كل شيء بمقدار. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (١).

فهذه مراحل في حياة الإنسان أيضا. ثم يخرج الإنسان من بطن أمه إلى عالم تختلف مقاييسه عن مقاييس الرحم. إنها عوالم مختلفة المقاييس ينتقل عبرها الإنسان ابتداء من عالم الذر، مروراً بعالم الرحم فعالم الأرض فعالم البرزخ، وانتهاءً بعالم الآخرة حيث لا موت هناك أبداً. وحياة الإنسان على الأرض مهما طالت محدودة، قد تصل إلى مئة عام أو أكثر ولا زيادة على ذلك. أما في الحياة الآخرة فإن القبلة لإحدى حوريات الجنان تستغرق مئة عام لمقاييس الزمان في

(١) الزمر/ ٦.

عالم الآخرة. وهي مقاييس مختلفة كلياً عن مقاييس الزمان في الحياة الدنيا. ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(١).
﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٢).

وهذه حقيقة علمية تؤكد النظرية النسبية لأينشتاين. فمقاييس الزمان تختلف من كوكب إلى كوكب ومن مجرة إلى مجرة.

ورد في الأخبار أن الله متى حاسب العباد، وصار فريق منهم في الجنة، وفريق في السعير، يؤتى بالموت وينادي مناد قائلاً: «أطلوا يا أهل الجنة وانظروا الموت». أطلوا يا أهل النار وانظروا الموت» فيطل أهل الجنة ويطل أهل النار فينظرون إلى الموت. ثم يؤمر بالموت فيزول. فينادي جبرائيل قائلاً: يا أهل الجنة أنتم فيها خالدون، فلاموت بعد. ويا أهل النار أنتم فيها خالدون، فلا موت بعد فيفرح أهل الجنة فرحاً لو كان الموت موجوداً لماتوا من شدة الفرح. ويحزن أهل النار حزناً لو كان الموت موجوداً لماتوا من شدة الحزن.

إن المنهج البشري ظالم. أما المنهج الإلهي فلا ظلم فيه. وأنا أتحدى أن يتمكن أحد من تحديد آية واحدة في القرآن تشتم منها رائحة الظلم. وقل ذلك أيضاً بالنسبة لسنة الرسول وأهل البيت - عليهم السلام -. فالقوانين والشرائع الإسلامية قائمة على العدل لأنها من وحي الله العادل الذي لا يظلم أحداً. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٣).

(١) المعارج / ٤.

(٢) السجدة / ٥.

(٣) فصلت / ٤٦.

إن الظلم دليل على ضعف الظالم وخوفه والله تعالى عن الضعف والخوف. إن يزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف كانا ظالمين لأنهما كانا خائفين. وقل ذلك بالنسبة لسائر الظلمة والطفاة.

إن الله تعالى لم يخلقك ويتركك، بل شملك بعدله ورحمته ونعمه التي لا تحصى. كما حدد لك منهجك الذي فيه فلاحك. فاغتم شبابك قبل هرمك. واغتم صحتك قبل مرضك وسقمك واغتم غناك قبل فقرك، واغتم حياتك قبل موتك.
﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(١).

هذا التعبير غير موجود في الفكر البشري. في أوروبا عندما يعقدون عقد الزواج لا يقولون للرجل: «هذه الزوجة من نفسك». وفي آية أخرى يقول جل القائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٢).

لماذا المودة والرحمة؟ لتقوم الأسرة على أساس متين من التحاب والتعاطف وهما أساس المنهج الإلهي في بناء الأسرة والحفاظ عليها. كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز استكمالا لبناء الأسرة، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾^(٣).

فلو انتهى الكلام عند كلمة «بنين» لكان بناء الأسرة يقتصر على زوجين وأولاد. أما كلمة «حفدة» فقد وسعت مفهوم الأسرة ليشمل

(١) الشورى / ١١.

(٢) الروم / ٢١.

(٣) النحل / ٧٢.

بالإضافة إلى الزوجين وأولادهما الجدود والجَدات، فجمع بذلك بين وقار الشيوخ وتجربتهم، وبراءة الأطفال وقلة معرفتهم بالحياة. ولكن، ومع الأسف الشديد، نلاحظ أن المفاهيم الغربية طغت على معظم شبابنا، فما إن يتزوج حتى يعلن استقلاله عن أهله استقلالاً تاماً ناجزاً. وإذا حدث وبقي مع أهله، فإن بعض الحموات من قصيرات النظر اللواتي لم يتربن تربية إسلامية صحيحة ينشطن لتهديم الأسرة الجديدة، فيبدأن على افتعال المشاكل مع الكنات وتحريض أزواجهن على تطليقهن، حتى إذا استجاب الزوج لتحريض أمه وتزوج امرأة أخرى عادت أمه الجاهلة إلى سيرتها مع الكنة الأولى. ولذلك فإن شروط العروس مدعومة من أهلها هي الاستقلال عن أهل العريس. وهذا كله مناف لمفهوم الأسرة الإسلامية بالمعنى الذي قصده القرآن الكريم.

فما أجمل وأسعد أسرة يملأ جوها جد وجدة بصلاتهما وأدعيتهما وقراءتهما القرآن. بينما يملأ الأطفال جوها بالبراءة والحبور ثم تكتمل السعادة عندما يعمل الابن بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (١).

(١) الإسراء / ٢٣-٢٤.

* التربية الصحيحة المشمولة برحمة الله:

ما معنى قوله عز وجل «وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا»؟
معناه عندما تربي أولادك تربية صحيحة تكون مشمولا برحمة الله.
إذن أحسن تربية أولادك يرحمك الله. يقول الرسول ﷺ: «يا علي، لعن الله أبوين حملا ولدهما على عقوقهما». فالأبوان اللذان لا يحسنان تربية أولادهما ملعونان لأنهما دفعا أولادهما إلى العقوق بتقصيرهما وسوء فهمهما لواجباتهما. وكم من أب يعامل أولاده، ذكورا وإناثا، بغطرسة وفضاظة يصلان إلى حد التسلط الأعمى. ولا يفعل ذلك إلا جاهل، والجهل بلية ما بعدها بلية، فلو أن صاعقة أحرقت الإنسان لكان ذلك خيرا له من كونه جاهلاً. والأمية أهون من الجهل لأنها تعني ذهننا فارغا وما على المرشد العالم إلا أن يملأه بالمفاهيم السليمة والمعادلات الصحيحة. أما الجهل، والعياذ بالله، فإنه يعني ذهناً ممتلئاً بالمفاهيم العوجاء والمعادلات المغلوطة. فالأب الجاهل يدمر أسرته من حيث لا يدري، إذ إنه بتسلطه الذي يقارب العدوان أحيانا كثيرة، ينفر الزوجة ويشوه نفسية الولد. والله وحده يعلم، كم من الرسائل تأتيني يوميا. وكلها شكوى وآلام ودموع وأحزان سببها جهل الأبوين بحقوقهما وواجباتهما.

إن الزواج رباط مقدس. وإن الأسرة أمانة إلهية في أعناقنا فعلينا أن ندرك ما لنا وما علينا فنكون بذلك جديرين بالانتماء إلى الدين الإسلامي العظيم.

يقول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.



ويقول الرسول ﷺ: «إذا رفع الرجل يده ليلطم زوجته رفعت له يد في النار» ومع ذلك نجد بعض الأزواج الشرسين المستبدين لا ينفكون يضربون زوجاتهم ويشتمونهن. إن الضرب والشتيمة يخلفان زوجة نافرة وأطفالا معقدين نفسيا. وبيت رجل يسوس أسرته بالضرب والشتيمة بيت واهن متداع إلى السقوط ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

فالعنكبوت تقتل زوجها وتبقى تتربص الدوائر بأي زوج يقترب من بيتها، وهكذا فإن بيت العنكبوت في ملحمة دموية دائمة. فأي إنسان عاقل يرضى بأن يكون عنكبوتا؟ أي إنسان عاقل يقدم على تحويل بيته إلى بيت عنكبوت؟ يقول الرسول ﷺ ما معناه: إن الإنسان الذي يدخل إلى بيته بالحديث الشيق مع زوجته وأطفاله وبالأخلاق الحسنة في معاملتهم يرتفع إلى مستوى الشهداء والمجاهدين في سبيل الله.

وكثير من الأزواج الذين تردني الرسائل بشأن فظاظتهم وشراستهم مع أزواجهم وأولادهم، يتذرعون بأسباب شتى ليبرروا ضيق صدرهم وسوء معاملتهم لأزواجهم وأولادهم. وهذا يتذرع بالسكري، وذاك يتذرع بالضغط، وثالث يتذرع بضيق ذات اليد. إن هي إلا ذرائع واهية، فالله قادر على رفع بلاء المريض ورزق الفقير. وسياسة الضرب والشتم لا تشفي مريضا ولا ترزق فقيرا. بل العكس هو الصحيح، فالذي يضرب ويشتم لأنه غضب. تزداد نسبة السكري في دمه ويزداد معدل

(١) العنكبوت/ ٤١.

ضعفته فيزداد مرضاً على مرض. أما إذا كان فقيراً فإن من شأن طباعه الفظة أن تسد عليه أبواب الرزق فيزداد فقراً على فقر أليست مصيبة كبرى أن لا يسمع الابن ولا الابنة كلمة حلوة من فم الأب؟ إذا كان لا يجوز للإنسان أن يكون فظاً غليظ القلب مع الغرباء فهل يجوز أن يكون كذلك مع أهل بيته. إن الله تعالى يخاطب رسوله الأعظم ﷺ بالقول ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (١).

وكم يبدو غريباً ذلك الإنسان الذي يتسع صدره وتطول أناته مع الغرباء، بينما يضيق صدره وتقصّر أناته مع أهل بيته! فليترك الزوج الله في زوجته وأولاده. وإذا ما انزلق إلى شتم أحدهم أو ضربه فليستغفر الله وليتب إليه.

قال الرسول ﷺ لأم سعد: «إن سعداً أصابته ضمة». وهو يعني أن القبر عصره. لماذا؟ لأن في أخلاقه، في البيت، سوءاً فلنحسب لضمة القبر حساباً في كل ما نقوله ونفعله.

إن القرآن يطلق على منهج الفكر البشري تسمية «الباطل» ويطلق على منهج الفكر الإلهي تسمية «الحق». ويقول ذلك: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾!

فهل يجوز لعقل أن يؤمن بالباطل ويكفر بنعم الله ومنهجه؟
أسأل الله تعالى التوفيق للمسلمين جميعاً بحق محمد وآله الطيبين الطاهرين.

(٢) آل عمران / ١٥٩.

* الحياة ظل زائل فتزودوا للآخرة:

أيها الإخوة، إن الدنيا فانية، والحياة فيها ظل زائل. يقول أبو العلاء المعري:

غير مجد في ملتي واعتقادي	نوح باك ولا ترنم شـاد
وشبيه صوت النعي إذا قيد	س بصوت البشير في كل ناد
أبكت لكم الحمامة، أم غنت	على فرع غصنها المياد؟
صاح هذي قبورنا تملأ الرحب،	فأين القبور من عهد عاد؟
خفف الوطء ما أظن أديم	الأرض إلا من هذه الأجساد
ودفين على بقايا دفين	من طويل الأزمان والآماد
رب لحد قد صار لحداً مراراً	ضاحك من تراحم الأضداد
سر إن استطعت في الهواء رويداً	لا اختيالا على رفاة العباد
ضجعة الموت رقدة يستريح	الجسم فيها، والعيش مثل السهاد

يذكرنا هذا الشعر بموقف للإمام الهادي عليه السلام. فقد دخل ذات يوم على الخليفة العباسي المتوكل وكان عاتياً سكيراً عن له أن يستدعي الإمام الهادي من سامراء. فحضر الإمام علي عليه السلام إلى بغداد، ولما استقبله المتوكل قدم له الخمرة. فقال الإمام عليه السلام «الله يعلم أنها ما خالطت لحمي ودمي أبداً». فقال له المتوكل: «هل تحفظ شيئاً من الغناء؟». فقدر الإمام عليه السلام الموقف وقال: نعم، أحفظ شيء من الشعر» قال المتوكل: «قل مما حفظت». فقال له الإمام: أيها المتوكل: «إن الملوك الذين كانوا قبلك بنوا لأنفسهم قصوراً على قلال الجبال (أي على قمم

الجبـال)، هربـا من الموت. ومع ذلك فقد هجم الموت عليهم فانتزعهم من قصورهم ومن أحضان أهليهم وأنزلهم في القبور».

بعد هذه المقدمة التي تتناسب بقوتها مع طيش المتوكل قال الإمام عليه السلام من نظمه:

باتوا على قلل الجبال تحرسهم	غلب الرجال فما أغنتهم القلـل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم	وأودعوا حضرا، يابئس ما نزلوا
ناداهم وصارخ من بعدما قبروا	أين الأسيرة والتيجان والحلل؟
أين الوجوه التي كانت منعمة؟	من دونها تضرب الأستار والكلـل
فأفصح البقر عنهم حين ساء لهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
وطالما أكلوا دهرا وما شربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
أضحت مساكنهم قفرا معطلة	وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

اضطرب المتوكل العباسي، وبكى سائر الحضور وذكروا الله واستغفروه. فمن صفات المؤمن إذا حضر مجلسا يذكر بالله أن يذكر الله سبحانه وتعالى. جاء في الأثر: «ما اجتمع اثنان أو أكثر من الناس في مجلس، ولم يذكروا الله، وإلا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة». فيجب على الإنسان المؤمن أن لا ينسى ذكر الله واستغفاره، وطلب رحمته والتوبة إليه. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

ولئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس.

(١) التوبة / ١١٨.

فلنتوجه إلى الله تعالى قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٢).

إن الله سبحانه وتعالى هو الوهاب والمعطي بغير حساب. وأهل البيت - عليهم السلام - هم وسيلتنا إلى الله عز وجل. ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (٣).

فلنسأل الله بحق محمد وآل محمد الفرج والشفاء والرزق والتوفيق والسلام لكل الناس. إنه هو السميع المجيب.

* الإيمان والتوجه إلى الله يطهران النفس:

كان الرسول ﷺ جالسا في مسجده فقال: «يدخل علينا الآن رجل من أهل الجنة».

وبعد لحظات دخل أعرابي أسبغ الوضوء إذ كان الماء لا يزال يقطر من وجهه ويديه - من المستحسن إسباغ الوضوء وعدم تشييف اليدين والوجه من مائه لأنه ينشط خلايا اليدين والوجه علما بأن تشييفهما لا إشكال فيه - فلما خرج من المجلس تبعه الصحابي عبدالله بن عمر وقد

(١) البقرة / ٢٨٦.

(٢) آل عمران / ٨.

(٣) المائدة / ٣٥.



لاحظ الأعرابي: ذلك فالتفت إلى عبدالله وسأله قائلاً: «ما عندك يا هذا؟» فقال عبدالله، «لقد حدثت مشادة بيني وبين أبي وأحب أن أبيت الليلة عندك».

قال الأعرابي: «تفضل، على الرحب والسعة». يقول عبدالله بن عمر: دخلت إلى بيته فأحسن ضيافتي، وبعد العشاء فرش لي فراشا لأنام. لم أنم بل بقيت سهران لأرى ما يفعل في الليل. لقد آوى إلى فراشه ونام حتى منتصف الليل حيث نهض وأسبغ الوضوء ثم استغرق في صلاة الليل. بعد أن أتم صلاة الليل عاد! فنام حتى حان موعد صلاة الصبح، فهب من فراشه ثم أسبغ وضوءه وصلى صلاة الصبح ثم عاد إلى النوم بعد أن قرأ ما تيسر من القرآن وقد بقيت عنده ثلاث ليال لم يزد على ما رأيته منه في الليلة الأولى شيئاً. وهو ما يعمل كل مسلم محافظ على صلاته. (علما بأن لصلاة الليلة أهمية خاصة. قال الرسول ﷺ للإمام علي عليه السلام يا علي. عليك بصلاة الليل فإنها شرف المؤمن». وقد سألوا الإمام زين العابدين عليه السلام فقالوا: «يا بن رسول الله. ما بال المتجهدين في الليل لهم نور يشع على وجوههم؟» فقال الإمام عليه السلام: «لأنهم خلوا بربهم فكساهم من نوره».

نعود إلى خبر الأعرابي وعبدالله بن عمر. يقول عبدالله بن عمر: بعد أن راقبته لثلاث ليال قلت له: يا فلان، لقد شهد الرسول بأنك من أهل الجنة، فأني عمل قمت به حتى استحققت الجنة؟ قال الأعرابي: «لا أقوم بغير ما رأيته عليه» قلت: بالله عليك إلا ما أخبرتني!! قال الأعرابي: بماذا أخبرك غير ما تراه؟ أخلاقي طيبة مع أهل بيتي وجيرانني وسائر الناس، كما أنني ملتزم بصلاتي، ولا شيء غير ذلك.



فقلت ملحا: بالله عليك أخبرني، فلربما تميزت بخلقة تضررها في قرارة نفسك؟ قال: «يا بن عمر، إنك تسألني عن هذا الجانب، فإنني والله الذي لا إله غيره. ما حسدت أحدا قط، وما حملت حقدا على أحد قط، وإذا رأيت أخي ففي نعمة سألت الله أن يديمها عليه. لذلك، على ما أعتقده استحققت الجنة.

أيها الإخوة والأبناء

نستنتج ممن خبر عبدالله بن عمر والأعرابي أن الأعرابي استحق الجنة بحسن خلقه وصفاء قلبه وسلامة نيته أي بصورته النفسية. فلكل امرئ صورتان: ظاهرية هي الخلق وتتمثل في تكوينه الفيسيولوجي وجها وبدنا. وصورة باطنية وهي الخلق وهي تتمثل في جملة الصفات النفسية التي يتصف بها. والإنسان إنما يسعد وينتصر بصورة نفسه وليس بصورة وجهه. مثال بسيط أضره لكم، تصوروا شابا ممشوق القامة وسيم الوجه ولكن صورته النفسية بشعة، فهو مجرم خائن، سكير متآمر، يوزع المخدرات ويدمن عليها، يلاحق النساء ليهتك أعراضهن، فهل هناك من يحترم شابا كهذا؟ وما قيمة الوجه الوسيم الذي يخبئ وراءه نفسية موبوءة بكل تلك الرذائل؟ وما أشبه بمهد جميل فيه طفل مشلول؟ ما أشبه بقصر فخم تجري من تحته الأنهار تغرد البلابل على دوحه، ولكن صاحبه أحمق أهوج. فهل ينشد الناس لحظة الطمأنينة في قصر فيه أحمق أهوج. إذن، وبمقاييس السعادة الحقيقية القائمة على قيم خلقية، لا قيمة للصورة الظاهرية. بل القيمة كل القيمة للصورة الباطنية، للنفس وما فيها من إيمان بالله وتوجه إليه. وبالإيمان والتوجه إلى الله تظهر النفس من جميع الأدرا

والرذائل كالكذب والنميمة والغيبة والنفاق وسائر الرذائل التي تدمر المجتمع. فالنمام مثلاً مشاء بالفتنة دأبه بذر الشقاق بين الناس وصولاً إلى تمزيق العلاقات الأسرية والاجتماعية ولذلك فإن النمام لن يذوق طعم الجنة أبداً. وقل ذلك بالنسبة للكذاب والمنافق، والمفتري والمفتاب وشاهد الزور، والحسود والحاقد، وغيرهم من مشوهي النفوس. يقال: «إن المؤمن مرآة أخيه. ولذلك يجب أن تكون تلك المرآة صافية لتعكس عليها الصورة صافية وواضحة».

وخلاصة القول، ثمة منهجان: منهج بشري ينتجه العقل البشري، وهو محدود وعاجز وغليظ، ولذلك يجب أن نبتعد عن منهجه. ومنهج إلهي يفيض عن الفكر الإلهي وهو غير محدود ولا يدركه إلا من استجاب لدعوات الأنبياء والرسل عليهم السلام. فعلينا، وحرصاً على الفلاح دنيا وآخرة أن نتشبث بالمنهج الإلهي ونسير عليه.

* الدنيا مزرعة الآخرة:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾^(١).

لاحظوا دقة التعبير الإلهي. فكل ما تملك من قوة ومال وطاقة إنما هو من الله. ولكن كيف تستخدم وتوظف قوتك ومالك وطاقتك؟ ألدنيا وهي دار الفناء أم للآخرة وهي دار البقاء؟ إن الفكر الإلهي يوضح لك الطريق «وابتغ فيما آتاك الدار الآخرة». ثم يقول جل القائل في نفس

(١) القصص / ٧٧.



الآية: «ولا تتسى نصيبك من الدنيا». فאלله تعالى لا يحرم عليك طيبات الدنيا. والإمام علي عليه السلام إذ يقول: «الدنيا جيفة وطلابها كلاب». إنما يتوجه بقوله إلى أولئك الذين يتكالبون على الدنيا وينسون دينهم لاستغراقهم في دنياهم. وفيما عدا ذلك فإن الدنيا مزرعة الآخرة، فما تزرعه هنا تحصده هناك.

والزهد لا يعني أن لا تملك سيارة أو بيتا أو أموالا، الزهد هو أن لا تسمح للدنيا أن تملكك. وما أروع قول الإمام علي عليه السلام: «ليس الزهد ألا تملك شيئا بل الزهد ألا يملكك شيء». لأن الذي تملكه الدنيا بمائها وطيباتها تصرفه وتبعده عن المنهج الإلهي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإنفاق في سبيل الله. إن الذي يقع أسيرا للدرهم والدينار يفقد حريته وكرامته، ويتملكه الطمع وحب المال، ويصبح همه جمع المال ومنع إنفاقه، فهو تبعا لذلك لا يؤدي حقوق الله ولا حقوق العائلة ولا حقوق الناس. والنتيجة واضحة، فإن المتكالب على الدنيا يخسر الدنيا والآخرة.

ثم تتابع الآية الكريمة القول: «وأحسن كما أحسن الله إليك». فكما أحسن الله إليك فرزقك القوة والطاقة والمال، عليك أن تحسن إلى عباده. والإحسان يرفع المحسن إلى مصادف الشهداء والأبرار.

«ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين» أي لا توظف ما وهبك الله من مال وقوة وطاقة في الفساد. فإن المفسدين أعداء الله.

أيها الإخوة والأبناء

إن وجود الإنسان رحلة تبدأ من الله وتنتهي إليه. فمنه البداية وعنده النهاية، فكل إنسان صائر إلى الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (١).

ويوم اللقاء ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَازِرَةٌ﴾ (٢).

يعني ناظرة إلى عظمة الله ورحمته وحكمته.

* ومثلي لا يبايع مثله:

أراد أحد الإخوة أن يسمعي شريط كاسيت، وقد سجّلت على هذا الشريط خطبة لأحدهم يتحدث فيها عن يزيد بن معاوية وأنه من المبشرين بالجنة!! فأَيُّ بليّة أعظم؟ لم يبق أمام الفاسدين المفسدين إلا أن يوجهوا الشباب في طريق يزيد ويخطبون فيهم أن يزيد مبشّر بالجنة. نعم هناك إنسان يخطب ويقول إن يزيد في الجنة!. في الحقيقة كثيرا ما يصادف الإنسان أقوالاً وأفعالاً لا يجد لها تفسيراً. إن الخيال لعاجز عن تصور المستوى الذي انحط إليه إنسان يمتدح يزيد. ألا يخجل هذا من رسول الله؟ الحسين ابن رسول الله وحبيبه. يزيد قتل الحسين عليه السلام، ودكّ الكعبة بالمنجنيق، وأباح مدينة الرسول ﷺ ثلاثة أعوام هتك فيها الأعراض وسفك الدماء!! إذا كان يزيد من

(١) الانشقاق / ٦.

(٢) القيامة / ٢٢-٢٣.

أهل الجنة. فإننا لانريد أن نكون معه ولو في الجنة. بالله عليكم أيها المسلمون، أليست مهزلة المهازل أن يقوم خطيب ليتحدث عن فضائل يزيد ويكذب على نفسه وعلى الناس فيزعم أن يزيد من المبشرين بالجنة؟! إن هذا الخطيب وأمثاله من مزوري التاريخ كارثة مابعدھا كارثة. إن هؤلاء سوس خبيث ينخر في جسم المجتمع الإسلامي إنهم يضلّون الشباب ويفرقون كلمة المسلمين. يتحدثون، وبعين لا تستحي، عن فضل يزيد وفضائله. يزيد هذا الفاسق الفاجر الوالغ في دماء أهل البيت. يزيد الخمر والفجور والفحشاء والمنكر والبغي وقد وصفه الإمام الحسين عليه السلام بأنه فاسق فاجر قاتل للنفس التي حرّم الله. وقال فيه «ومثلي لا يباع مثله». فهل يكون يزيد هذا من المبشرين بالجنة؟

ولا يقف ذلك الخطيب فضّ فوه عند هذا الحدّ، بل يصل به الافتراء إلى حد القول أن الشيعة هم الذين قتلوا الإمام الحسين عليه السلام وبكوا ويبكون عليه كيف يبكي القاتل على من قتل؟ كيف يبكي الشيعة على الحسين وقد قتلوه؟! لقد أجاب الإمام الحسين عن هذا السؤال حين قال: «يا شيعة آل أبي سفيان. إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم».

صحيح والله أن الشيعة هم قاتلوا الحسين عليه السلام ولكن أيّة شيعة؟ الحسين عليه السلام يقول: شيعة آل أبي سفيان، شيعة معاوية، شيعة يزيد هم الذين قتلوا الحسين عليه السلام.

أيها الإخوة والأبناء.

من المؤسف جداً أن نسمع بين حين وآخر بعض الصيحات المفروضة التي ترتفع هنا وهناك وهدفها الأول والأخير تمزيق المسلمين وبث

الفرقة في صفوفهم. فعلينا أن ننتبه إلى تلك الأصوات ونحذرنا علينا أن نعرف كيف نحافظ على وحدة المسلمين، فلا نسمح لأولئك الذين لا ينفكون يزورون التاريخ ويحيكون الدسائس، ولو أن كل الخطباء والعلماء في مختلف الطوائف والمذاهب الإسلامية اجتمعوا على مائدة الإسلام الصحيح، لجمعوا كلمة المسلمين. ونحن إذ نخطب على المنابر والعلماء في مختلف الطوائف والمذاهب الإسلامية اجتمعوا على مائدة الإسلام الصحيح، لجمعوا كلمة المسلمين. ونحن إذ نخطب على المنابر إنما نضع نصب أعيننا هدفاً أساسياً ومركزياً هو جمع كلمة المسلمين والدعوة إلى وحدتهم، لأنهم ماداموا متفرقي الكلمة لن يعودوا إلى سالف عزتهم وكرامتهم، ولن يحققوا أي تقدم، وبالتالي لن ينهضوا مما هم عليه من تخلف وتعثر.

* البكاء يدل على عظمة الإنسان:

لماذا نبكي على الحسين عليه السلام أيها الإخوة؟ أليس الحسين عليه السلام في الجنة؟ لماذا نبكي عليه وكأننا لانعرف أنه في الجنة؟ وكأن رسول الله صلى الله عليه وآله بكى ولده إبراهيم لأن إبراهيم في النار وليس في الجنة، فهل هذا صحيح؟ لماذا كان الرسول صلى الله عليه وآله يبكي على الشهداء وهو يعرف أنهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١).

ويوم استشهد حمزة بن عبدالمطلب. وهو عم الرسول صلى الله عليه وآله ألم يقل

(١) آل عمران/ ١٦٩.

الرسول ﷺ : «أما عمي حمزة فلا بواكي عليه». فاجتمعت بنات عبدالمطلب وأخذن يبكين على أخيهن ، ووقف الرسول ﷺ يبكي معهن ولما انتقل الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى حزنت ابنته الزهراء عليها السلام حزناً شديداً فكانت تبكي عليه ليلاً ونهاراً. فطلب إلى الإمام عليّ أن يمنعها من البكاء أو على الأقل أن تبكي في الليل أو في النهار فقط. إن ذهاب شخص إلى الجنة شيء، وبكاءك عليه شيء آخر. لأن البكاء تعبير عن مشاعرك نحو ذلك الشخص وعن علاقتك به. البكاء يدل على رقة القلب ورهافة الحس وأصالة الخشوع. ألم يكن يعقوب نبياً معصوماً؟ ومع ذلك فقد بكى على يوسف حتى ابيضت عيناه وذهب بصره ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١).

إن الله تعالى يمدح يعقوب لأنه كان من البكائين. فالبكاء علامة المؤمن وهو سلاح الإنسان ضد اليأس والقلق والتشاؤم. جاء في الأثر «إرحم من رأس ماله الرجاء وسلاحه البكاء». إن البكاء هو الذي غذى الأمل في نفس يعقوب وجعله أكبر من الجبال. قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢).

فالذي يحفظ الأمل حياً في القلب، في حالات الحزن الشديد، هو البكاء فالدمعة التي تسيل بسبب البكاء تدل على صدق العاطفة وصفاء الضمير ورقة الفؤاد، والإنسان الذي يتصف بهذه الصفات

(١) يوسف / ٨٤.

(٢) يوسف / ٨٧.

إنسان عظيم. كان الإمام عليّ عليه السلام غزير الدمعة، كان يصعد إلى المنبر ويقول: أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا إلى الحق؟ أين عمّار بن ياسر؟ أين ابن التّيهان؟ وأين ذو الشّهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية؟ وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟ ثم يضرب بيده على لحيته الكريمة ويفرق في البكاء طويلاً.

ومع ذلك كله يطلع علينا بين حين وآخر من يتفلسف فلسفة فارغة فيجترح آراء لاتمت إلى الفكر الإسلامي بصلة إن عدم الرد على هذه الآراء هو الموقف الذي تستحقه.

* هذه أخلاقنا وآدابنا:

يجب أن يقوم المجتمع الإسلامي على المحبة والترابط الأخوي، حتى إذا كان هناك مشرك يعيش بين المسلمين أحسنّ بالتواد والتعاطف فيما بينهم. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (١).

هذه هي أخلاقنا وآدابنا.

كان الإمام عليّ عليه السلام ذات يوم يقصد الكوفة يرافقه في الطريق يهودي لا يعرف الإمام عليه السلام قال اليهودي سائلاً الإمام عليه السلام: «إلى أين يا أخا العرب؟». قال الإمام عليه السلام: «إلى الكوفة»، وأنت إلى أين؟. قال اليهودي: «إلى اليمن» وتابعا السير. فلما وصلا إلى مفترق الطريق الذي يؤدي إلى الكوفة، لم يسلك الإمام عليه السلام طريق الكوفة بل سار مع

(١) التوبة/ ٦.



اليهودي على الطريق المؤدية الى اليمن . وكان عليه السلام لا يكف عن مؤانسة اليهودي. التفت اليهودي إليه وقال: «يا عبد الله، يا أخا العرب. ألم تقل لي إنك تقصد الكوفة؟!» قال الإمام عليه السلام: بلى. قال اليهودي: إذن لماذا جئت معي وأنا أقصد اليمن؟ قال الإمام عليه السلام: هكذا أدبنا الله وأدبنا الإسلام؟ قال اليهودي: هذه أخلاق عظيمة جداً. أهذا هو الإسلام؟ «قال الإمام عليه السلام: بلى. هذا هو الإسلام». قال: اليهودي: إذن هل يمكن أن أكون مسلماً؟. قال الإمام عليه السلام: نعم» قال اليهودي: كيف يكون ذلك؟ قال الإمام عليه السلام: تشهد الشهادتين» تشهد اليهودي معلناً إسلامه وعاش بعدها ملتزماً بالإسلام شديد التعلق به.

إن حق الصحبة في الطريق وما تستوجبه من مؤانسة خلق إسلامي والإمام علي عليه السلام كان مثلاً أعلى في الأخلاق الإسلامية.

* الإمام الحسين عليه السلام أعظم من سار في طريق المنهج الإلهي:

إننا نعتز بالذين ساروا على طريق المنهج الإلهي ونحيي ذكراهم ولا شك أن أعظمهم شأنًا سيد شباب أهل الجنة أبو عبد الله الحسين صلوات الله وسلامه عليه لماذا يعتبر الإمام الحسين عليه السلام أعظم من سار على طريق المنهج الإلهي؟ لأنه ضحى بكل مايملك في سبيل الله. ومصيبة الإمام الحسين عليه السلام فريدة في التاريخ. فلامثيل لها في كل ما حل بالأنبياء والأولياء والشهداء من مصائب إن ما حل بالإمام الحسين عليه السلام من مصائب لا يمر على قلب إنسان ولا يخطر على باله.

عندما دخل الإمام الحسين عليه السلام وصحبه ومن معهم من أطفال ونساء الكوفة، استقبلهم أهلها بالتمر والجوز، وقد صاحت العقيلة

زينب بوجه المستقبلين قائلة: «إن الصدقة علينا حرام». وتوالت الأحداث وكان ما كان في العاشر من محرم . وسبق أبناء وبنات رسول الله ﷺ إلى مجلس ابن زياد. وقبل وصولهم حدث ما تشعروا له الأبدان. كانت فاطمة الصغرى ورقية في محمل عمتهما العقيلة زينب ع، وكانتا طفلتين. والأطفال أول من يشعر بغياب الأب، حتى إذا ما عاد هرعوا لاستقباله والتعلق بأذياله. وكانت رقية متعلقة بأبيها الإمام الحسين ع تعلقاً شديداً فكانت لاتكاد تراه يتهاى للصلاة حتى تسرع إلى سجادة الصلاة فتحملها بيديها الصغيرتين وتفرشها أمامه. وكانت فاطمة لاتفك تسأل عمّتها عن أبيها الحسين ع وكانت عمّتها مستغرقة في خطبة تلقيها على الناس. وليقطع زبانية عبيد الله بن زياد خطبتها أخرجوا رأس الإمام الحسين ع حتى ينشغل الناس بالنظر إليه. فلما رأت فاطمة الصغرى رأس أبيها، أخذت تخاطب الرأس قائلة: «أبا عبدالله. كَلِّمْ فاطمة الصغرى كلمة واحدة، فإن قلبها يكاد يذوب». ويصرخ بقية الأطفال من المحمل:

عمّة زينب. هذا رأس أبينا الحسين، هذا رأس والدنا الحسين، وكل واحدة من بنات الإمام ع تريد أن ترتمي على الرأس الشريف وتقبله. وفجأة رأى الناس امرأة تلقي بنفسها على رأس الحسين فتحضنه وتأخذ في تقبيله وهي تبكي قال ابن زياد لزبانته: «أوسعوا المرأة ضرباً». فانهالوا عليها ضرباً بالسياط، وهي متشبثة برأس الحسين ع تقبله وتبكي تحت وابل من السياط. بعد ذلك أمر ابن زياد بعائلة الحسين ع فسُجنت. وهكذا ألقى في سجن الكوفة بالإمام زين العابدين وبالعقيلة زينب وبزوجة الحسين ع الريب

وبينات الحسين سكينه وفاطمة ورقية وبسائر أطفال الحسين وذرية النبي عليهم السلام وفي السجن علموا أن ابن زياد قد كتب في شأنهم إلى يزيد، وأنهم سيقتلون جميعاً إذا أمر يزيد بذلك، وإلا فسيساقون مكبلين بالأغلال إلى الشام. وفي الليل التفتت العقيلة زينب إلى امرأة تسيل الدماء من رأسها. فعرفت فيها المرأة التي احتضنت رأس الحسين قبله تحت ضرب الشياطين، فاقتربت زينب عليها السلام منها فتبين لها أنها الرباب زوجة الإمام الحسين عليه السلام والرباب ابنة ملك ومن أولادها سكينه وعبدالله الرضيع وهي إنسانة عظيمة. سألتها العقيلة زينب عليها السلام قائلة: يا أم عبدالله، يارباب. ما الذي دفعك لتلقي بنفسك على رأس الحسين وجعلك تتحملين كل ذلك الضرب على رأسك؟ فقالت الرباب: «أتذكرين يا زينب ساعة الوداع؟ أتذكرين لما جاء الحسين يودع العائلة؟ قالت زينب - ساعة الوداع؟ أتذكرين لما جاء الحسين يودع العائلة؟» قالت زينب عليها السلام: نعم، أذكر. قالت الرباب: «كل واحدة منكن قبلت الإمام الحسين، وكل الأطفال قبلوا الحسين، أما أنا فقد استحيت أن أقبله، فبقيت في قلبي حسرة. فلما رأيت رأسه ألقيت بنفسي عليه».

إنها والله مصائب يهتز لها العرش الإلهي! الرباب زوجة أبي عبدالله الحسين عليه السلام. هذه المنحدرة الحرة، تتلقى الشياطين على رأسها وسائر بدننها حتى تسيل دماؤها لذلك ولمثله بكى الإمام زين العابدين عليه السلام فامتزجت دموعه بطعامه وشرابه، فدخل عليه أبو حمزة الثمالي وقال له: «أخشى عليك ياسيدي أن تموت من كثرة البكاء والنواح. أليس القتل لكم عادة، وكرامتكم من الله الشهادة؟» قال الإمام زين العابدين

عليه السلام : «بلى يا حمزة، حشرك الله معنا، القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة ولكن يا أبا حمزة بالله عليك هل سبي النساء لنا عادة؟... يا أبا حمزة، هل ذبح الأطفال لنا عادة؟... هل حرق البيوت عادة؟... يا أبا حمزة، مامر عليّ يوم ذكرت فيه فرار أخواتي وعمّاتي في البیداء من خيمة إلى خيمة، ومن خباء إلى خباء إلاّ جرت دموعي». وكان عليه السلام يقول: إذا مررت على دور آل عقيل خنقتني العبرة لأنني لا أرى فيها إلا الأرامل واليتامى. وإذا مررت بدار أبي عبدالله الحسين سمعت فاطمة العليّة تدب أباهاً ندباً يفتت القلوب.

أيها الأخوة والأبناء

بالله عليكم هل سمعتم أو قرأتم عن مصائب تضاهي المصائب التي نزلت بالإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام بالله عليكم هل شهدتم مثيلاً لها؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* الإسلام يرفض الأباطيل:

يسألني الإخوان عن هذه الأوراق التي توزع في المجالس عن معجزة للسيدة زينب عليها السلام وقد زعمت فتاة مشلولة أنها رأتها في منامها. وأن السيدة قطرت في فم الفتاة أربع قطرات. ثم أمرتها أن تكتب هذه المعجزة ثلاث عشرة مرة على ثلاث عشرة ورقة. وتوزعها على ثلاثة عشرة شخصاً وكلّ شخص يكتب المعجزة على ثلاث عشرة ورقة ويوزعها وهكذا.. نحن أيها الأخوة والأبناء لانشك في كرامات أهل

البيت -عليهم السلام- ونؤمن أن الله سبحانه وتعالى يُجري على أيديهم الخير. ولكنّ الإسلام يرفض الخزعات والأباطيل.

هناك أناس معيّنون يروّجون لهذه الخزعات فيوزعون الأوراق في المجالس الحسينية ليبعدوا الناس عنها. فالتناس إذ يحضرون المجالس الحسينية إنما يحضرونها طلباً للعلم وإحياءً لذكرى أهل البيت -عليهم السلام- وهم إذ ينفضّون من هذه المجالس المباركة إنّما ينفضّون للسعي في مناكبها، فهل عندهم متسع من الوقت لكتابة مثل تلك الأوراق؟ أنا لا أنكر المعجزات والكرامات ولكنني أرفض الترهات والخرافات، وأولئك الذين يروّجون لها إنما ينفرون الناس من المجالس الحسينية. فاحذروهم ولا تسمحوا بتوزيع تلك الأوراق وأمثالها ممّا لا يرضي الله تعالى والرسول وأهل البيت -عليهم أفضل الصلاة والسلام- .



في الجوار والمجاورة

لقد هدموا قانون حقوق الجار

لفاطمة الزهراء -سلام الله عليها- نظرية متكاملة حول حقوق الجيران، وحسن المجاورة في الإسلام، فهي ترى أن المجتمع لكي يعيش في محبة وسلام، لا بدّ له من مراعاة الموازين الاجتماعية والمبادئ الأخلاقية التي تشدّ المجتمع برباط الإيمان والعمل الصالح.. ومن دون أخذ تلك الموازين بعين الاعتبار، يتحول المجتمع إلى عصف مأكول.. أو رماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

وأهم الموازين في إقامة المجتمع، هو ميزان حقوق الجار.. وحسن المجاورة في الإسلام. ففي بداية النظرية، تنقل فاطمة قول أبيها رسول الله ﷺ وهو يتحدث عن الجيران وحقوقهم في الإسلام، فيقول: «ما زال جبرائيل يوصيني بهم -أي بالجيران- حتى ظننت أنه سيورثهم» بمعنى يجعلهم قسماً من الورثة ثم تنطلق فاطمة الزهراء، في محاولة لتركيز نظرية الجوار في أذهان الناس، وإعطائها صورة واضحة لدى الجميع، حتى لا يتلكأ أحد في استيعاب هذه النظرية الاجتماعية التي تحفظ في خطوطها العريضة، حقوق الناس جميعاً، في العيش الكريم، في ظل مجتمع إسلامي يصوغ الأفراد، صياغة ربّانية، قمة في التربية وحفظ الجوار.

ولعلي لا أتجاوز الحقيقة.. ولا أعدو الواقع إذا قلت: إن نظرية الزهراء في المجاورة، هي فصل كامل من رسالة الإسلام تعتبر من أروع الفصول التي كتبتها الزهراء، في علم الاجتماع.

وأعترف أننا نتحدث الآن عن حقوق الجوار وحسن المجاورة، في الوقت الذي يعيش فيه العالم أقسى حالات القطيعة، وأمرّ ألوان المعاشرة، والمعاشية.. ليس فقط بالنسبة للجيران، وإنما بالنسبة للأفراد أيضاً بعضهم من بعض.

إن الحضارة المادية المعاصرة، هدمت هذا القانون، قانون حفظ الجوار.. فانهدمت بانهدامه كل أعمدة الأخلاق في المجتمع.. وانهارت قواعده من الأساس. بحيث أصبح الجار لا يسأل عن جاره حتى ولا مرة واحدة في فترة المجاورة.. التي قد تمتد فتأخذ العمر كله.. نعم، لا يسأل الجار عن جاره، لا في العمر، ولا في القبر..!.. وكأن كل جار يعيش في قارة غير القارة التي يعيش فيها الآخر!.

ذهب صديق مؤمن إلى أحد جيرانه في لندن. يحمل بيده هدية لهم، لأنه كان حديث عهد بالسكن المجاور لهم، فطرق الباب. وقال لهم: نحن في الإسلام، من أخلاقنا وعاداتنا حفظ الجوار، وحسن المجاورة، والتعرف إلى من يسكن في جوارنا، ولذا جئت إليكم لأفتح معكم باب التعارف والتعاون فيما بيننا.

وكم كان الموقف صعباً وقاسياً وثقيلاً عليه، وهو يسمعهم يردون عليه في غلظة ولا مبالاة قائلين: نحن لا يسرنا أبداً أن نتعرف إليك أو إلى أي جار يجاورنا.. ثم قالوا: انظر إلى هذه الدار، -وأشاروا إلى دار كانت ملاصقة لدارهم- إن فيها من يجاورنا منذ عشرات السنين، ولكننا لا نعرفه ولا هو يعرفنا.. لكل واحد حياته الخاصة، ثم أغلقوا الباب في وجه صديقنا المؤمن!.

وليس غريباً أن يصدر منهم مثل هذا الموقف ولا عجباً أن نسمع

منهم هذه الغلظة والقسوة.. فهم قد طلقوا الأخلاق، وسحقوا الإنسانية بأقدامهم منذ زمن طويل.. يوم استعاضوا عن مناهج الأنبياء بالرقص والغناء، فابدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار.. البوار في كل شيء.. فلا أخلاق، ولا عفة.. ولا كرامة، ولا شرف ولا مبادئ، ولا موازين كريمة يقوم عليها بناء المجتمع فمجتمعاتهم، باتت متأكلة، مهترئة تفوح منها رائحة العفونة والتخلف بفعل الفساد المدمر الذي يجتاحهم كإعصار مجنون. صحيح أنهم متقدمون في المادة.. في التكنولوجيا.. في صنع الأسلحة الفتاكة التي تهدد العالم بفتح أبواب الجحيم في الأرض، وصحيح أيضاً أنهم متقدمون في غزو الفضاء، وإرسال الناس إلى سطح القمر.. ولكن ما قيمة هذا التقدم، إذا كانت القلوب خاوية على عروشها من العمى؟

إن الحضارة المادية خلعت أجمل أثوابها على الحياة، ولكنها أهوت على كبد الحياة بطعنة صمء وحشية! فمن الأمام لمعت ثوبها، ومن الخلف أغمدت خنجرها بقوة وشراسة. وأين هذا من قول الحبيب المصطفى: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع» وأين هذا من قول فاطمة الزهراء: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره؟..

إن فاطمة الزهراء ضربت أروع الأمثلة في الحفاظ على بناء المجتمع الصالح، القائم على حسن الجوار، وأداء حقوق الجيران بعضهم لبعض... فتراها تارة تطرق أبواب الجيران باباً باباً فتوزع عليهم الطعام، والكساء والمال والدفن.. وتارة تقوم في محرابها تصلي من أول الليل إلى عمود الصبح فلا تدعو لنفسها وإنما تدعو لجيرانها بإلحاح ودموع وقلب كبير.. وحين يسألها ولدها الإمام الحسن عن

سبب انشغالها بالدعاء للجيران دون نفسها، تجيبه بقولها: الجار ثم الدار.

أجل.. لقد كانت فاطمة توزع الطعام على الجيران حتى يشبعوا.. وكانت لا تضع لقمة في فمها وأطفال جيرانها في جوع.. بل كانت تقدم الطعام لجيرانها أولاً ثم تبدأ هي بالأكل ثانياً، كما ورد في سيرتها الذاتية، وأكثر من ذلك، كانت تعود مرضاهم، وتقضي حوائجهم فيأنس الضعفاء بقربها.. ويرتاح الأيتام في ظلها.. حتى لم يعد بيت في المدينة، فيه يتيم أو أرملة، إلا وفاطمة تطل عليهم بين الحين والحين جالبة معها من الطعام ما لذ وطاب. ومن المتاع ما خف وزنه، وثقلت قيمته.

روى الزمخشري في الكشف عند قصة زكريا ومريم -عليهما السلام-، عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه جاع في زمن قحط فأهدت له فاطمة رغيفين وبضعة لحم أثرته بها.. فرجع بها إليها، وقال: هلمي يا بنية، وكشف عن الطبق، فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً، (فبهتت) وعلمت أنها نزلت من الله سبحانه وتعالى، فقال لها: أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال: الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل.. ثم جمع رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، والحسن والحسين وجميع أهل بيته رضي الله عنهم، حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو وأوسعت فاطمة جيرانها^(١). بمعنى أنها قامت بتوزيع أطباق الطعام على كل جيرانها حتى أوسعتهم أي لم تبق منهم أحداً.

(١) فاطمة الزهراء قدوة وأسوة ص ٥٥ للسيد المدرسي وفاطمة الزهراء لتوفيق أبو علم ص ١٣٠ والزمخشري في الكشف.

وإذا كان القرآن الكريم، يتحدث عن مريم بنت عمران، فيقول: كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١).

أقول إذا كان هذا هو منطق القرآن عن مريم ابنة عمران، فما بالكم بفاطمة بنت محمد -صلوات الله عليها- وعلى أبيها وبعلمها وبنيتها؟

إن القصص التي تحدثنا عن فضائلها كثيرة لا نكاد نحصيها وذات مرة وقفت فتاة على باب فاطمة تطلب ثوباً، وكانت الفتاة من جيران فاطمة، وكانت تبدو عليها رقة الحال فما كادت فاطمة تسمع صوت الفتاة الفقيرة، حتى أسرع وأخرجت لها أحسن ثيابها وأجودها، وأعطتها لتلك الفتاة.

وهنا يجدر بنا أن نقف لحظات لنأخذ الدرس العظيم من الزهراء في التربية، والتضحية والفداء.. إنها تعلمنا كيف نربي أنفسنا على العطاء.. وذلك أنها أعطت أحسن ثيابها.. وهذا يعني أن فاطمة أعطت الفتاة، الثوب الذي تحبه وليس الثوب الذي لا ترغب فيه.

أجل.. إن الزهراء -سلام الله عليها- تعلمنا أن العطاء الصحيح، هو الذي يترك أثراً تربوياً في المعطي بقدر ما ينفع السائل.. ولذا حين سألها أبوها النبي ﷺ عن السر الذي دفعها لأن تجود بثوبها الجديد، أجابت بقولها: لقد تذكرت قول الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (٢).

(١) آل عمران/ ٣٧.

(٢) آل عمران/ ٩٢.

ولأنني أحب الثوب الجديد فقد أعطيتها إياه، لأطبّق قول الحق سبحانه وتعالى.

أجل.. إنه لا يكفي أن تعطي من مالك شيئاً للمحتاجين، وإنما لا بد أن يكون ذلك الشيء الذي تريد أن تعطيه في سبيل الله، لا بد أن يكون من أحب الأشياء إلى قلبك.. وبالمثل إذا كان لديك ثوبان أحدهما أجداً من الآخر، وجاءك شاب فقير في حاجة إلى ثوب فأَيُّ الثوبين يكون أحق بالعطاء؟ لا شك أن الثوب الجديد المفضل هو الذي يجب أن تدفعه للشاب الفقير المحتاج لماذا؟ حتى يترك أثراً تربوياً في داخلك فكل عطاء لا يترك أثره التربوي في نفس الإنسان، يكون مرفوضاً في الشكل والأساس في نظر فاطمة الزهراء، -سلام الله عليها-..

ونفس الصنيع صنعه علي أمير المؤمنين مع خادمه قنبر، وذلك عندما ذهب إلى السوق فاشتري ثوبين، حيث أعطى الثوب الأكثر حسناً وجدة لقنبر، بينما اكتفى هو بالثوب الأقل حسناً، حيث احتفظ به لنفسه.. ولما سأله قنبر عن ذلك؟ أجابه الإمام بقوله: «أنت شاب ولك شره الشباب..» لاحظوا الدقة في التعبير، إنه يفضل العطاء، ويؤثره على نفسه بالثوب الجديد لأنه شاب، والشباب حالة خاصة تقتضي الزينة أكثر من غيرها.

يقول الإمام الحسن -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام-: رأيت أُمي فاطمة عليها السلام قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تزل راکعة، ساجدة، حتى اتّضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين، والمؤمنات وتسميهم، وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء!، فقلت لها: يا

أُمَاهُ لَمْ لَا تَدْعِينَ لِنَفْسِكَ كَمَا تَدْعِينَ لِفَيْرِكَ؟ فَقَالَتْ: «يَا بَنِي! الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ»^(١).

وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يقول: «كانت فاطمة عليها السلام إذا دعت، تدعو للمؤمنين والمؤمنات، ولا تدعو لنفسها.. فقل لها: يا بنت رسول الله، إنك تدعين للناس، ولا تدعين لنفسك، فقالت: «الجار ثم الدار»^(٢) والسؤال هو: ماذا أرادت الزهراء، من وراء هذه الصورة الملائكية الرائعة التي انعكست من خلال صلاتها ودعائها؟ إنها بلا أدنى شك أرادت أن تربي النفوس تربية إسلامية رفيعة.. أرادت أن تعلمنا كيف نتغلب على مواطن الضعف في نفوسنا وكيف نقضي على الغل، والحسد والعدوانية القابعة داخل النفوس.. لأن النفس لها وجهان وجه مضيء بالتقوى، ووجه مظلم بالفجور، فالذي يترك نفسه هكذا تتحبط في ظلام الفجور، يهلك ويهلك الآخرين معه، في حين أن الذي يزكي نفسه، ويربيها تربية طيبة، فإنه لا شك سيأخذ النتائج المثمرة الحلوة، التي تجعل من نفسه إنساناً عظيماً، كبير القلب يتحمل المسؤولية بكاملها، لا يهرب، ولا ينهزم، وإنما هو في تقدم وبسالة، وشجاعة وإقدام يزداد قوة يوماً بعد يوم بفعل اهتمامه بتربية نفسه، وتزكيتها لها طوال الطريق..

ولكي تأتي الصورة واضحة أكثر من الآن اقرأ معي الكلمات التالية:
كما أن النفس الإنسانية تنمو على الفضائل والتقوى، ففي أعماقها تقبع أيضاً أكوام من الأنانية، وأكداس من الحقد الدفين، وتلال من

(١) بحار الأنوار ٨١/٤٣.

(٢) المصدر نفسه.

العدوانية، والإثم، وهذه كلها ترتدي ثوب الفجور، وتترىص الفرص، والأوقات المناسبة، لتظهر في سلوك الإنسان، في صور شتى.. كالنميمة والعدوان، والسطو، والظلم وكل ألوان الجريمة.. يحدث هذا، إذا ترك الإنسان نفسه تجري على هواها بلا قيد، أو شرط.. وسمح لفجورها أن ينتصر، أما الذي يكون سيّد نفسه فيتخطى السيئات فإنه بلا شك يرتفع إلى معارج السمو، والتقوى والحرية.. في حين أن الذي يدسها هكذا في تراب الشيطان، فإنها ترتد عليه محطمة إياه فلا تبقي منها جانباً إلا وأتت عليه، كالإعصار المنفلت.. لأن النفس هي مستودع الطاقات والقوى في الإنسان، فإذا لم يعرف الواحد منا كيف يوجه طاقاته النفسية، فإنه لا ريب سيكون ضعيفاً أثناء ردود الفعل التي تنشأ من جراء إهماله لنفسه، لذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١).

لاحظوا دقة التعبير، إنه يقول: «وقد خاب من دسّاه..» أي أن خيبته أعظم من أن يخسر الإنسان نفسه فتضيع منه الغاية.. وتتكرر الوسيلة، حيث الخسران الواضح.. والندامة الفادحة.

إن النفس المتروكة من دون تزكية، ولا توجيه، ولا تربية، لهي بؤرة ترتع فيها الخطايا والآثام.. وتتناسل فيها كل الصفات الرديئة، وكل الرذائل المنحطة. وهناك طريق واحد، لارتفاع النفس، وهو محراب الإيمان والدعاء، والصلاة.. فحين يقف الواحد منا في محراب الصلاة

(١) الشمس/ ٧-١٠.

والعبادة، فإنه يرتفع، ويرتقي في معارج السمو.. ومرتفعات الكرامة. وبكلمة: يستطيع المرء أن يتربع فوق الذرى الشاهقة، والقمم المضيئة، حين يستوعب معنى الصلاة، ويحفظ جواهرها النقي.. وقد جاء في الحديث الشريف: إن الإنسان عندما يقف في صلاته، تتساقط منه الذنوب، كما يتساقط الورق أيام الخريف.. والورق أيام الخريف يموت ثم يسقط وهي إشارة رائعة إلى موت الذنوب عند المصلي، بمعنى أن الذنب لكي يعيش، فإنه لا بدَّ له من تغذية وتقوية، والإنسان المؤمن لا وقود في نفسه لتقوية الذنوب، فتتساقط الذنوب منه كما يتساقط الورق أيام الخريف فالأوراق لا تسقط إلا بعد أن تتقطع عن جذورها، فلم يعد هناك من يمدّها بالطاقة وهنا يعترّيها الذبول، ثم تهوي مسرعة إلى الأرض.

إن محاسبة النفس، هي أنجح طريق للانتصار والنجاح في الحياة.. والصلاة أفضل عملية لتزكية النفس، وتطهيرها من الآثام.. فمن خلال نظرة واحدة على برنامج العبادة في الإسلام، يتضح لنا المفهوم الكامل للعبادة في الإسلام.

وخذ مثلاً على ذلك.. في صلاة الليل، المطلوب منك أن تذكر أربعين مؤمناً وتدعو لهم بالمغفرة والرحمة.. طبعاً أقصد صلاة الليل المستحبة وليس الصلاة الواجبة فإن القارئ الفطن يعرف أن صلاة الليل تختلف عن صلاة المغرب والعشاء.. لأن صلاة المغرب والعشاء واجبة.. في حين أن صلاة الليل مستحبة.. ونحن ضربنا مثلاً في صلاة الليل لنتبين الطريق إلى الهدف. فما هو الهدف من وراء ذكر أربعين مؤمناً بالدعاء؟



بصراحة: الهدف يكمن في قتل نوازع الشر في النفس.. فأنت حين تذكر إنساناً في ظهر الغيب، وتدعو له بالموفقية وطول العمر، والرزق وتطلب من الله بإلحاح أن ينزل عليه الرحمة والمغفرة.. أقول: حين تقوم بهذه العملية، فإنك إنما تعرض نفسك لأقوى عملية تطهير للنفس.. لأن مجرد ذكر إنسان غائب بالخير والدعاء، هذا العمل بحد ذاته يقتل الأنانية في داخل النفس، ويقضي على كل ملامح الحقد الدفين، والعدوانية.. إنها محاولة لزرع بيارد الحب، ومشاعل السمو في أعماق النفس.

إن الإنسان الذي يحمل الخير في قلبه لكل الناس، إنما هو إنسان مضيئة أعماقه، ليس فيها ظلام، ولا انحدار.. وإنما ينمو في أعماق هذا الإنسان كل عمل صالح، وكل معنى جميل.

من هنا نعرف لماذا كانت الزهراء تدعو لجيرانها.. قبل أن تدعو لنفسها ومن هنا أيضاً ندرك أن فاطمة الزهراء، -سلام الله عليها- إنما أرادت أن تعلمنا كيف نرتفع فوق الضغائن والأحقاد، كيف نصفي حسابنا مع الشيطان.. مع العدوانية.. مع الانهزامية لقد أعطتنا فاطمة الزهراء، أروع درس في التربية الإسلامية الهادفة. التربية التي تجعلنا نعيش من أجل الله، ومن أجل المحرومين، والمعذبين في الأرض، فالأشياء تقاس دائماً بمقدار خدمتها للإنسان.. بينما تقاس عظمة الإنسان.. بمقدار علاقته بالله سبحانه وتعالى.. وبمقدار خدمته للآخرين من أجل الله. وكلما ارتفعت النفوس انطفأت الأنانية فيها، وأضاءت شموع الإيثار والتضحية من أجل الآخرين.

أجل.. لقد كانت فاطمة الزهراء، تدعو لجيرانها، وتكثر لهم بالدعاء.. وحين سألها ولدها الحسن، قالت: الجار ثم الدار، يا بني.

إن نظرية الزهراء -سلام الله عليها-، حول حقوق الجيران وحسن المجاورة هي نظرية تقوم على المحبة والوفاء والإخلاص الذي ما بعده إخلاص، نظريتها تقوم على الإيثار وقتل الأثرة، على الأريحية وتنمية المبادرة إلى عمل الخير، نظريتها هي الخير المجبول بالخير والتسامح المجبول بالتسامح نظريتها هي باختصار: الجار قبل الدار.

وفيه عن حقوق الجوار والمجاورة

كان النبي، يحب أن يسمع فاطمة، تتادي: يا أبة.. لأن صوتها العذب، كان ينسكب سروراً في قلبه.. وقد ورد في حياتها أنه كانت تتادي يا أبة، ثم غيرت النداء، بعد نزول الآية: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ (١).

فما كاد يسمعها النبي تتاديه: يا رسول الله، حتى قال لها: يا بنية لم تنزل فيك، ولا في أهلك.. قولي: يا أبة فإنه أحب للقلب وأرضى للرب، وهنا نقرأ الحديث كما جاء في كتب السيرة النبوية الشريفة. قالوا إنه لما نزلت على النبي ﷺ ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ (٢).

قالت فاطمة عليها السلام: فتهيبت النبي ﷺ أن أقول له: يا أبة، فجعلت أقول له: يا رسول الله ﷺ، فأقبل عليّ فقال لي: يا بنية لم تنزل فيك ولا في أهلك من قبل، أنت مني وأنا منك، وإنما نزلت في أهل الجفاء والبذخ والكبر، قولي: يا أبة، فإنه أحب للقلب وأرضى للرب، ثم قبل النبي ﷺ جبهتي ومسحني بريقه، فما احتجت إلى طيب بعده. (٣)

(١) النور/ ٦٣.

(٢) النور/ ٦٣.

(٣) فاطمة بهجة قلب المصطفى ١/ ١١٠.

اشتراكها العليّ في فتح مكة

خرجت فاطمة العليّة مع أبيها وبعها يوم فتح مكة وضربت للنبي ﷺ قبة بأعلى الوادي وجلس فيها يغتسل وفاطمة تستره. وذهب عليّ إلى بيت أخته أم هانئ حين بلغه أنها آوت أناساً من بني مخزوم أقرباء زوجها، فلم تعرفه أم هانئ لأنه مقنع بالحديد، وقالت له: يا عبدالله أنا أم هانئ ابنة عم رسول الله وأخت عليّ بن أبي طالب، انصرف عن داري، فقال: أخرجوا من آويتهم، فقالت: والله لأشكونك إلى رسول الله، فنزع المغزر فعرفته وقالت: فديتك حلفت لأشكونك إلى رسول الله ﷺ، فقال: اذهبي فبّري قسمك، فجاءت فأخبرته، فقال: أجرت من أجرت.

فقالت فاطمة العليّة منتصرة لبعها: إنما جئت يا أم هانئ تشكين علياً في أنه أخاف أعداء الله وأعداء رسوله... (١).

خرج عليّ ﷺ بعد بيعة أبي بكر يحمل فاطمة بنت رسول الله ﷺ على دابة ليلاً في مجالس الأنصار، تسألهم النصر، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به، فيقول عليّ ﷺ: أفكنت أدع رسول الله ﷺ في بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه!

(١) «أعيان الشيعة» ١/ ٣١٠، ط بيروت.

فقال فاطمة عليها السلام: ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم. ^(١)

وعن جعفر بن محمد، قال: لما حضرت فاطمة الوفاة بكت، فقال لها أمير المؤمنين عليه السلام: يا سيدي ما يبكيك؟ قالت: أبكي لما تلقى بعدي، فقال لها: لا تبكي فوالله إن ذلك لصغير عندي في ذات الله. قال: وأوصته أن لا يؤذن بها الشيخين، ففعل ^(٢).

ودخلت أم سلمة على فاطمة عليها السلام فقالت لها: كيف أصبحت عن ليلتك يا بنت رسول الله ﷺ؟ قالت: أصبحت بين كمد وكرب: فقد النبي ﷺ وظلم الوصي، هتك والله حجابيه من أصبحت إمامته... مفتعبة ^(٣).

(١) «الإمامة والسياسة» ص ١٢، ط القاهرة.

(٢) و(٣) «البحار» ٤٣، ص ٢١٨ و ١٥٦.



المجاورة وحسن الجوار في الإسلام

تجىء النفوس إلى الحياة، مصبوغةً بألوان وصفات مختلفة، كالكرم والبخل، والشجاعة والجبن، والإقدام والتراجع، والقوة والضعف، والإيثار والأثرة. وهناك نفوس تتّصف بالإيمان والفطرة، ونفوس أخرى تتّصف بالكفر واتباع الشيطان. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (١).

هكذا تنزل النفوس إلى الحياة، صفة الإيمان فيها أقوى من صفة الكفر، لأن الإيمان يستمد قوته من الله سبحانه وهو يكون في الإنسان منذ الولادة ثم يبدأ بالنمو فيكبر مع الأيام ويتأثر بالمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه الطفل فيعيش معنى الكرم والأريحية وحب الآخرين ويتعوّد على عمل الخير والتسامح والفضائل على أنواعها وكل ذلك يحدث أيام الطفولة، حتى إذا كبر الطفل واشتدت قواه تأثر بأجواء التربية في البيت، والمدرسة والمجتمع، فإن كانت الأجواء نقيّة صافية، ترعرع في أحضان الإيمان وحافظ على مبادئ التربية والأخلاق والتقوى.. أما إذا لم يجد أجواءً مناسبة فإنه يتغير، وتتبدل صفاته الحسنة لأن «كل مولود يولد على الفطرة إلا أن أبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..» بمعنى أن التربية هي التي تجعل الطفل غالباً ما يكون تابعاً لسلوك اليهود، أو النصارى، أو المجوس.

والشاهد هنا أن الطفولة البريئة تحتضن الصفات الطيبة،

(١) الشمس/ ٧-٨.

والخصال الحميدة.. وأحياناً تكون الخصال الطيبة أقوى من الخصال الرديئة خاصة أيام الطفولة، وأحياناً تكون بالعكس أي أن الصفات الرديئة تطفئ على سلوك الطفل، وذلك يرجع لأسباب وراثية، وعوامل نفسية.

يقال إن حاتم الطائي، كان له أخ بخيل إلى أبعد الحدود، وذات يوم سأل أمه هذا السؤال: «أماه لماذا صار أخي حاتم كريماً سمحاً شجاعاً، في حين أنني أجد نفسي بخيلاً جباناً غليظاً في معاملتي مع الآخرين؟»..

فأجابت الأم قائلة: اعلم يا بني أن أخاك حاتماً هذا، عندما كان طفلاً يرتضع لبني وكنت أضعه على صدري، فإذا رأى طفلاً غريباً إلى جواره، يبتعد عن الثدي، ويقدمه لذلك الطفل الرضيع بإشارة صغيرة أو إيماءة خاطفة كنت أعرفها من حركاته البريئة.. هكذا كان أخوك حاتم.. أما أنت فحين كنت أرتضعك من ثدي كنت تضع يدك على الثدي الثاني عندما ترى طفلاً في جوارك.. فأخوك يقدم الثدي للطفل بينما أنت تضع يدك على الثدي مخافة أن يرتضع ذلك الطفل من الحليب.

وعلى الرغم من تمسك حاتم بالكفر، وبقائه مشركاً، فإن الإسلام يقدر صفة الكرم فيه حق قدرها، وكان الرسول الأعظم محمد ﷺ قد أطلق سراح ابنته وقومها حين جاءوا بهم إليه أسرى، وقال لها: لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، ثم قال كلمته المعروفة: «خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق» وقد أعطاها من العطاء ما سد بين

جبلين كما هو معروف لدى من له إلمام بالتاريخ، وإحاطة بسيرة الحبيب المصطفى.

كان حاتم الطائي كريماً لا يشق له غبار، وقد امتدح الإسلام هذه الخصلة فيه، وحفظ حقها، لأنها من الفضائل والأخلاق التي جاء بها الإسلام لتركيزها في النفوس، فإذا احترم الإسلام كرم حاتم فإن ذلك يعني أن الإسلام له خط يمشي عليه وهو احترام الخصال الطيبة حتى ولو كانت عند من لا يؤمن به.. المهم أن الإسلام يشجعها لأنها من مبادئه في الحياة.. بينما يحتقر صفة البخل حتى ولو كانت في أزهـد الزهاد، وأعبد العباد.. لأن البخل ضد مبادئ الإسلام، وهي من الصفات التي يجمعها سوء الظن بالله تعالى.

* أخبار في صفات حاتم وحسن الجوار:

وهذه باقة من نوادر حاتم الطائي، في الشعر والأدب والكرم نذكر طرفاً منها هنا للفائدة. يقول:

ناري ونار الجار واحدة وإليه قبلي ينزل القدر

ما ضر جاراً إذ يجاورني ألا يكون لبابه ستر

اعمى إذا ما جارتني برزت حتى يوارى جارتني الخدر

وجاء في الأدب العربي، أن رجلاً كان مجاوراً لحاتم، فأراد أن يسافر، فأوصى حاتماً بأهله، فكان حاتم يتعهدهم، فإذا جزر بعث إليه، من أطايبها، وإذا اصطاد كان لهم سهم. وذات يوم راودته امرأة رجل غائب عن نفسه، فاستعصم، وامتنع امتناعاً شديداً.. ففضبت

المرأة عليه، فلما قدم زوجها أخبرته أن حاتماً أرادها، فبلغه ذلك من قبل امرأته، فأنشأ يقول:

وما تشتكيني جارتني غير أنني إذا غاب عنها زوجها لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجع بعلمها إليها ولم تسبل علي ستورها
فلما عرف الرجل حقيقة الأمر، قام وطلق زوجته لأنها كانت خائفة..
إن حفظ الجوار من الخصال الأصيلة عند العرب قبل الإسلام فجاء
الإسلام وأكدها. يقول عبدالحميد الهلالي:

واني لعف عن زيارة جارتني واني لمشئوء إلي اغتياها
إذا غاب عنها بعلمها لم أكن لها زؤوراً ولم تنبح علي كلابها
وما أنا بالداري أحاديث بيتها ولا عالم من أي حوك ثيابها
كما جاء في صفات حاتم أنه ما كان يأكل الطعام دون أن يجلس معه
أحد على المائدة.. وبذلك يقول مخاطباً زوجته بقوله:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذي الجدين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيا لأفاني لست آكله وحدي
قصياً قريباً أو بعيداً فإنني أخاف مذمات الأحاديث من بعدي
وحسبك داء أن تبیت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد
وهذا البيت الأخير استشهد به الإمام علي أمير المؤمنين في كتابه
لعثمان بن حنيف كما جاء ذلك في نهج البلاغة.

وكان حاتم يقول لعبده أوقد النار فإن الليل طويل وبارد وثقيل، ولعل

نارك تجلب ضيفاً يقيم عندنا الليلة، فإذا استقطبت نارك ضيفاً فأنت
حر مطلق السراح...:

يقول:

«أوقد فإن الليل ليل قرّ والريح يا موقد ريح صرّ
علّ يرى نارك من يمرّ إن جلبت ضيفاً فأنت حرّ
ويخاطب زوجته ماوية بقوله:

أماوي ما يعني الثراء عن الفتى إذا حشرجت نفسي وضاق بها الصدر
وإن أنا دلّاني الذين أحبهم للحدود زلخ جوانبها غبرّ
وراحوا سراعاً ينفضون أكفهم يقولون قد أدمى أناملنا الحفرّ

كل هذه اللوحات الرائعة التي أنقلها لكم من أعماق الصحراء في
الجاهلية، تدل على صفاء الفطرة، ونقاوة الضمير، وذلك حتى تدرك
أن الإسلام إنما هو دين الفطرة، ودين الإنسانية الصادق. ولهذا تقول
فاطمة الزهراء -سلام الله عليها-: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر..
فليكرم ضيفه».^(١)

كما كانت فاطمة تدعو لجيرانها من المؤمنين والمؤمنات، فقل لها
بذلك، فقالت: «الجار ثم الدار»^(٢). ويقول الرسول الأعظم محمد
-صلوات الله عليه وآله وسلم-: «لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه».

(١) الفقه كتاب الأطعمة ص ٢٩٧.

(٢) بحار الأنوار ٨١/٤٣.

ولذا قال علي عليه السلام: «الله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم...» (١).

وقيل: ليس حسن الجوار كف الأذى، بل الصبر على الأذى.. فلا يكفي أن تكف أذاك عن الجيران، بل وأيضاً عليك أن تصبر على أذاهم.. لأن الصبر على الأذى هو الذي يشد القلوب، ويبني النفوس بناءً ريانياً.

لقد ذكروا أنه كان لرسول الله صلى الله عليه وآله جار يهودي يؤذيه، وذات يوم فطن النبي إلى كف الأذى من ذلك الجار فقال لأصحابه ما بال جارنا اليهودي، لم نره منذ ثلاثة أيام -كان هذا هو مضمون كلام النبي وليس نص كلامه الشريف- فقالوا: يا رسول الله إنه مريض يشكو ألماً منذ ثلاثة أيام، فما كاد النبي يسمع بأن جاره اليهودي مريض، حتى قال لأصحابه: هيا بنا نذهب لزيارته وعيادته.

وحين وقع بصر اليهودي على النبي، بهت وأسقط في يده، ثم أعلن إسلامه بعد أن فاضت عيناه بالدموع وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

يقول الرسول صلى الله عليه وآله «أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً» (٢).
ويقول الإمام الصادق: «أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً» (٣).

(١) نهج البلاغة ص ٢١ رقم الوصية ٤٧.

(٢) بحار الأنوار ١٥٩/٧١.

(٣) بحار الأنوار ١٥٨/٧١.



وفي حديث آخر يقول الصادق عليه السلام: «من الإيمان حسن الصحبة، وحسن الجوار». (١)

وذلك أن الإيمان إنما هو انعكاس على سلوك الإنسان المؤمن، ولا يوجد إيمان بغير انعكاس، لأن الإيمان نور، والنور يشع في الظلام.. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور فلا يمكن أن يوجد مؤمن، ولكن من دون أن نحس بانعكاس الإيمان على جوارحه وسلوكه، وطريقة حياته.. «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين».

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق: «عليكم بحسن الجوار، فإن الله عز وجل أمر بذلك». (٢)

ومن دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «وتولني في جيراني وموالي العارفين بحقنا والمنابذين لاعدائنا». (٣)

وفي رسالة الحقوق للسجاد يقول: «وحق جارك حفظه غائباً، وإكرامه شاهداً - أي حاضراً».

وعن المفضل بن عمرو قال: دخلت على أبي عبدالله الصادق، فقال لي: «من صحبتك؟»

فقلت له: رجل من أخواني.

قال: فما فعل؟

فقلت: دخلت المدينة فلم أعرف مكانه!..

(١) المصدر نفسه.

(٢) بحار الأنوار ٧١/١٥٠.

(٣) الصحيفة دعاء رقم ٢٦.

فقال لي: أما علمت أن من صحب مؤمناً أربعين خطوة سألّه الله عنه يوم القيامة!..^(١)

على أن هذا الحديث يكشف لنا مدى عمق الفكر التربوي في الإسلام، في تنشئة الأجيال، على المسؤولية، وأداء الأمانة، واجتناب الخيانة.. وإلا ففي أي حزب أو مبدأ أو قانون نجد هذه الروح التقدمية المسؤولة الرائعة، بحيث يسألك عن الإنسان حتى لو مشى معك خطوات قليلة فقط..!

إنها ريادة في التربية.. وارتقاء في الأخلاق.. بل إنها السمو والأريحية بعينها.. نحن نقرأ هذا الفكر في وقت يعيش فيه الناس أشتاتاً متفرقين لا يسأل أحدهم عن الآخر إلا بمقدار ما تسمح له مصلحته المادية، وهذه هي حالة العالم المعاصر الذي هجر مبادئ السماء ومناهج الأنبياء، وراح يلهث وراء الشهوات والقناطر المقلقة من الذهب والفضة.

يقول الشاعر:

رأيت الناس قد ذهبوا	إلى من عنده ذهبٌ
ومن لا عنده ذهب	فَعنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضة	إلى من عنده فضة
ومن لا عنده فضة	فَعنه الناس منفضة
رأيت الناس قد مالوا	إلى من عنده مالٌ
ومن لا عنده مالٌ	فَعنه الناس قد مالوا

(١) البحار ٧١/١٥٣.

وأعظم من هذا الشعر هو قول الإمام أبي عبدالله الحسين -عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام- حيث يقول: «الناس عبيد الدنيا والدين لعق على أسنتهم يحوطونه مادرت معاشهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون».

وطبعاً، فإن هذه النماذج من الناس التي يذكرها الحسين، إنما هم من الذين انسلخوا عن الإيمان، وراحوا يلهثون وراء بريق الدينار، والدرهم، أي أنهم باعوا الآخرة بالدنيا، أو قل: باعوا الحق بالمال.. وماذا بعد الحق إلا الضلال.. فحين باعوا الحق.. غرقوا في الضلال والظلام والضياع.. وهؤلاء هم الذين يعبدون الله على حرف أي على طرف رقيق ضعيف ولم يأخذوا بإيمانهم بقوة وثبات. يصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١).

والذي أوصلنا إلى هنا، سؤال الإمام الصادق من المفضل بن عمرو: أين تركت صاحبك الذي مشى معك خطوات؟ وكيف تركته والله سائلك عنه يوم القيامة؟.. فإذا كان الله سبحانه يسألك عن الشخص الذي قطع معك مسافة قليلة، لم تستغرق من الوقت إلا دقائق معدودة، فما بالك بمن يجاورك رديحاً من الوقت وربما يعيش إلى جانبك طوال الحياة؟

(١) الحج/ ١١.

* أحاديث في حسن الجوار:

وإليك حزمة من الأحاديث التي تدعونا إلى حسن الجوار، وحسن اللقاء مع الناس:

يقول الإمام علي عليه السلام: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء».

ويقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (١).

قال: «أي قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم».

وليس خافياً أن الأخلاق الطيبة، والخصال الحلوة الأصيلة، إنما تظهر على السلوك، عندما يملك الواحد منا نفسه عند الغضب، لأن الغضب هو الذي يحرق شتائل الآداب في النفس.

يقول الإمام جعفر الصادق: «اعلموا أنه ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب» (٢).

في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣).

أي متكبراً يأنف من أقاربه وجيرانه، وأصحابه، وفخوراً أي يفتخر عليهم.

(١) البقرة/ ٨٣.

(٢) راجع هذه الأحاديث في البحار والكافي ج ١، ٧١، ٢.

(٣) النساء/ ٣٦.



وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: جاءت فاطمة تشكو إلى رسول الله ﷺ بعض أمرها، فأعطاه رسول الله كربة -وهي أصل السعفة في النخلة، وقال: تعلمي ما فيها، فإذا فيها: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره.. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»^(١).

كما كانت فاطمة تدعو لجيرانها.. وتوزع عليهم أطباق الطعام بين الحين والحين»^(٢).

ومن أقوال النبي ﷺ وأهل بيته في حسن الجوار: النبي «من خان جاره شبراً من الأرض، جعلها الله طوقاً في عنقه يوم القيامة». -: «من آذى جاره، حرم الله عليه ريح الجنة، ومأواه جهنم وبئس المصير.. ومن ضيّع حق جاره فليس منا، وما زال جبرائيل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه». -: «من آذى جاره، طمعاً في مسكنه، ورثه الله داره» أي أماته قبل جاره فيرث جاره داره بمعنى يشتريها ويضيفها إلى بيته من أجل السعة.

وقال النبي ﷺ لعلي أمير المؤمنين عليه السلام: «يا علي أربعة من قواصم الظهر: إمام يعصي الله ويُطاع أمره.. وزوجة يحفظها زوجها، وهي تخونه، وفقير لا يجد صاحبه له مداوياً، وجار سوء في دار مقام»^(٣).

(١) البحار ٦٢/٤٣.

(٢) البحار ٨١/٤٣.

(٣) هذه الأحاديث كلها في البحار ١٥٠/٧١.



ويقول أبو بصير: سمعت الإمام الصادق يقول: «من كف أذاه عن جاره، أقال الله عز وجلّ عشرته يوم القيامة». (١)

ويقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «إن لجارك عليك حقوقاً.. ومن حقوقه عليك ألا تؤذيه بقتار قدرك حتى تقتدح له منها» أي من حقوق الجار عليك أن تغرف له من قدرك قبل أن تأكل أنت منها.

وبالفعل فقد كان الإمام زين العابدين نفسه، إذا كان اليوم الذي يصوم فيه- في رمضان أو في غير أيام شهر رمضان- كان يأمر بشاة فتذبح وتقطع أعضاؤها وتطبخ، وإذا كان عند المساء أكب على القدور حتى يجد ريح المرق وهو صائم- وإنما يصنع ذلك لكي يتأكد من إكمال الطبخ ونضوج الطعام ثم يقول: هاتوا القصاع.. اغرفوا لآل فلان.. واغرفوا لآل فلان، حتى يأتي على آخر القدور ثم يؤتى (إليه) بخبز وتمر فيكون ذلك عشاؤه». (٢)

وقيل للنبي: يا رسول الله، أفي المال حق سوى الزكاة؟ قال: «نعم: برّ الرحم إذا أدبرت، وصلة الجار المسلم، فما آمن بي من بات شبعاناً، وجاره جائع.. ثم قال: ما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». (٣)

وكان النبي ﷺ يقول: ثلاثة هن أم الفواقر - (جمع فاقرة وهي

(١) البحار ٧١/١٥٠.

(٢) البحار ٧١/٤٦.

(٣) البحار ٧١/١٥١.

الداهية التي تكسر الفقار وهو الظهر وسمي فقاراً لوجود العمود الفقري فيه) -يقول النبي: «ثلاثة هن أم الفواقر: سلطان إن أحسنت إليه لم يشكر وإن أسأت إليه لم يغفر.. وجار عينه ترعاك، وقلبه ينعاك، إن رأى حسنة دفنها ولم يفشها، وإن رأى سيئة أظهرها وأذاعها.. وزوجة إن شهدت (أي حضرت) لم تقر عينك بها، وإن غبت لم تطمئن إليها»^(١).

وجاء عن أهل البيت: من قواصم الظهر: «جار سوء، إن رأى حسنة أخفاها، وإن رأى سيئة أفشاها وأذاع بها بين الناس».

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ملعون ملعون من آذى جاره».

وذات يوم أمر النبي -صلوات الله عليه- «ثلة من أصحابه أن ينادوا في المسجد بأعلى أصواتهم: إنه لا إيمان لمن لا يأمن جاره بوائقه.. فنادوا ثلاثاً، ثم أمر فتودي: أن كل أربعين داراً من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله يكون ساكنها جاراً له»^(٢).

ونلمس التركيز والاهتمام البالغ واضحاً في حديث النبي وموقفه هذا من حقوق الجيران، ومنهاج المجاورة في الإسلام.. فهو لم يكتف برجل واحد ليرفع النداء بين الناس، وإنما طلب من ثلة من أصحابه أي مجموعة من الرجال الأشداء الأقوياء الذين يملكون أصواتاً قوية جهورية حتى يسمعهم الأقربون والأبعدون، لأن النبي عندما يختار جماعة لرفع النداء وتبليغ الناس فإنما يختارهم أقوياء ذوي أصوات

(١) البحار ١٥١/٧١.

(٢) البحار ١٥٢/٧١.

جهورية، كما هو شأن اختيار النبي في كل شيء حيث يدل اختياره على ذوق رفيع، وحكمة بالغة.. ومن كل هذا نخرج بنتيجة تقول: إن هؤلاء الفتية الذين اختارهم النبي ليرفعوا أصواتهم بحقوق الجوار إنما كانوا أقوياء، وذلك لأن النبي يريد أن يبلغ وثيقة الحقوق هذه حقوق الجوار إلى كل الناس، وكل الجماعات، حتى تشتد رابطة الاجتماع، وتقوى العلاقات بين الناس.. فيصوغ بذلك مجتمعاً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

ومعلوم أن جار السوء يهدم بناء الأسرة، ويمزق الروابط الاجتماعية، ولذلك كان الرسول الأعظم محمد يقول: «أعوذ بالله من جار سوء، في دار إقامة، تراك عيناه ويرعاك قلبه، إن رآك بخير ساءه، وإن رآك بشر سره»^(١).

أجل.. كما أن المجاورة الرديئة تحطم، وتدمر المجتمع.. كذلك، في المقابل، فإن المجاورة الطيبة الحسنة، تزيد في الرزق، وتتعش القلوب. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «حسن الجوار يزيد في الرزق».

ومن هذه الأخبار أن رجلاً جاء إلى النبي، وقال له: إن فلاناً جاري يؤذيني.. قال: اصبر على أذاه، وكف آذاك عنه، فما لبث أن جاء الرجل إلى النبي، وقال: يا نبي الله إن جاري قد مات، فقال النبي: «كفى بالدهر واعظاً، وبالموت مفرقاً» ومعنى ذلك أن النبي بجوابه للرجل، إنما كشف له عن قانون خفي عنا، وما أكثر القوانين المستورة عنا في

(١) البحار ١٥٢/٧١.



هذا الكون الهائل الواسع.. والقانون يتلخص في أنك حين تكف الأذى عن الجار الذي يؤذيك، فإن النتيجة هي تعجيل نزول البلاء عليه تنزل النعمة التي تقطع العمر، وتقصم الظهر، على الجار الذي يؤذيك، عندما تكف أذاك عنه. وهذا هو القانون الغيبي الذي كشفه الرسول لذلك الرجل السائل.

يقول الإمام علي عليه السلام: «الجوار أربعون داراً، من أربعة جوانبها».

وإذا أردت أن تعرف المسافة التي يطويها هذا الحديث حول المجتمع.. فخذ ورقة، وقلماً بيدك واضرب الرقم ٤٠ في أربعة جهات، ثم كرر عملية الضرب بمقدار ما يتكرر الرقم الأربعون، لتجد مدى تماسك المجتمع الإسلامي وقوته، وإحساس بعضه بآلام البعض الآخر.

إن الإسلام يربينا تربية صادقة، فهو لا يكتفي بهذا القدر من المسؤولية، وإنما يخطو خطوات أوسع، وأعرض من ذلك، فيقول: «من أصبح ولم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم».

ويقول: «من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم».

وهكذا يشدك الإسلام، بوشاح عالمي من المسؤولية الهادفة الرائدة.

فقد جاء في الدعاء: «واكفني مؤونة إنسان سوء.. وجار سوء.. وقرين سوء.. وسلطان سوء.. ويوم سوء.. وساعة سوء.. إنك على ما تشاء قدير وبكل شيء عليم آمين رب العالمين».^(١)

ومن دعاء الإمام زين العابدين في الصحيفة السجادية عندما كان

(١) مفاتيح الجنان ص ٧٣.



يدعو لجيرانه ويبين حقوقهم في الإسلام كان يقول: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد، وتولني في جيرانى وموالى العارفين بحقنا، والمنابذين لأعدائنا، بأفضل ولايتك ووفقهم لإقامة سنتك، والأخذ بمحاسن أدبك، في إرفاق ضعيفهم، وسدّ خلّتهم، وعيادة مريضهم، وهداية مسترشدهم، ومناصحة مستشيرهم، وتعهد قادمهم، وكتمان أسرارهم، وستر عوراتهم، ونصرة مظلومهم، وحسن مواساتهم بالماعون، والعود عليهم بالجنة والإفضال، وإعطاء ما يجب لهم قبل السؤال»^(١).

وهل يستطيع أديب مهما أوتي من قوة البيان وعمق الفكر، وسحر الإنشاء أن يفسر لنا هذه اللوحة الرائعة التي رسمها الإمام زين العابدين، بريشة الإيمان والعبقريّة؟

تأملوا كلمات هذه اللوحة، كلمة... كلمة.. تجدوا أنّ كل كلمة هي مدرسة فكرية قائمة بذاتها.. تحتاج إلى أصحاب العقول.. وحملة الفكر وفرسان الأدب.. لاستيعاب معناها.. رغم وضوحها الشديد.. إذ إنّ الإمام السجاد لا يتعامل مع الكلمة الغامضة.. شأنه في ذلك شأن جده النبي وأهل بيته الطاهرين، حيث كلامهم نور ليس فيه غموض ولا تعقيد بل يتحدثون ويكتبون، وكأنّ الكلمات تورق على شفاههم في عفوية وتلقائية ليس لها نظير.

وفي عقيدتي أن بساطة الأسلوب، وعمق الفكر ووضوحه الشديد، هي أهم ركيزة في تراث الإسلام كتاباً وعترة.. فكما أنك لا تجد في

(١) الصحيفة السجادية دعاء رقم ٢٦.



القرآن كلمة غامضة.. كذلك لا تجد في فكر أهل البيت كلمة غامضة أبداً.. فالقرآن يقولها بصراحة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (١).

وكذلك أهل البيت حيث إنهم أمراء الكلام وفيهم تنشبت عروقه، وعليهم تهدأت أغصانه...

يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «وإن لكلامنا نوراً وإن عليه لحلاوة» (٢).

والنور إشارة إلى العمق الفكري لدى أهل البيت في حين أن الحلاوة التي يذكرها الإمام الرضا، هي حلاوة الأسلوب، وسحر البيان، الذي يأخذ بمجامع القلوب.

والآن.. وبعد أن سمعنا، ما سمعنا من الحديث المشرق، بقي علينا أن ندرك أهمية اللوحة الرائعة الطيبة التي كتبها الإمام السجاد، كوثيقة تحفظ حقوق الجيران في الصحيفة السجادية زبور آل محمد. وقد قلنا -آنفاً- إن فاطمة الزهراء -صلوات الله وسلامه عليها-، كانت تدعو في صلاتها للجيران قبل أن تدعو لنفسها.. ولما سألها ولدها الإمام الحسن عليه السلام عن ذلك، قالت: «الجار ثم الدار...» (٣).

وفي الإسلام، يتم توزيع الجيران وحقوقهم ضمن ثلاثة محاور: واحد، هو مسلم ومن أرحامك، أي أنه قريب إليك نسباً وفي جوارك،

(١) القمر/ ١٧.

(٢) هذا الحديث موجود في أول كتاب الحقائق للبحراني.

(٣) بحار ٨١/٤٣.

فيكون له حق القرابة، وهي صلة الرحم، وحق الإسلام لأنه مسلم، وحق الجوار لأنه جارك...

أما الثاني، فهو مسلم فلا بد له من حقوق الإسلام، وهو مجاور لك، فله حق المجاورة.. أي أنه يتمتع بحقين: الإسلام، والجوار...

أما الثالث فهو المشرك الكافر.. الذي ليس له إلا حق الجوار. وهذه من أدق الأمور في مناهج الإسلام، حيث يجب عليك أن تراعي حق الجوار حتى ولو كان جارك مشركاً بعيداً عن الله.

يقول الرسول: «الجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق: حق الجوار.. وحق القرابة.. وحق الإسلام.. وجار له حقان: حق الجوار وحق الإسلام. وجار له حق الجوار.. المشرك من أهل الكتاب»^(١).

ولكي نستوعب الموضوع بشكل كامل فإنه لا بد من إعطاء صور، وأمثلة لهذه الفكرة بالذات وهي حفظ الجوار حتى مع المشركين والكفار، وسيأتي هذا البحث في محله من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(١) بحار الأنوار ١٥٥/٧١.



موقف الزهراء من مجرمي الحرب

في نزول سورة البراءة من دون بسملة -أي أنها خالية من بسم الله الرحمن الرحيم - روي عن علي عليه السلام أن البسملة أمان، وهي نزلت لرفع الإيمان بالسيف - فرفعت البسملة عنها ولكن بالرغم من أن السورة جاءت لرفع الأمان عن المشركين، طبعاً ضمن حالة خاصة .. أقول: فبالرغم من ذلك، إلا أنها لم تترك حق الجوار، حتى بالنسبة للمشركين، إذ قالت الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (١).

والقرآن لم يعط المشرك حق الجوار فحسب، بل وأيضاً أعطاه بالإضافة إلى حق الجوار، حق العودة إلى مأمنه أي إلى مكان يشعر المشرك بالأمن والطمأنينة فيه دون أن يتعرض له أحد، بسوء. وهذا لا يتحقق إلا بإرسال من يدافع عنه خلال الطريق حتى يوصله إلى محل أمنه وأمانه. وهنا يُطرح سؤال: كلنا نعرف أن أبا سفيان دخل المدينة في قصة نقض المعاهدة، واستجار بفاطمة الزهراء، -سلام الله عليها، غير أن فاطمة رفضت أن تُجيره، وطردته من بيتها .. فما هو السبب؟ ثم كيف نوفق بين الآية التي تعطي للمشرك حق الجوار، وبين إقدام فاطمة على طرد أبي سفيان وعدم إجارتته؟..

بشيء من التأمل، وبُعد النظر، ندرك الإجابة الدقيقة التي ستقدمها

(١) التوبة/ ٦.



فاطمة على هذا السؤال.. وجواب فاطمة نابع من القرآن الكريم -لأنها هي القرآن الناطق- ومن نفس السورة -سورة براءة- في الآية السابعة، والثامنة. فالقرآن يؤكد أن المشركين لا عهد لهم، ولا وفاء لهم ولا ذمة.. وما داموا كذلك، فلا ينبغي أن تكونوا معهم أوفياء لأنهم لا يعرفون معنى الوفاء ولا يفقهون حقيقته..

وقد سبق أن جرى توقيع وثيقة العهد في صلح الحديبية.. فما استقاموا لكم على العهد، وحفظ شروط الصلح، فاستقيموا لهم بالوفاء وحفظ الجوار، هذا إذا استقاموا على حفظ العهد وشروط الصلح.. أما إذا نقضوا العهد، ومزقوا الوثيقة وخافوا الشروط، فلا ينبغي لكم أن تكونوا أوفياء معهم، بل إن الوفاء هنا يُعدُّ خيانة عظمى... والمتقي لا يخون.. فإذا جاء أبو سفيان بعد أن خان العهد، وجعل الشروط تحت أقدامه، وأجرى الدماء البريئة، فإن فاطمة الزهراء -سلام الله عليها- ترفضه ولا تجيره أبداً، لأن الله يرفض أبا سفيان، ولأن الرسول الأعظم، يرفض أمثال أبي سفيان من الخونة الفجرة.

وإذا رفض الرسول استجارة هذا الخائن، فكيف يمكن لبضعة الرسول أن تُجير أبا سفيان؟.. إن هذا ضرب من المحال.. فأصحاب الكساء نورهم واحد ورضاهم واحد، وغضبهم واحد، فلا يصح أن يغضب الرسول على أحد، وترضى عنه فاطمة.. أو تغضب فاطمة على شخص ويرضى عنه النبي.. إن هذا لا يمكن أن يحدث أبداً.. لأن رضا أهل البيت رضا الله وغضبهم غضب الله، زد على كل هذا أن النبي وأهل بيته، معصومون لا يصدر منهم الخطأ على الإطلاق.



ودعني أذكرك أن المسألة، ليست مسألة توزيع، بحيث يغضب النبي على أبي سفيان، ثم تجيء فاطمة فتطفئ الغضب، لتشعل الرضا مكانه، بمعنى أنها تقوم بعملية استبدال الرضا مكان الغضب. وحتى تبدو الصورة أكثر وضوحاً، هلموا معي نقرأ الآيتين المباركتين التاليتين:

يقول القرآن الكريم: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

ومعنى ذلك أن المشركين، أساساً، لا ضمير لهم، ولا وجدان، ولا وفاء لهم، ولا ذمة، فكل محاولة لزرع الثقة فيهم، فاشلة سلفاً.. ثم يستثني منهم أي من المشركين الذين عاهدتم عند المسجد الحرام -أي يوم جرى توقيع وثيقة العهد في صلح الحديبية. بالنسبة لهؤلاء، يمكن التعامل معهم شريطة أن يستقيموا على العهد، وحفظ الشروط، وهذا هو أهم الشروط وأعظمها: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ -على العهد- فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾.

أما إذا أخلوا بالشروط، فلا حرمة لهم، ولا وزن ولا قيمة. ثم قالت الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وفاطمة هي أعلى قمة في التقوى، بل هي سيدة المتقين،.. وإذا كانت فاطمة قمة التقوى، فكيف يمكنها مخالفة الحق..؟ ولأن هذا لا يصدر من فاطمة، لذلك طردت أبا سفيان ورفضت أن تجيره، لأنه عدو لله وللرسول أولاً، ولأنه خان العهد، وأحرق الأمانة ثانية.. ثم هو جاء

(١) التوبة/ ٧.



يسعى إلى المدينة، ويداه غارقتان بدماء الأبرياء التي سفكها بالعراء قبل أيام من مجيئه.. من أجل ذلك كان طلبه مرفوضاً بالشكل والأساس، لأن القرآن الكريم، يؤكد عمق الخباثة القابعة في نفس أبي سفيان، ونفوس المشركين معه.

يقول الحق سبحانه: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١).

إذن، ففاطمة كانت من القرآن كالضوء من الضوء، عندما رفضت استقبال مشرك، مثل أبي سفيان. وهنا أود أن أذكر بأن الموقف من هذا الرجل كان دقيقاً وصعباً إلى أبعد الحدود.. فالمسألة كانت مسألة مصير: انتصار أو هزيمة.. وأبو سفيان كان يومها رأس الكفر والنفاق، واستمر على ذلك إلى آخر حياته.. فلا يمكن أن يتسامح النبي مع أبي سفيان هنا أبداً، بخلاف موقفه يوم فتح مكة.. فعندما فتح مكة وجاء نصر الله والفتح، ورأى النبي الناس يدخلون في دين الله أفواجا، أفواجا، هنالك منح أبا سفيان شيئاً من الاحترام ليرد عليه شمله، فقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

على أن هذا النداء، ليس تشريفاً لأبي سفيان، وليس فيه فضيلة له أبداً، وذلك أن النبي أساساً أعطى الأمان لكل أهل مكة، وأهلها يومئذٍ مشركون، وأبو سفيان واحد منهم وكان النبي في العادة، عندما يفتح بلاداً، يضع كل كريم قوم على قومه، وهذه سيرته الذاتية التي استطاع

(١) التوبة/ ٨.

بها أن يغير خارطة الدنيا.. وإذا كانت هذه صفة النبي ﷺ فليبدأ إذن،
بأبي سفيان واحترامه يشد قومه إلى الإسلام، وهذا هو الذي حدث
بالفعل.

إن نظرة واحدة نلقيها على أحداث فتح مكة، وعلى الشعارات التي
أطلقها الرسول الأكرم أثناء دخول قوات الإسلام إلى مكة المكرمة،
أقول: إن نظرة واحدة تكفي لإعطائنا صورة ناصعة لحركة النبي داخل
هذه المدينة، وغايته السامية التي كان يريد تطبيقها بالكامل.. فمثلاً
نجد النبي يرفض نداء سعد بن عبادة الأنصاري الذي كان يقول فيه:
اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة، ويستبدله بنداء علي أمير
المؤمنين حيث كان يقول: اليوم يوم المرحمة. اليوم تصان الحرمة.. كان
هذا في بداية الدخول وهم على بوابات مكة المكرمة.. وحين دخلوا كان
النبي ﷺ واضحاً رأسه على حدج الناقة، حياءً من قريش! لا حتى إذا
توسط جمعهم وهم سكوت في وجوم عميق رفع رأسه والرحمة تفيض
من عينيه الشريفتين ليقول لهم: ما تظنون إني صانع بكم الآن؟ فقالوا
بأجمعهم: أخ كريم وابن أخ رحيم ملكت فاصفح وعفوت فاسجح.. قال:
لا تشرب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء واطلقهم جميعاً.

أحاديث في تفضيل فاطمة على النساء

قال ابن أبي الحديد: إن رسول الله ﷺ مال إليها وأحبها، فازداد ما عند فاطمة بحسب زيادة ميله، وأكرم رسول الله ﷺ إكراماً عظيماً أكثر مما كان الناس يظنون، وأكثر من إكرام الرجال لبناتهم، حتى خرج بها عن حد حب الآباء للأولاد؛ فقال بمحضر الخاص والعام مراراً لا مرة واحدة، وفي مقامات مختلفة لا في مقام واحد: «إنها سيدة نساء العالمين، وإنها عذيلة مريم بنت عمران، وإنها إذا مرت في الموقف نادى مناد من جهة العرش: «يا أهل الموقف غضوا أبصاركم لتعبر فاطمة بنت محمد ﷺ»، وهذا من الأحاديث الصحيحة. (١)

وقال شهاب الدين الألوسي: عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «أربع نسوة سادات عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وأفضلهن عالماً فاطمة...» والذي أميل إليه أن فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات والمتأخرات من حيث إنها بضعة رسول الله ﷺ، بل ومن حيثيات أخر أيضاً، ولا يعكر على ذلك الأخبار السابقة لجواز أن يراد بها أفضلية غيرها عليها من بعض الجهات، وبحيثية من حيثيات...

إذا البضعية من روح الوجود وسيد كل موجود، لا أراها تقابل بشيء، وأين الثريا من يد المتناول؟ ومن هنا يعلم أفضليتها على عائشة

(١) «شرح النهج» ٩/١٩٣.



الذاهب إلى خلافها الكثير محتجّين بقوله ﷺ: «خذوا ثلثي دينكم عن الحميراء»...

وأنت تعلم ما في هذا الاستدلال، وأنه ليس بنصّ على أفضليّة الحميراء على الزهراء. أمّا أوّلاً، فلأنّ قصارى ما في الحديث الأوّل على تقدير ثبوته إثبات أنّها عالمة إلى حيث يؤخذ منها ثلثا الدين، وهذا لا يدلّ على نفي العلم المماثل لعلمها عن بضعته -عليه الصلاة والسلام- ولعلمه ﷺ أنّها لا تبقى بعده زمناً معتداً به يمكن أخذ الدين منها فيه لم يقل فيها ذلك، ولو علم لرّبما قال: خذوا كلّ دينكم عن الزهراء.. على أنّ قوله -عليه الصلاة والسلام-: «إنّي تركت فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي، لا يفترقان حتّى يرثي عليّ الحوض» يقوم مقام ذلك الخبر وزيادة كما لا يخفى. كيف لا، وفاطمة -رضي الله تعالى عنها- سيّدة تلك العترة^(١).

وقال العلامة المجاهد السيّد شرف الدين: تفضيلها على مريم العليّة أمر مفروغ عنه عند أئمة العترة الطاهرة وأوليائهم من الإمامية وغيرهم، وصرّح بأفضليّتها على سائر النساء حتّى السيّدة مريم كثير من محقّقي أهل السنّة والجماعة كالنقيّ السبكيّ، والجلال السيوطيّ، والبدر، والزرکشيّ، والنقيّ المقريزيّ، وابن أبي داود، والمناوي فيما نقله عنهم العلامة النبهانيّ في «فضائل الزهراء» ص ٥٩ من كتاب «الشرف المؤبّد»، وهذا هو الذي صرّح به السيّد أحمد زيني دحلان مفتي

(١) «تفسير روح المعاني» ٣/ ١٥٥.

الشافعية ونقله عن عدة من أعلامهم، وذلك حيث أورد تزويج فاطمة بعلي في سيرته النبوية^(١).

أقول: وهذا نص كلامه: وهي الزهراء والبتول أفضل نساء الدنيا حتى مريم رضي الله عنها، كما اختاره المقرئ والمقرئ والمقرئ، والحافظ السيوطي في كتابه «شرح النقا» و«شرح جمع الجوامع» بالأدلة الواضحة التي منها أن هذه الأمة أفضل من غيرها، والصحيح أن مريم ليست بنبي بل حكي الإجماع على أنه لم يتبأ امرأة قط. قال عليه السلام: «مريم خير نساء عالمها، وفاطمة خير نساء عالمها»^(٢) رواه الترمذي. وقال عليه السلام: «يا بني، ألا ترضين أنك سيّدة نساء العالمين؟ قالت: يا أبت فأين مريم؟ قال: تلك سيّدة نساء عالمها» رواه ابن عبد البر. وقد أخرج الطبراني بإسناد على شرط الشيخين، قالت عائشة: «ما رأيت أحداً قط أفضل من فاطمة غير أبيها»^(٣)...

وروى المجلسي قال: قال النبي عليه السلام: فاطمة سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وإنها لتقوم في محرابها فيسلم عليها سبعون ألف ملك من المقرئين، وينادونها بما نادى به الملائكة مريم، فيقولون: يا فاطمة «إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين»^(٤).

وقال عليه السلام: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة

(١) هامش «النص والاجتهاد» المورد ٨، ص ١١٤.

(٢) إنما قال «عالمها» لأن عالمها أفضل من عالم مريم كما صرح به المؤلف آنفاً.

(٣) «السيرة الحلبية» ٦/٢.

(٤) «البحار» ٤٩/٤٣، وقد تقدم. والآية في آل عمران، ٤٢.

بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون». وفي رواية مقاتل والضحاك وعكرمة عن ابن عباس: «وأفضلهنّ فاطمة». (١)

وعن محمد بن سنان، عن المفضل قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أخبرني عن قول رسول الله ﷺ في فاطمة: «إنها سيّدة نساء العالمين» أهي سيّدة نساء عالمها؟ فقال: ذاك لمريم، كانت سيّدة نساء عالمها، وفاطمة سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين. (٢)

وعن الحسن بن زياد العطار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول رسول الله ﷺ: فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة، أسيّدة نساء عالمها؟ قال: ذاك مريم، وفاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين. (٣)

وقال النبي ﷺ: الحسن والحسين خير أهل الأرض بعدي وبعد أبيهما، وأمهما أفضل نساء أهل الأرض. (٤)

وفي الحديث: إنّ آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وخديجة يمشين أمام فاطمة كالحجّاب لها إلى الجنّة. (٥)

وروى السيّد الشبر عن النبي ﷺ: «فاطمة خير نساء أمّتي إلّا ما ولدته مريم». ثمّ قال: وأحسن توجيهاته على تقدير صحّته أن تكون فيه «إلّا» بمعنى الواو كما ذكره أهل العربيّة، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾. (٦)

(١) و(٢) «العوالم» ٤٦/١١ و٤٩.

(٣) إلى (٥) «العوالم» ٤٩/١١ - ٥١.

(٦) البقرة/ ١٥٠.

ويكون المعنى أنّها خير نساء أُمّتي وخير نساء أُمّة ما ولدته مريم
وهو عيسى؛ وخصّص تلك الأُمّة بالذكر لكثرة النساء الصالحات
العابدات فيها دون أمم سائر الأنبياء. (١)

(١) «مصاييح الأنوار ٢/ ٣٩٣ - ٣٩٤.

٥	- عطاء فاطمة (ع) بلا حدود
١٣	- مناهج التربية عند فاطمة
٢٣	- الإيمان إقرار وسلوك
٤١	- من المؤمنين رجال
٤٣	- الدنيا المطلقة
٤٩	- خطبة الزهراء من نساء المهاجرين والأنصار
٥٦	- الزهراء تمثل اشواق السماء
٥٨	- حقوق الإنسان والعدل الاجتماعي في ظل حكومة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام
٧١	- في الخطبة
٩٢	- عمّن نُقلت خطبة الزهراء؟
٩٤	- عودة إلى الحمد
٩٦	- عظمة الله وآلائه ورحمته
١٠٥	- من خطبة الزهراء واجتنب القذف حجاباً من اللعنة الوالي وحقوق الدعية
١٢٢	- تسبيح الزهراء (ع) رحلة في عالم الكمال والرفي
١٢٣	- الحركة تابعة للهدف
١٢٥	- الكون مخلوق لحكمة فلا تفسدوها
١٢٩	- احمدا الله فتعمه لا تحصي
١٣٨	- في قول الزهراء (ع) «وله الشكر على ما ألهم»
١٤١	- حديث النذر في خطبة فاطمة
١٤٦	- وصيتها عليها السلام
١٤٧	- تأملات في آيات النذر
١٥٢	- الإسلام وعلاقة الأبدان بالأديان
١٥٣	- أحاديث في الوفاء بالنذر والعهد

- ١٥٦ - موضوع تحريم الخمر في خطبة الزهراء
- ١٥٨ - الغيبة ومسؤولية المؤمن
- ١٦٥ - فاطمة (ع) هي الأفضل
- ١٦٩ - البيوت الرفيعة بيت فاطمة
- ١٧٠ - قيمة الشيء من نفعه للإنسان وقيمة الإنسان من علاقته بالله
- ١٧٢ - البيوت التي أذن الله أن تُرفع
- ١٨٢ - في القلب فاطمة
- ١٨٣ - القلب منطقة حرّة في الإنسان
- ١٩٠ - لا إكراه في الدين
- ١٩٦ - الإيمان والأخلاق = الإنسان العقل
- ١٩٨ - حرية الإنسان لا تخرجه عن إرادة الله
- ٢٠١ - الفكر الإسلامي والعوالم الأخرى
- ٢٠٣ - في الغيِّ والرشد
- ٢٠٤ - في بيت فاطمة (ع)
- ٢٠٨ - فاطمة (ع) والتاريخ
- ٢١٠ - في الظلم والظلمة
- ٢١٣ - مولاتنا الزهراء جبل الاعتصام
- ٢١٥ - الزهراء صوت العدالة الأول في الإسلام
- ٢١٦ - عندما يتحول العمالقة إلى أقزام
- ٢٢٥ - الظلمة .. وسام الليل
- ٢٢٦ - العقيدة مُصانة في الإسلام
- ٢٢٨ - لمن شاء أن يتقدم
- ٢٣٠ - الخطبة



- ٢٣٣ - الخوف من المستقبل
- ٢٣٨ - واجبات العالم والنفس الأمارة بالسوء
- ٢٤١ - من روائع الإمام الحسين عليه السلام
- ٢٤٢ - تربية وأخلاق
- ٢٤٣ - أحاديث في الأخلاق والحضارة
- ٢٥٥ - المداومة على العمل شرط نجاحه
- ٢٥٦ - فاطمة الكادحة
- ٢٥٧ - خير الناس من عمل بعلمه
- ٢٥٩ - تحريك المشاعر.. من أجل العمل الصالح
- ٢٦١ - مَتَّ وَأَنْتَ فِي أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ
- ٢٦٢ - العاقبة من نوع العمل
- ٢٦٤ - النية ملاك العمل
- ٢٦٧ - قادم من كوكب آخر
- ٢٧٧ - غريزة حب الذات وغريزة حب الغير
- ٢٨٥ - علم النفس التربوي... ومنهج التوبة في الإسلام
- ٣١٣ - كيف تنقذ الشباب من خضم الضياع؟
- ٣٣٥ - رسالة عاجلة من فتاة إلى فتاة
- ٣٣٨ - فطنة وذكاء
- ٣٤٠ - حديث في الإنفاق
- ٣٤١ - اقرأ واسمع وفكر
- ٣٤٥ - المنهج الإلهي طريق الفلاح دنيا وآخره
- ٣٥١ - مراحل حياة الإنسان
- ٣٧٩ - لقد هدموا قانون حقوق الجار

- ٣٨٨ - وفيه عن حقوق الجوار والمجاورة
- ٣٨٩ - اشتراكها (ع) في فتح مكة
- ٣٩٠ - المجاورة وحسن الجوار في الإسلام
- ٤٠٩ - موقف الزهراء (ع) من مجرمي الحرب
- ٤١٤ - أحاديث في تفضيل فاطمة على النساء